مِنْ هُدى القرآن

٣

تفسير سورتي

الأنعام والأعراف

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة الانعام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

فضل السورة :

1 ـ قال أبو عبد الله (عليه السـلام) : «نـزلت سـورة الانعام جملة واحدة شيّعها سبعون ألف ملك حتى أنـزلت على محمد (صـلّى الله عليه وآلـه) فعظّموها وبجّلوها ، فان اسم الله فيها في سبعين موضعا ، ولو علم الناس ما فيها ما تركوها».

2 ـ أروي عن العـالم (عليه السّـلام) أنه قـال : «إذا بـدأت بك علّة تخـوفّت على نفسك منها ، فـاقرأ الانعـام فانّه لا ينالك من العلّة ما تكره».

3 ـ عن أبي بصـير قـال : كنت جالسا عند أبي جعفر (عليه السّـلام) وهو متّك على فراشه ، إذا قـرأ : «الآيـات المحكمـات الـتي لم ينسـخهن شـيء من الانعـام قـال : شيّعها سبعون ألف ملك (**قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**)».

الإطار العام

ثلاث حقائق (الله ـ الإنسان ـ الكون) :

في بداية هذه السورة امتزجت حقائق الكون ببعضـها وفق البصـــيرة التوحيدية الـــتي بـــالرغم من اهتمامها بالفواصل الواقعية بين الأشـياء إلّا أنّها تعلق أهميّة كبـيرة على مدى علاقة الأشياء ببعضـها ، وتـذكرنا هـذه السـورة بطائفة من حقـــائق الكـــون كمثل لهـــذه الوحـــدة. تلك الحقائق هي :

أ ــ الإنسـان باعتبـاره عبـدا مخلوقا لله ، وسـيدا على الطبيعة ، إنّ عليه أن يقف امـــام عظمة الله ويقـــول : «الحمد للــه» حامــدا عظمة الله ، ليس لأنه قــدير واسع الرحمة فحسب ، بل لأنه سـبحانه أغـدق عليه من رحمته الواسعة الشيء الكثير ، فلذلك يحمده.

ب ـ الله باعتباره سيدا مطاعا للخليقة ومهيمنا عليها.

ج ـ الكون أي السماوات والأرض ، والظلمات والنور. باعتبارها مخلوقـــات لله ، ومـــدبّرات بـــأمره ، والرابطة الوثيقة بين الإنسان وبين الكون هي أنهما معا

مخلوقان لله ، مدبران بأمره سبحانه.

ولكن الإنسان يملك ـ بـإذن ربه ـ مـيزة أساسـية بين الخلائق هي انه سـيدها الـذي سـخر الله له إياها ، ولـذلك فهو يحمد ربه.

وإذا أراد الإنسـان أن يكـرّس في ذاته صـفة السـيادة على الكـون فليس عليه سـوى المزيد من الارتبـاط بربه الذي سخر الكون لأمره.

معرفة الله :

ان معرفة الطبيعة من دون إله لها يعني ان المادة بلا روح ، بلا قيّم ، وبلا نظام ، ومعرفة الله بعيدا عن الطبيعة يعـــني البحث في فـــراغ ، في التجريد ، في اللاشـــيء ، وســـواء كـــانت هـــذه أو تلك فهي تنتهي بالإنســـان الى اللامسؤولية واللّاإلتزام ، وبالتالي اللّاوعي.

المادي الذي يختصر حياته في الأشياء ، ولا ينظر عبر المـــــــــادة الى ما ورائها من هيمنة الله ، وقيامه وملكه وسلطانه ، إنّه لا يشعر بالتزام تجاه المادة ، لأنّ المـادة لا حياة لها ولا عزة لها ولا حكمة.

المـــادة لا تراقبه ، ولا تحاســـبه ، ولا تجازيه ، بل لا يشعر بها ، فلذلك فهو ينفلت عن التقيد بالمسؤوليات.

وكـذلك الصـوفيّ الـذي يـؤمن بالألفـاظ والكلمـات ، والخلسات والهمسـات ، ولا يـؤمن باله الحيـاة والنظـام ، والتــدبير ، والملك ، والحســاب والعقــاب ، انه لا يــؤمن بالطبيعة كمظهر سام من مظاهر الحياة التي وهبها الله ، والنظام الذي قام عليه وأجراه سبحانه ، وبالتالي لا يؤمن بالطبيعة كاسم من أسماء الله سبحانه إن هذا الصــوفي ، هو الآخر لا يشعر بمسؤولية أمام الحياة الـتي فصـلها عن الله.

والحقيقة في معرفة المادة والروح هي الايمان بواقع الطبيعة ، وبحقيقة القيم الــتي تهيمن عليها ، والاعتقـــاد بوجود الطبيعة المدبّرة بسـلطان ربها ، وبالتـالي الاهتـداء الى الله عبر أسمائه وآياته المنتشرة في رحاب الطبيعة.

ان القــرآن باعتبــاره كتــاب الله الــذي ، لا ريب فيه يتحـــدث إلينا عن الطبيعة باعتبارها جســرا يســير عبرها الفكر الى معرفة الله ، وباعتبارها مظهـرا سـاميا لأسـماء الله وآياته ، وباعتبارها أداة للإنســـان لاكتشـــاف نفسه ، والاهتداء الى ربه ، والتكامل حتى يكون الى الله المنتهى.

عليك ان تنظر الى الســـماوات ولا تجلس في غرفة مظلمة تبحث عن الله ، ولكن إيـــــــــاك ان تنظر الى الســـماوات كأنها أشــــياء ثابتة جامــــدة جاهلة ، كلا بل باعتبارها حقائق تسبّح بحمد خالقها وتسجد لهيمنة ربها.

لماذا اسم الأنعام

؟ إن سورة الأنعـام هي مثل كل سـور القـرآن الـتي تشع بنــور التوحيد ، وتنسـاب في ضـمير الإنسـان بضـياء الايمـــان بالله ، ولكنها لم تسّـــم باسم مجـــرّد. فلم يكن اسمها مثلا : سورة الحي القيوم ، أو سورة الصمد الأحد ، أو سورة القدوس الأعلى ، أو سورة الحمد والتسبيح ، كلا ... بل سميت بسورة الأنعام.

الأنعــام الــتي يضــرب الله بها مثل الغبــاء ، ويعتقد الإنسان أنّها لا تعني شيئا في حقل الايمان والعرفـان ، مع ذلك سـمّى الله هـذه السـورة باسم الانعـام ليجعلنا نغـير نظرتنا الى الانعام ، ونعـرف انها نعمة من نعم الله ، وانها بالتـالي تهـدينا الى الله من جهـة. وتفـرض علينا من جهة مســئولية معينة ، وهي تلك المســؤولية الــتي يشــعر بها المؤمن أمام ربه ، وبذلك يخرج المـادة (وهنا الانعـام مثل لها) من النظر إليها بنظرة الشيئية دون الالتفـات الى دور المادة في تكامل الروح والعلم والقيم ، كما يخرج

بذلك أيضا الروح والعلم والقيم والايمان من عالم التجريد والمثالية الى عالم الحقيقة.

وقد ذكرت كلمة الأنعام في هذه السـورة في الآيـات بين (138 إلى 148) كل هــذه كــانت في رأينا بعضا من فلسفة اسم الأنعام في هذه السورة.

سورة الأنعام مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)**

---

1 [يعدلون] : عدلت عنه أي أعرضت.

2 [تمترون] : الامتراء الشك ، وأصله من مرات الناقة إذا مسح ضرعها لاستخراج ، اللبن ، ومنه ما راه يماريه مراء ومماراة إذا استخرج ما عنده بالمناظرة ، فالامتراء استخراج الشبهة المشكلة من غير حل.

هكذا تجلّى الرب

بينات من الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

[1] (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ**)

إن الله ســبحانه لم يهب الســموات والأرض خلقهما فقط ، بل قـــدّر لهما أمورهما ، ونظم شـــؤونهما ، فكل شيء في السموات والأرض محدود بحـدود معينة حـددتها حكمة الله ، وعلمه الواسع ، وقدرته المطلقة.

فالشـــمس لها وزنها وســـعتها ، وحرارتها وكثافتها ، ومـدارها ومجراها ، ونهايتها وبعـدها عن سـائر الشـموس السابحة في الفضاء.

كـذلك الأرض والقمر والكـواكب والنجـوم ، وهكـذا الحـال لكل شـيء موجـود في الأرض ، حـتى الـذرة لها حدودها التي لا تتجاوزها.

وعند ما نقـول : حـدودها نعـني : أن كل شـيء ينتهي وجوده عند حد معين ، وبعدئذ لا يملك وجودا أو بتعبير آخر : ينعــدم في خــارج حــده ، مثلا : التفاحة موجــودة في مســــاحة معينة وفي وقت محــــــدود. أما فيما وراء تلك المسـاحة ، وذلك الـوقت فلا وجـود للتفاحة ، كـذلك فـان الله قدّر ــ بحكمته وقدرته ــ الوجـود والعـدم ، فجعل كل شيء موجودا في حدود معينة ، وجعله معــدوما فيما وراء ذلك. إذا فهو جاعل العدم والوجود ، ومقدرهما ومدبرهما.

وربما يشير الى هذه الحقيقة قوله تعالى :

(**وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ**)

ذلك لأن الظلمــات رمز لكل عــدم ، بينما النــور رمز لكل وجود.

أمــام هــذه القــدرة والحكمة المطلقة ، لا يســعنا إلّا الحمد ، والحمد هو ذلك الموقف الرشــيد الــذي لا بد ان نتخــذه من ربنا ، ولكن كم هو بعيد وشــاذ موقف الكفــار حيث يشركون بربهم ، ويضعون الله سبحانه عـدلا للأنـداد من دونه. تعالى ربنا عما يصفه المشركون!

(**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**)

الشك لماذا وكيف؟

[2] إن الإنسان في هذا الكون الواسع محـاط بقـدرة الله ، وما عليه إلّا أن يعرف هـذه الحقيقة ، ويعـترف بها ، ولا يرتـاب فيها ولا يشـكك نفسه في ذلك ، لأن الشك قد يكــــون عفويّا ، وقد يكــــون شــــكا نابعا من الهــــوى أو الحساسية وما أشبه ، وفي قضية الايمان بالله لا نجد ذلك النوع من الشك ، أن الله أظهر من أن يشك فيه بشر [1] ، ان

(1) :جاء في دعاء عرفة للإمام الحسين (عليه السلام) : «الهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار ، فاجمعني»

هــذا الشك هو الشك الــذي مصــدره إغمــاض العين عن الشــواهد ، والانصــراف عن الأدلة ، والمجادلة في الحق بعد اليقين به.

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَـلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**)

ان خلقة الإنسان كانت من طين فلذلك هو يــنزع اليه ويهــوى الخلــود اليه ، ومن الصــعب عليه أن ينبعث الى الحق.

ولأن الإنســـان خلق من طين فـــأولى به ان يخشع لخالقه والّا يستكبر.

ثم ان للإنســان قــدرا مقــدورا. ذلك ان خلايا جســمه تتحلل ، وعظامه تهن وتضـــعف ، وينتهي بالتـــالي الى الموت.

فقد يأتيه الموت بحادث سيارة أو مرض سرطان ، أو قتل في حرب أو .. أو ..

الميتة الاولى قدر مقــدور عليه ، كما هو قــدر مقــدور على كــلّ حيّ وعلى كــلّ مــادة ، أما الميتة الثانية فهي قضــاء يقــدرها الله عليه ، ويكتبها في ســجله الأســمى ، وذلك وفقا لاختيار الفرد نفسه.

إذا فهو إله الســـــــموات وإله الأرض ، وهو ملكهما ومرجع أمورهما.

(**وَهُوَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ**)

ولأنه يــدبر أمــور الســموات والأرض ، فهو عليم بهما لأنه من المستحيل أن يدبر

عليك بخدمة توصــلني إليــك. كيف يســتدلّ عليك بما هو في وجــوده مفتقر إليـك! أيكـون لغـيرك من الظهـور ما ليس لك حـتى يكـون هو المظهر لك! متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك؟! ومـتى بعـدت حـتى تكـون الآثـار هي الـتي توصل إليـك!؟! عميت عين لا تـراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا. مفاتيح الجنـان / 342 ـ دار الأضواء

الكون دون أن يعلم بخفاياه.

(**يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ**)

إنه يعلم السر كما يعلم الجهر. (بعكس الإنســان) لأن السر هو الذي يتكون أولا ، ثم يـبرز أمـام النـاس ، كالحبة تحت التراب ، تتحول عبر تفـاعلات كيمياوية الى زرع قبل أن يراها النـاس ، ثم إذا اخضـرت الأرض أصـبحت جهـرا (والله يعلم سرها وجهرها)

ولذلك فأن علمه بالسر يسبق علمه بـالجهر (بـالرغم من أن علم الله لا زمان له).

والله يعلم خفايا الحبة التي تتفاعل مع أملاح الأرض ، ثم إذا تفاعلت يعلمها خبراء الزراعة ثم يراها المزارعون.

كــذلك يعلم الله إرادة الإنســان قبل أن تتحــول إلى عمل ، ويعلم العوامل المؤثرة فيهـا. عـاملا عـاملا ، ويعلم طبيعة الظــروف ومــدى اســتعداد الإنســان لتحــدّيها ، أو استســلامه لهــا. لــذلك فهو يعلم ما ذا يريد الإنســان أن يعمله في المستقبل بـالرغم من أن هـذه الإرادة لا يعلمها حـتى الإنسـان نفسه «عـرفت الله بفسخ العـزائم ونقض الهمم».

(**وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ**)

ما تكسبون من خير أو شر ، الآن ومسـتقبلا ، وهكـذا .. فعلى الإنسان أن يصـلح ما في نفسه من عقد ونـزوات ، ويطهّرها من صـفاتها السـيئة ، تلك الـتي يحاسـبه عليها ربنا ، وهو عليم بكل تفاصـــيلها ومقاديرها ، كما عليه أن يصلح ظاهره ، ويراقب أعماله.

وَما تَـأْتِيهِمْ مِنْ آيَـةٍ مِنْ آيـاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كـانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِـالْحَقِّ لَمَّا جـاءَهُمْ فَسَـوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِؤُنَ (5) أَلَمْ يَـرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَـلْنَا السَّـماءَ عَلَيْهِمْ مِـدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6) وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَـكٌ وَلَـوْ أَنْزَلْنا مَلَكـاً لَقُضِـيَ الْأَمْـرُ ثُمَّ لا يُنْظَـرُونَ (8) وَلَـوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9) وَلَقَـدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَحـاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُكَـذِّبِينَ (11)

وهكذا يحتجب الخلق عن الرب

هدى من الآيات :

تحقيقا للهـدف العـام لسـورة الانعـام الـذي هو تنمية روح الايمــان بالله في النفــوس ، وجعله مصــباحا يهــدى الإنسان في ظلمات الحيـاة ، تحقيقا لهـذا الهـدف العظيم جاءت آيات هذا الـدرس لتفضح الـدافع الأساسي لتكـذيب آيات الله ورسـالاته ، لعل الإنسـان يتـذكر بنفسه ويحـاول تطهيرها من شر هذا الدافع الأساسي الذي هو الاســتهزاء بــالحق ، والاعــراض عن آياته ، وما دام البشر يســتخف بـالحق ولا يقـدره حق قـدره ، فانه لن يسـتمع الى آيـات الحق ، ولن يحاول استيعاب هذه الآيات.

ولكي يطهر البشر قلبه من هـــذا الـــدافع فعلينا أن نذكّره (كما عليه هو أن يتذكر) بمصير المستهزئين بـالحق ، المعرضين عن آياته كيف أنهم دمّروا شر تدمير.

وتبين آيات هذا الدرس انه ما دام الاستهزاء موجودا ، أي ما دام البشر غـير مهتم بـالحق. فانه لا ينتفع بأيّة آية ، بل يحاول أن يتشبث ببعض الحجج الواهية حتى يردّ الحق وآياته ، ومــتى ما فشــلت حجة من حججه ، فانه يســارع الى حجة واهية

أخرى.

فلو جاءته الآيات على شكل كتاب مـنزّل من السـماء ، فانه يقول : إنها سـحر ، ثم يطـالب ربه بـأن يـنزّل عليه الملائكة ، ولكن هل هــذا ينفعــه؟ كلا ، لأن الملك عند ما يأتيه مثلا فانما يأتيه بصورة إنسان أو شبهه ، ولكن ما دام يكفر بالرسل. فكيف لا يكفر بالملائكة؟!

ان الحل الوحيد للمعـــرض عن آيـــات الحـــقّ ، أو المســـتهزئ بها هو أن يتـــذكر مصـــير المكـــذبين بها والمعرضــين عنها ، وذلك بالســير في الأرض ، لأن الحق ينتصر من المكذّبين والمعرضين.

بينات من الآيات :

الاستعداد النفسي :

[4] لكي نعـــرف الحق نحتـــاج الى الانفتـــاح عليه والبحث الجدّي عن آياته ، وإنك تحتاج الى البحث الســليم عن طريقك وأنت تسير في الصحراء أو في الجبـال حـتى تكشفه من خلال المعالم الموجـودة على الرمـال ، أو بين الصخور.

فاذا أراد الإنسان أن يعرف طريقه في الحياة من أين جـــاء ، والى أين يســـير ، وكيف ومـــتى ، وأين ينتهي به المطاف ، وكيف يسـعد ، وكيف يمـارس أعماله بشـكل لا تتعارض ومصالحه الحقيقية وهكذا؟

أفلا يحتـاج الى البحث ، وهل يمكن أن يكشف أحــدنا طريقه في الحياة بلا تعب؟! كلا ..

ومن حسن حظنا نحن البشر أن الله منّ علينا بتوضيح طرق الحياة ، وهدانا الى

أبلج الطرق ، والمطلـوب منا أن نفتح أعيننا جيـدا لنهتـدي بهـدى ربنا ، أما إذا أغمضـنا أعيننا فحـتى نـور الشـمس لا يســتطيع أن ينفذ الى عين مغمضة ، إذا فالشــرط الأول للهداية ، هو الاسـتعداد النفسي لتقبّلها إذا تـوفرت آياتها ، أما إذا لم يكن عند الإنسان هـذا الاسـتعداد ، وقـرر سـلفا الكفر بالحق ، فانه سـوف يعـرض عن آيـات الحق ، ومثلا على ذلك الذي ينتمي الى حـزب ، ولا يفكّر أبـدا في تـرك هذا الحزب لأنه قد اتخذ قراره سلفا لانكـار الحق ، كـذلك الكـــافرون يعرضـــون عن آيـــات الحق لأنهم قد اتخـــذوا قرارهم الخاطئ سلفا بالكفر.

(**وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ**)

انهم لا يحضــرون عند من يتلو الآيــات ، وان حضــروا فهم لا يســـتمعون الى تلك الآيـــات ، وإن اســـتمعوا إليها فليس للاهتداء بها بل من أجل ردّها.

عاقبة الاستهزاء بالحق :

[5] يســـتخّف الكفــــار بآيـــات ربهم ، والواقع أنهم يسـتخفّون بـالحق الـذي تـدلّ عليه تلك الآيـات. إن من لا يحضر عند من يذكّر بالله ، ويقـول : من هـذا حـتى أحضر عنده؟! أنه لا يستخف بهذا الرجل. بل بالحق الذي يحمله.

كـــذلك من لا يقـــرأ كتابا يهديه الى الحق ويقـــول مستخفا. به : ما هذا؟! إنه يستخف بالحق لا بالكتاب.

كـذلك من لا ينظر الى آيـات الله في الكـون نظـرا عبريا ، وكذلك الذي لا يتدبر في القرآن.

(**فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ**)

إن فطـــرة الإنســـان تدفعه الى البحث عن الحـــقّ ، ولكن الذي دنّس فطرته بوسخ

الشـرك. ينكر الحق ، ويكـذب به حـتى وإن جـاءه بـدون بحث أو صعوبة.

(**فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

إن مثل هـــؤلاء لا يعرفـــون أهمية الحق ودوره في فلاحهم وسـعادتهم ، ومـدى حـاجتهم اليه ، وهـذا الجهل سيرديهم ، لأن الحق الذي يسـتخفون به ، وينكـرون دوره في حياتهم سوف ينتقم منهم غدا حين يخالفونه.

إنك إذا أنكـــرت حقيقة الجاذبية في الأرض وأعرضت عمـدا عن كل الآيـات الـتي تـدل عليهـا. وإذا قيل لك : إن سـقوط التفـاح من الشـجر وانحـدار السـيل ، وتسـاقط المطر كل ذلك يـدل على الجاذبية ، وأنك لو قفــزت من عـلّ فسـوف تسـحبك الأرض وتحطم عظامك ؛ قلت : كلّا .. ولم تستمع الى الأدلة ، بل أعرضت عنها.

مـاذا سـتكون النتيجـة؟ بـالطبع إنّ هـذا الحق الـذي أنكرته اليوم ، سـيأتيك غـدا لينتقم منك ، بـأن تسـقط في يوم من الأيام فاذا بعظامك محطّمة.

كـــذلك لو أنكـــرت حقيقة أنّ الســـكوت على حكم الظالم سيحطم سـعادة الشـعب ، ولم تسـتمع الى آيـات هـذا الحق المتمثلة في مئـات العـبر التاريخية الغـابرة ، والتجارب البشرية الحاضرة ، فسوف تسكت عن الظـالم ، وتكـــون أنت أول من يحيط به ظلم الظـــالم ، ويحطم سعادته.

[6] هكذا كـان مصـير كـلّ أولئك الـذين أعرضـوا عن آيـات الله ، وكـذبوا بـالحق ، واسـتهزءوا به كتعبـير عن استخفافهم به ، واستهانتهم بدوره في سعادتهم.

سنة العذاب :

إننا إذا نظرنا الى تـاريخ البشـرية فإننا نـرى حقيقة بارزة هي أن مصير كلّ المكذبين بالحق كانت المأساة.

(**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ**)

هل أهلكوا لأنهم كانوا ضعفاء؟ كلا بل بالعكس :

(**مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ**)

أيّ أنهم سيطروا على مـوارد الأرض ، وسـخروها في مصلحتهم بإذن الله ، واستقروا في الأرض ، واطمـأنّوا بها حتى ليكاد يحسبهم الناظر انهم خالدون فيها.

(**وَأَرْسَلْنَا السَّـماءَ عَلَيْهِمْ مِـدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهـارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ**)

لقد اسـتقروا في الأرض وتجـاوزوا مرحلة البـداوة ، والارتحـال من منطقة لأخـرى طلبا للـرزق ، خوفا من الوحوش ، أو من نكبات الطبيعة ، ثم كانت مـوارد الـرزق عندهم كبيرة وسـهلة وهـذه هي أسـباب قيـام الحضـارات البشرية.

ولكن هذه الحضارة (التّمكين) لم تشـفع لهم. إذ أنهم حين أعرضوا عن آيات الحق ، وكذبوا بها واسـتهزءوا. آنئذ خالفوا عمليا الحق ، وأكـثروا من الـذنوب الـتي هي تعبـير ديني عن مخالفة الحق.

إنهم ظلمـوا أنفسـهم ، وطغـوا على الآخـرين ، ولم يستفيدوا من موارد الطبيعة ، بل أفسدوها ، وفعلوا مثلما فعل قوم عاد أو قوم لوط أو قوم شعيب ، وكانت النتيجة : ان تلك الـذنوب تكـاثرت حـتى أحـاطت بهم ، وأنهت حضاراتهم.

(**فَأَهْلَكْناهُمْ بِـذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَـأْنا مِنْ بَعْـدِهِمْ قَرْنـاً آخَرِينَ**)

إن هذه عبرة كافية للبشر إذا أراد أن يعتبر.

[7] ولكن البشر قد يغلق على نفسه منافذ قلبـه. فلا يقبل الحق ولو جاءه

بطريقة إعجازية.

(**وَلَـوْ نَزَّلْنا عَلَيْـكَ كِتابـاً فِي قِرْطـاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْدِيهِمْ**)

أي في أوراق ملموسة يرونها تهبط عليهم من السماء كما ينزل المطر إنهم لا يفكّـرون أن ذلك إعجـاز ، فكيف ينزل من السماء قرطاس فيه هدى ونور ، إذا :

(**لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

وكيف يمكن إقنـاع من يخلط المعجـزة بالسـحر؟ هل بمعجزة أقوى وأكبر؟ إنه آنئذ سيزعم أنها سحر أكبر؟!

إن إقناع هذا الشخص أصعب من إقناع من يخلط بين المتناقضـات في تفكـيره كالبـدائي الـذي يـزعم : ان من الممكن ان يوجد شــخص في مكــانين في زمــان واحد ، ذلك لان هــذا يعــاني من نقص في تفكــيره. يمكن إزالته بـالتعليم أما ذاك فهو مصـمم على ألّا يقتنع بـالحق لأنه لا يرى أهمية لذلك أصلا.

[8] ان هذه الطائفة تطالب أبدا بمعاجز جديدة. تهرّبا من الاقتنـاع بـالحق ، وليس هـدفهم من هـذه المطـالب بريئا.

(**وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**)

من السماء نراه بأعيننا حتى نصدّق به ، ولكن إذا جاء هل يصدقون به أم يعودون ويقولون : إنه سحر مبين؟!

إن لله ســننا وأنظمة في الكــون يجــري عليها أمــور الكون ، ولا يخرق هذه السنن بطلب كلّ أحد.

ومن تلك السـنن : أنه قـدّر ألّا يـنزل الملائكة إلا في يوم المعاد. حيث يظهر الجزاء فورا وبصورة واضـحة. في ذلك اليـوم تظهر الملائكة لكي يجـازوا النـاس بأعمـالهم ، وتظهر حقائق الكون للجميع. لذلك قال ربنا :

(**وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ**)

في ذلك اليوم تنتهي فرصة الاختبار للإنسـان ، ويـأتي يوم الجزاء العاجل الـذي لا يمهل صـاحبه ، أما الآن فنحن في يوم المهلة.

[9] ثم ما الفرق بين ان ينزّل الله ملكا أو يـنزّل رجلا ، فما دام الفرد كـافرا وجاحـدا. لا فـرق بين أن يأتيه رجل رسولا ، أو يأتيه ملك رسولا. انه سوف يكفر بهما جميعا.

(**وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكـاً لَجَعَلْنـاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْـنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ**)

إن الهـدف من بعث الرسل ليس إكـراه النـاس على الالـــتزام بطريق الحق ، بل إتمـــام الحجة عليهم وذلك بتوفـير فرصة الهداية لهم كي لا يقولـوا يـوم القيامة : لم نكن نعلم.

ولـذلك لو بعث الله ملكا إذا لجعله الله يشـبه النـاس حـــتى في ملابسه حـــتى يســتطيع أن يتفـــاهم معهم ، ويهديهم.

[10] إن مشـــكلة الكـــافر هي اســتخفافه بـــالحق واستهزائه به. والسبب هو : أنّ الكافر ـ كما قلنا سـابقا ـ لا يعرف مدى أهمية الحق في حياته وأن علينا أن نـبيّن له تلك الأهمية من خلال تجارب التاريخ.

(**وَلَقَدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَحـاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ**

(**يَسْتَهْزِؤُنَ**)

ان الحق الذي كفر به هـؤلاء واسـتهزءوا بمن هـداهم اليه تحول الى واقع مرّ ، ودمّر حياتهم.

[11] إن الرسل قالوا لهم : إن الاستسلام للطـاغوت حرام ، وعلى البشر أن يثـور ضـده. فهـذا هو الحق الـذي حمله الرسل الى الناس ، ولكنهم كفروا بهم ، واسـتهزءوا بهذه الحقيقة. فما ذا كانت النتيجة؟

إن الحق تحــوّل الى واقع فســيطر الطــاغوت على البشر ، وأفسد عليهم الحياة ، وجعلها جحيما لا تطاق.

ولكي نفهم هــــذه التجربة العظيمة فعلينا ان نراجع التاريخ :

(**قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)

إن حيـاتهم انتهت الى جحيم بسـبب تكـذيبهم للحق ، واستهزائهم بالرسل.

قُــلْ لِمَنْ ما فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ قُــلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ لا رَيْبَ فِيـهِ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ (12) وَلَهُ ما سَـكَنَ فِي اللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُــوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُــلْ إِنِّي أُمِــرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْــرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَـذابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَـهُ وَذلِـكَ الْفَـوْزُ الْمُبِينُ (16)

آيات الله بشائر رحمة ونذير عذاب

هدى من الآيات :

أبسط فكـــرة تقفز الى ذهنك حين تلقي نظـــرة الى السموات والأرض هي أنهما مسـيّرتان وليسـتا مخيّرتـان ، فـأذن هي مملوكة لله ، ولكن الله ذو المشـيئة المطلقة ، المالك للسموات والأرض يعطي عبـاده من خلال عطايـاه ونعمه الــتي لا تحصى ثقة بأنه لن يقطع الحبل عنهم ، بل كتب على نفسه الرحمة لهم ، فما أفضل الالتجــــاء اليه ، والتمتع برحمته.

هذه فكرة الآية الاولى من هذا الــدرس. الــذي يعرفنا بربّنا معرفة تجعلنا نكاد نراه بها سبحانه ، والله هو المالك لكل ما ســكن له واطمــأن إلى رحمته في مســيرة الليل والنهـــــار رغم تحركهما ، إذ أن رحمة الله تـــــدع الخلق يسيرون وفق نظـام يثقـون به ، يسـكنون إليه رغم تـدفق الزمان الهائل القـوة ، لأن الكـون كله يسـتند الى القـدرة المطلقة التي فطرت السموات والأرض في البدء ، والتي لا تزال تغذّي الوجود دون أن يتغذّى بشيء سبحانه ، وفي هذا الطوفان الهائل التغيير. يسلّم العبد لربه ليتخذ

منه ركنا شـديدا ، ثم لا تكـونن ــ أيها العبد الضـعيف من المشركين ــ لأن الشـرك ــ وهو أعظم درجة ــ سـيجعلك تواجه نهاية مأساوية في يـوم أكـبر هم كل إنسـان فيه هو الخلاص من عذابه (**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ**) (185 / آل عمران)

وتأتي هذه المجموعة التوحيدية من الآيات في سـياق دروس إيمانية متتالية. هـدفها التعريف الأعمق بآيـات الله في الحياة.

بينات من الآيات :

عالم الخلق دليل رحمة الله :

[12] ان للحياة الـتي نعيشـها. لحظة بلحظة ، ودفعة بدفعة ، وموجة بعد موجة ، هـــذا المهرجـــان العظيم من النور ، والدّفئ ، والانطلاق من العظمة والروعة والجلال ، لهذه الحياة تنظيم بديع لطيف متين. إذا نظـرت إليها ككل راعتك آيـات التنسـيق بين أجزائها ، وإذا أمعنت النظر في أصــغر أجزائها أعجبتك متانة الصــنع ، ومــدى ما فيها من دقة التنظيم ، وعظمة الحركة ، كل ذلك يزيـــدك معرفة : بأن للسموات والأرض ربّا يملك ناصـيتها ، ويـدبر شـؤونها ويسـيرها ، ولو كـانت حـرة طليقة من دون مسـيّر ، إذا لتحـركت وسـارت كل جزيئة منها في اتجـاه ، ولانهـارت وتفتت وتلاشت ، فمن يملك ناصية الحيـاة غـير ربها ، الله الذي خلقها!!.

(**قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ**)

إنها ليست الحقيقة الـتي نحتـاج فيها الى إثبـات ، بل نحتاج الى معايشتها وملامسة أبعادها لنصبح كلما استطعنا أقــرب إليها لأنها الحقيقة الام الــتي تتفجر الحقــائق من خلالها تفجــيرا ، ومن خلال معرفة حقيقة المالكية الالهية نعـــــــرف أن الله قد كتب على نفسه الرحمة لأنه لو لم يكتب على نفسه الرحمة (ونعترف بعدم دقة

التعبير) إذا فمن الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. علما بــان الله يجبّر الكــون على المســير وفق الأنظمة ، فمن يجبره سبحانه. إنه هو الذي :

(**كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)

ولكن لرحمة الله حــــدود ، وحــــدود رحمة الله هي حكمته .. فكما أنه رحيم حين يضع الســنن العادلة ، إلا أنه شديد على من يخالفها ، فهو حين يحفظك ـ مثلا ــ من أن تسقط عليك حجارة ضـخمة من الســماء تـدمر بيتك على من فيه ، فانه بعدئذ يفرض عليك أن تلتزم بواجب العدالة ، فلا تـدمر بيــوت الخلق بقنابل عنقودية ، فلو فعلت فــان جــزاءك ســيأتيك عــاجلا في الــدنيا ، أم آجلا في الاخــرة. هنالك لا تحاسب وحـدك ، بل ســوف تحـاكم أمـام النـاس جميعا ، وسوف يؤتى بمن ظلمته لكي يستوفي كلّ جزائه العادل

(**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ**)

أو يشك أحد : أنّ الله هو الـذي أمسك كل شـيء في حـدود معينة عادلة حكيمة ، وذلك برحمته الـتي كتبها على نفسه ، أو يشك أحد أنه ســوف يـترك الإنســان حــرا في تدمير نفسه ، والعالم من حوله دون جزاء عادل له؟ كلا :

(**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

لأنهم يتصورون أن الحياة بلا بداية ولا نهاية ، ولا مالك ولا شيء. انهم يخســرون أنفســهم ، ويفقـدون ما منّ الله عليهم به من فرصة السعادة الأبدية ، الى الشـقاء الأبـدي الخالد.

السكون والحركة في الكون :

[13] غــدا حين تشــرق الشــمس ، وينتشر الضــوء والحرارة. أذهب أنا وأولادي

وسائر أبناء القرية جميعا للحصـاد .. إذ أننا قبل أشـهر كنا قد ملأنا الحقل بـذورا ، والآن أصـبحت حقلا زاهـرا وفي العـام القـادم سـنزوّج الأولاد ، ونسـافر الى الحج ، هـذه الأفكار التي تراود ذهن فلاح بسـيط لـدليل على أنّ هنـاك ثقة بالحياة يسكن إليها البشر ـ بل كلّما في الحيـاة ـ تلك ثقة نابعة من أنّ سـنن الله لا تتغـير رغم تطـور آياته ، فالشـمس تطلع لتغـرب ، والليل يلاحق النهـار ، والضـوء يهـزم الظلام ، ثم ينهـزم أمـام جيوشه ، ولكن كـلّ ذلك يجـري وفق نظـام يطمئن اليه الإنسـان وسـائر الأحيـاء لا فرق. من يملك النظـام؟ من ينفـذه؟ من يشـرف عليه الّا تخرقه الأهواء النزقة؟ انه الله الذي يهيمن على السموات والأرض ، وهو يسـمع ويعلم فلا يهـرب من سـوط عدالته وسلطان تدبيره شيء سبحانه :

(**وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

والمقابلة المبدعة بين الليل والنهـار من جهة ، وبين السـكون من جهة ثانية مقابلة توضح بعـدي السـكون والحركة في الحياة الواحدة التي يهيمن عليها الرب.

دوافع الايمان :

[14] قلنا ـ ونكـرر ـ إنك حين تعـرف حقيقة أنّ لله ملك السـموات والأرض ، تعطيك هـذه المعرفة آفاقا جديدة من العلم ، وهذا واحد منها : إنك تجلس لتفكر. إذا كـان الله هو مالك السـموات والأرض ـ فلما ذا لا نتخـذه صديقنا وصاحبنا ، وقائدنا وولينـا. نحبه ويحبنـا. أو ليس هو الذي يملك ـ فيما يملك ـ رزقنا. وهو بـذلك لا يطالبنا بثمن ، فنحن لا نطعمـه. بل هو الـذي يطعمنـا؟! هنـاك توجّه السّؤال التالي الى نفسك :

(**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ**)

ويأتيك الجواب وبكلّ بساطة :

(**قُــلْ إِنِّي أُمِــرْتُ أَنْ أَكُــونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْــلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

تقول نفسك ، وتقول لك كل حقـائق الحيـاة : كلا. ان من الأفضل لك الخضوع لله ، وليس لأحد سواه.

[15] وغدا حين يجازي الـرب عبـاده المـذنبين ، كيف نهــرب من جزائه العــادل وهو ذو القــوّة الــتي ســخّرت السموات والأرض؟

(**قُــلْ إِنِّي أَخــافُ إِنْ عَصَــيْتُ رَبِّي عَــذابَ يَــوْمٍ عَظِيمٍ**)

[16] إنّ الرحمة التي شملتنا في الدنيا والتي ظهرت آثارها في كل مظـاهر الحيـاة. هـذه الرحمة كيف تفوتنا ، وتتحول في الآخرة بسـبب أعمالنا الفاسـدة الى عـذاب .. أو ليس هذا جنون؟

(**مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ**)

رحمه لأنّه هـــداه الى الحق ، وألزمه كلمة التقـــوى ، ورحمه لأنه غفر له ذنوبه البســيطة ، لأنه أطــاع الله في أعظم العبادات :

(**وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**)

أن ترسو سفينة الإنسان على شاطئ السعادة الأبدية برحمة الله.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

بالله يفلح الإنسان

هدى من الآيات :

إن كنت تبحث عن المصـــــالح الحقيقية لـــــذاتك أو لمجتمعك ، فـان بيد الله سـبحانه أزمّة الكـون كله ، فـاذا مسّك الله بضر لا يستطيع الناس ولو اجتمعوا أن ينقـذوك منه ــ إلا باذنه ــ وإن أنعم عليك نعمة ، فـان الله وحــده القادر على إبقاء أو إزالة النعم عنك ..

وإن كنت تخشى طوفـان الأحـداث ، وتبحث عن ركن شديد تأوي اليه ، فـان الله هو القـاهر فـوق عبـاده ويـدبر شؤونهم بحكمته وخبرته ..

وان كنت تبحث عن الحقيقة ، فــــان الله هو الحق ، وهو أكبر شهيد ...

بينات من الآيات :

وهو القاهر فوق عباده :

[17] انك تحب نفسك وتبحث عن مـــــــأمن لها عن الشركاء ، وتبح عن مصدر

الخير لها ، فاعلم بأن الله هو الذي يقدّر لك الخـير والشر معا ، وانه لو قـدر الله لك أمـرا فانه لا أحد يملك تغيـير أقدار الله ،

(**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ**)

حين يصيبك المرض ويشـتد حـتى تشـعر بمسّـه. آنئذ يسـتيقظ ضـميرك ، ويتوجه الى الله القـادر على كشف المرض عنك ، بينما قد تكون قبل ذلك غافلا عن ربك.

(**وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وحين تشـعر بلـذة الخـير الـذي يهبط عليك من دون جهد كاف ، هنالك لا تطغى. لأن الله الذي قـدر لك الخـير قـادر على أن يسـلبه منك ، كما أنه قـادر على أن يزيـدك خيرا ، أو حتى على أن يحوله الى سوء في النهاية ..

والتعبـير القـرآني يؤكد على كلمة ، المسـاس للدلالة على الضر الذي يشـعر بألمه الفـرد ، والخـير الـذي يحس بلذته ..

[18] والله يقهر عباده ، ويخضعهم لمشيئته شاؤوا أم أبوا. إنه يقدر لهم السّبات فلا أحد منهم يغلب النـوم على ذاته الى ما لا نهاية ، ويقدر عليهم المـوت وهم كـارهون ، ويأخـــذهم على تطـــبيق أنظمة معينة في الحيـــاة ، لا يستطيعون الفرار منها :

(**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**)

ولكن تقـــدير الله للبشر ليس عبثا ، بل وفق حكمة بالغة ، وخبرة أزلية.

(**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**)

فاذا علمت بأن الله القاهر ، فلا تخف! لأن الله حكيم فاذا سلّمت الأمور اليه ، فانه سيبلّغك الى شاطئ الأمـان ...

(**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً**) :

[19] تتلاحق الأحـداث ، وتـترى الظـواهر ، وتجـري سفينة الحياة في بحر عالي الموج ، عاصف الريح ، ولكن وراء تلك الظواهر أنظمة حكيمة تمسـكها ، والله من وراء تلك الأنظمة يمسك زمامها ويوجهها ، فالله هو ضـــــمير الكون ـ الذي لا يخلو منه مكان ـ تجد آثـاره في قطـرات المطر الزاخر ، فتجد وراء كل قطـرة ـ قدرتـه. حكمتـه. هيمنته. سـلطانه. نعمتـه. رحمتـه. وفضـله ـ والأرض حين تهش لقطـــرات المطر تشـــربها ، وتحتضن حبــات القمح تــداعبها ، حــتى يتفجر الحقل روعة وخضــرة ونعيما ، ان هنـاك يتجلى الله الحق .. في السـماء ، والأرض والـدواب ..

كل شيء شـاهد على ذاته ، الشـجر يشـهد على ذاته بالمساحة التي يأخذها من الأرض ، ومن الفراغ ، وبـالثمر الذي يقدمه لك ، ولكن الله لا يغيب عنه شـيء ، لأنه وراء كل شـــيء. انه الــذي يمسك كل شـــيء بما أعطــاه من الحركة والفاعلية والسنن والأقدار ، فالله شـاهد على كل شـيء ، وحاضر عند كل شـيء ، وكل شـيء آية له ، لأنه منه ومعه واليه ، فالله إذا أكبر شهادة من أيّ شيء :

(**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللـهُ شَـهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**)

انه يـدل على ذاته بذاته ، ويـدل على كل شـيء ، انه يعطيك الســـمع والبصر والبصـــيرة ، ويتجلى بآياته في مهرجـان الحيـاة حـتى تعيش معه في كل لحظة ومع كل شـيء. يبقى أنت الـذي قد تغيب عن ربك (دون أن يغيب عنـك) انه قـريب المسـافة ، بينك وبينه لحظة الالتفـات والتوجه ، ولكي لا تغيب عنه ، ولكي تتكامل ذاتك الى مستوى العيش مع ربك. أرسل الأنبياء ، وزودهم بالكتـاب لينـذرك لأن الإنـذار أقـرب الطـرق الى قلب البشر ان البشر غافل بطبعه ، وسلاح الخوف أفضل وسـيلة لخـرق حجب الغفلة عن قلبه.

(**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُـرْآنُ لِأُنْـذِرَكُمْ بِـهِ وَمَنْ بَلَـغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُـلْ لا أَشْـهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**)

إنــني لا أرى أثــرا يــذكر لغــير الله ســبحانه ، فكيف يمكنني أن أشـرك باللـه؟ إنـني لا أشـهد بغـير الله ، وإني أحارب بكلّ صراحة ما تشركون.

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُـونَ أَبْنـاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِآياتِـهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَـوْمَ نَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً ثُمَّ نَقُـولُ لِلَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَيْنَ شُـرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللـهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْـرِكِينَ (23) انْظُـرْ كَيْـفَ كَـذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

القرآن عصمة البشر

هدى من الآيات :

الحق ـ كالركن الشـديد ــ تعتمد عليه إذا اعـترفت به وصـــدقته ، أما الباطل فهو ســراب ، لا وجــود له الا في خيـــال من يـــؤمن به ، فهو الـــذي يعتمد عليك ، ويكلّفك عناءه.

والقـــرآن حق تعرفه كما تعـــرف أبنـــاءك ، فكما أن أبناءك امتداد لشخصيتك ، تستعين بهم في حياتك ، كـذلك القرآن انه من يكـذب بـالقرآن ، أو يختلق لذاته كتابا كاذبا يفقد هذه القدرة الهائلة ولا ينال السعادة بتلك الاكذوبة.

وفي الآخـــــرة تتوضح الحقيقة كاملـــــة. إذ يضل عن الكفـــار الشـــركاء فلا تـــرى لهم أثـــرا ، وآنئذ يتـــبرأ منهم المؤمنون وهم أيضا يحلفون بالله انهم لم يكونـوا يؤمنـون بهم ، ولكن هل ينفعهم ذلك اليوم هذا التبري .. كلا.

حول هذه النقاط ـ تتحدث آيات هذا الدرس.

بينات من الآيات :

علاقة القرآن بالشخصية الانسانية :

[20] الكتـــــاب نعمة من الله على المؤمــــــنين ، والمؤمنون يعرفون قدر الكتـاب. إذ أنه بالنسـبة إليهم كما أبنــاءهم ، يعرفونه انه حقيقة كما الأبنــاء حقيقة ، وأن ـــ ملامحه ، بيناته ومتشابهاته ، ناسـخه ومنسـوخه ، بصـائره وأحكامه ـ واضحة لهم ، كما هي ملامح أبنـائهم الـذين هم أقـرب الخلق إليهم ، وأنه يزيـدهم قـوة وأملا ، كما الأبنـاء يزيـدون الآبـاء قـوة في الحاضر ، وأملا في المسـتقبل ، وأهم من ذلك كله أن الأبنـاء هم امتـداد لشخصـية الأب ، يجد الأب فيهم صـــورة ثانية من ذاته ، ومـــرآة لقدراته وقيمه ، وتحقيقا لإرادته ، وكـذلك القـرآن يبلـور شخصـية المؤمن ، ويحقق ذاته ، ويصـبح إذا عرفه الإنسـان صـورة عن قيمه وتطلعاته ومستقبله.

من هنا فان الكفر بـالقرآن يسـاوي الكفر بالشخصـية الانسانية ، وبالتالي يعـني خسـران الـذات وفقـدانها ، انك حين تفقد ـ لا سمح الله ـ ابنك تشـعر وكأنك قد خسـرت جـــزءا من ذاتك ، بيد أنك حين تكفر بكتـــاب الله فأنك تخسر نفسك أيضا.

(**الَّذِينَ آتَيْنـاهُمُ الْكِتـابَ يَعْرِفُونَـهُ كَما يَعْرِفُـونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

(**وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) :

[21] حين يكذب المرء بآيات الله لا يعيش في فـراغ ، بل يبحث عن أراجيف يـؤمن بها وكأنها آيــات من الله ، بل ويبـــدأ المــــرء في خلق الأراجيف ، أو تقليد آبائه أو مجتمعة في الايمــــان بها ، وافترائها على الله ، ثم يكفر بآيات الله الصـحيحة ، وبـذلك يكـون أظلم النـاس ، إذ قد يكون مجمل سلوك الشخص صـحيحا ، ولكنه ينحـرف في جـانب من حياته ، أو في بعض الأوقـات فحسب ، أما من يتخذ مسيرة منحرفة ويؤمن

بنهج خـــاطئ ، فانه لا يخطو خطـــوة الا ويبتعد عن الحق بقــدرها ، ويظلم نفسه والآخــرين ، وإذا كــان الظــالم لا يسعد بالظلم فكيف بهذا الذي يبـني كل حياته على الظلم من بدايتها حتى نهايتها؟!

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ**)

[22] الحق تعيش عليه ، والباطل يعيش عليك ، فأنت الذي تصنع الباطل ، وتجهد نفسك في الـدفاع عنه ، ولكنه يــزول دون أن ينفعك في ســاعة العســرة ، بينما الحق يبقى ينصرك دون عناء منك.

وعند ما تبلى الســـرائر في يـــوم القيامة وتتعــــرى الحقـائق. آنئذ تكتشف ان الباطل يضـيع عنك ، فلا تجد له أمرا ـ وكذلك كان في الدنيا ـ إلّا أن أهل الباطل يخلقـون الباطل بأسـاطيرهم وبخيـالاتهم ، فـيزعمون : انه موجـود فعلا ، كما لو أنك ترى سـرابا في الصـحراء تحسـبه مـاء ، وانما هو سراب ، لا وجود له إلا في بؤبؤة عينيك.

(**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُـولُ لِلَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**)

فيلتفت المبطل يمنة ويسرة فلا يجد لهم أثرا ..

[23] انئذ يتراجع عن شــركائه ، ويحلف بالله : انه لم يتخذهم بديلا عن الله وعن الحق!

(**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ**)

هكذا خدعوا وضلوا وأضلوا. هذه كانت نتيجة ضلالتهم وفتنتهم وخداعهم. إنهم يتبرءون من الشركاء. إذا لمـاذا لا يتبرءون عنها اليوم. وقبل فوات الوقت؟!

[24] وكـانت عاقبة هـؤلاء أنهم كفـروا بالباطل الـذي كانوا يؤمنون به ، وحلفوا الايمان المغلّظة أنهم لم يكونـوا ــ حـتى في السـابق ــ يؤمنـون به ، أما الباطل فقد ضل عنهم ، ولم يبق له أثر.

(**انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ**)

بــالأمس كـانوا متحمســين للباطل ، والآن ينكرونه ، ويكذبون على أنفسهم بهذه الأفكار.

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

دعنا إذا لا نخلق أصــناما نــؤمن بها ، ولا نفــتري على الله أفكارا باطلة ندان بها

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

---

25 [أكنّة] : الاكنة جمع كنان ، وهو ما وقى شيئا وستره ، واستكن الرجل من الحر ، واكتن استتر.

[وقرا] : الوقر الثقل في الاذن ، والوقر ـ بكسر الواو ـ الحمل.

26 [ينأون] : النأي البعد ، ومنه أخذ النوى وهو الحاجز حول البيت لئلا يدخله الماء.

حينما تكون القلوب في أكنّة

هدى من الآيات :

في سياق الآيات التي توضح عوامل الكفر النفسـية ، يأتي هذا الدرس ليـبيّن : أن مجـرد الاسـتماع الى الحق لا يكفي للايمان به ، إذ ان المهم هو قلب الإنسـان الـذي لو لم يـزكّ من عوامل الانحـراف فـان أذنه تثقل ، وعينه لا تبصر ، ولسـانه لا يلهج الا بالجـدل والبهتـان ـ فمثلا ـ لا يفرق صاحب القلب المريض بين الرسالة الجديـدة ، وبين الأسـاطير القديمة ، وهـؤلاء لا يبتعـدون عن الحق فقط ، بل وينهـون النـاس عنه وهم لا يعرفـون قيمة الحق ، وأنه يساوي أنفسهم.

وفي يـوم القيامة يـدين هـؤلاء أنفسـهم على فعلتهم السـابقة والـتي تمثلت في الكفر بـالحق بـالرغم من وضوحه أمامهم ، ولو ردّوا الى الدنيا لعـادوا الى كفـرهم ، والسـبب هو ان الكفر ليس نتيجة غمـوض في الحق ، أو عدم صـحة آياته ، بل هو نـابع من مـرض في قلـوبهم وما دام المرض موجودا فان التوبة الظاهرية لا تكفي.

بينات من الآيات :

العوامل النفسية للكفر :

[25] بـالرغم من ان الإنسـان يملك العقل والسـمع والبصر ، وبـالرغم من أن آيـات الحق وعلاماته ودلائله واضـحة للعقل ، فـان ذلك لا يكفي في ايمـان الشـخص بالحقيقة ، إذ أن هنـاك إرادة حـرة فـوق العقل ، توجه العقل والاحسـاس ، وفي الطـرف الآخر هنـاك النفس البشـرية المليئة بـالعواطف والعقد والأمـراض. من حب الـذات ، الى الاهتمـام بـالمجتمع ، الى الاسترسـال مع التقاليد.

فاذا اختار البشر بإرادته الحرة جـانب النفس وأهوائها وعقدها وتقاليدها وامراضها ، فانها سوف تلغي دور العقل عنـده ، وتسد منافذ الاحساس لديه ، وتغلف قلبه بكثافة حتى لا يتسرب اليه نور الحقيقة.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**)

إذ ان الاحسـاس وحـده لا يكفي ، فقد تسـمع آية ولكنك بحاجة الى قلب متفتح حـتى تـؤمن بها ، فمثلا انك بحاجة الى عدم الأيمان المسبق بكـذب الآية ، والّا فانك لا تـرى حاجة للتفكـير فيها ، وبحاجة الى سـكينة نفسـية ، وهدوء داخلي يسمح لك بالتفكير في الآية ، وكل ذلك غير موجود عند الكافر.

بل قد يتسـبب الكفر في أن يتبلد احسـاس الشـخص أيضا ، فيشعر أنّ في اذنه وقر ، وفي عينيه ضـعف ، إذ ما دام القلب مغلق عن فهم الحقيقة ، فانه لا يشـعر بحاجة الى استخدام الاحساس.

(**وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً**)

أي ثقلا لا يمكنهم ان يسمعوا بوضوح.

(**وَإِنْ يَرَوْا كُـلَّ آيَـةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِها حَتَّى إِذا جـاؤُكَ يُجادِلُونَـكَ يَقُـولُ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ هـذا إِلَّا أَسـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

ان القلب المغلق يجعل أحاسيسه في خدمة انغلاقه ، وأفكاره الميتة ، فالأذن تثقل عن سـماع الحقيقة ، والعين تعمى عنها ، واللسان يجادل ويغالط فيها.

[26] الحق هو ضـمان حيـاة النفس ، وتحقيق الـذات يتحــول في عين هــؤلاء الى بعبع ينهــون النــاس عنه ، ويبعـدون عنه بأنفسـهم ، وبـذلك يخسـرون ما به حيـاتهم وشخصيتهم واستمرار كيانهم.

(**وَهُمْ يَنْهَـوْنَ عَنْـهُ وَيَنْـأَوْنَ عَنْـهُ وَإِنْ يُهْلِكُـونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ**)

لا يشـعرون أي خسـارة كـبري تلحقهم بابتعـادهم عن الحق.

على شفير الهاوية :

[27] وحين يمس المكـذبون العـذاب يـدركون مـدى الخسارة التي لحقتهم بترك الحق.

(**وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

حين يشتد المرض بابنك البكر ، ويشـرف على الهلاك ، يعمل انئذ فكرك بسلامة بعيدا عن مــؤثرات الخطأ فمثلا : آنئذ لا تفكر في أن الـدكتور القـريب من بيتك صـديقك ، وأنك تستحي منه ، ولهذا تفضـله ـ مثل سـائر الأوقـات ـ على غيره من الأطباء ، ولا تزعم أن طبيب الأسـرة الـذي تعودت عليه خـير من غـيره ، ولا تنظر الى أقـوال النـاس فتتبعهم بالرغم من علمك بأنهم لا يعقلون ، بل تبحث عن طبيب

حـاذق يخـرج مريضك من دائـرة الخطر حـتى ولو كـان عدوك ، فأنك تذهب اليه صاغرا ذلك لأنك آنئذ تبحث فقط وفقط عن الحقيقة. بعيدا عن أيّ اعتبار آخر.

[28] وحين يشـافي الله ابنك من المـرض الخطـير ، فان كل تلك الاعتبارات السخيفة تعـود إليـك. لمـاذا؟ لأنها راسـخة في ذهنك ، وما اسـتطعت أن تنظف نفسك من آثارها ، كذلك حال الكفار حين يقفـون على النـار يتمنـون لو يعودون الى الـدنيا ، فيصـححون أخطـاءهم ، ولكن هل يفعلون ذلك. كلا.

(**بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ**)

أي ظهـرت لهم الحقـائق الـتي أخفوها عن أنفسـهم وعن الناس تعمدا.

(**وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**)

إذ أن نفوسهم مريضة ولا تزال تعاني من انغلاق ، فلا بد إذا من تطهيرها ، وفتح منافذها على نور الحقيقة.

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الـدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُـوثِينَ (29) وَلَوْ تَـرى إِذْ وُقِفُـوا عَلى رَبِّهِمْ قـالَ أَلَيْسَ هـذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقـاءِ اللَّـهِ حَتَّى إِذا جـاءَتْهُمُ السَّـاعَةُ بَغْتَـةً قـالُوا يا حَسْـرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُــونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُــورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

---

31 [بغتة] : كل شيء أتى فجأة فقد بغت.

[يا حسرتنا] : الحسرة شدة الندم.

[ما فرّطنا] : التفريط التقصير وأصله التقـديم ، والإفـراط التقـديم في مجاوزة الحد ، والتفريط التقديم في العجز والتقصير.

[أوزارهم] : الوزر الثقل واشتقاقه من الوزر وهو الحبل الذي يعتصم به ، ومنه قيل وزر فهو مـــوزور إذا فعل به ذلك ، وحيث أن الـــذنوب ثقلا تسمى أوزارا.

حينما يقصر النظر

هدى من الآيات :

إن النظرة القاصرة التي تحصر حياة الإنسان بالـدنيا. إنها مسئولة الى حدّ بعيد عن كفر الإنسان بالحق ، وفـوق ذلك ان أمام عين البشر غشاوة من زينة وشــهوات تمنعه عن الايمان بالآخرة ، ولكن ألا يتصـور البشر أنه غـدا حين يواجه الحق بكل عنفه وقدرته وهيمنته ، فما ذا يمكن ان يفعل حين يقف أمام الله ليرى النار اللاهبـة؟! حينها ينـدم على تكذيبه في الـدنيا للقـاء ربه في الآخـرة ، وحينها يجر آهات الحسـرة على ماضـية الـذي خسـره ، ويثقل ظهـره بذنوبه.

بينات من الآيات :

[29] دعنا نعقل الحقيقة قبل فــوات الأوان. الحقيقة هي ان الــدار الــدنيا ليست ســوى لعب ولهو وما الحيــاة الحقيقية الّا في الآخـــرة لمن اتقى ربه من هنا قـــال ربنا سبحانه :

(**وَقــــــالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الــــــدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**)

وهذه كما سبق ـ وان قلنا ـ أصل الفساد الفكري عند الإنسان ..

كيف تستوعب الغيب؟

[30] إذا قدمت إليك تفاحة ، فـأردت أن تعرفها جيـدا ، فلا بد أنك تقلبها من أطرافها ، وإذا فكــرت في شــراء بيت فانك تتفقد جميع جوانبه ، أما إذا أردت التعـرف على حادثة اجتماعية أو ظــاهرة طبيعية ، فــان عليك أن تبحث عن مبتـــدئها ونهايتها ، عن أولها وآخرها ، فلـــرب حادثة أولها خير وعاقبتها شر ، ولرب ظـاهرة تبـدء نافعة وتنتهي ضارة مفسدة ، والعكس صحيح ، كـذلك الحيـاة لا تعـرف بنيانها ، ومرسى سفينتها ، وسـاعة قيامتها ، وكل حادثة أو ظاهرة تدخل ضمن اطار الحيـاة تقـاس هي الاخـرى بهـذا الميزان. أي بنهاية الـدنيا. ذلك ان مصـير ركـاب السـفينة متعلق بمصير السفينة. كذلك سفينة الحيــاة تتعلق بها كل الحوادث التي تقع ضمنها.

والقرآن الحكيم يدعنا أبدا نتصور نهاية الحياة لنعـرف بدقة أكــثر ذات الحيــاة ، وما بها من احــداث ، وبالتــالي ليكــون لــدينا مقيــاس نســتطيع أن نحكم بســببه على الاحداث حكما سليما.

والسؤال : لماذا يستخدم القرآن أسلوب التصوير في هذا الجانب؟.

الجــواب : لأنّنا من الناحية العلمية قد نكــون مقتنعين بـــالغيب وبالعاقبة أو حـــتى بالقيامة ولكن ثقل الشـــهود وحضور الأحداث والظـواهر الـتي نعايشـها الآن تمنعنا عن التوجه الى الآخـرة ، وهنا نحتـاج إلى قـوة التصـور لنعـبر فــوق جســره إلى شــاطئ الغيب ، هنــاك حيث لا يثقل أحاسيسنا حضوره الفعلي ، لذلك تجد القرآن يقول هنا :

(**وَلَوْ تَـرى إِذْ وُقِفُـوا عَلى رَبِّهِمْ قـالَ أَلَيْسَ هـذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)

انك حين تقف فـــوق تـــلّ مشـــرفا على رابية ، يمتد بصـرك إلى ابعـاد الرابية وأطرافها ، وتصـبح وكـأن الرابية ورقة في يدك.

وفي يــوم القيامة حين نشــهد آيــات ربنا ، هنا جهنم تلتهب نارا وعذابا ، وهنالك الجنة تنبسط بنعيمها وجمالها ، وهنا المــيزان الحق ، وهنــاك الكتــاب الــذي أحصى كل شيء. آنئذ نقف على ربنا ، وتكرهنا القضايا الساخنة على الإيمــان به ، ويستشــهدنا الله على نفسه تعـالى : (**قـالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ؟! قالُوا : بَلى وَرَبِّنا. قالَ : فَـذُوقُوا الْعَــذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُــرُونَ**). إنه الحق الــذي ســوف نضــطر الى الايمــان به يوما ما ، فلما ذا لا نــؤمن به الآن حتى ينفعنا ايماننا ، لماذا نكفر به ، لنذوق العذاب إذا؟

شيء من الواقع :

[31] ان التكـذيب بالمعـاد يشــوش على البشر رؤية الحقائق في الدنيا ، ويدفعه الى التكذيب بالحقــائق جميعا ، ويكون مثله كمن يكـذب بـالموت ويـرى أنه لن يمـوت ، فهو يكذب بآثار مرض السرطان ، يتورم جسـمه فيقـول : كلا انه لا يــدل على المــوت المــرتقب ،. يتــألم جســمه ويحرقه ، ولكنه يصر قائلا : ليس ذاك دليلا على الانتهــاء ، فيؤكد له الـــدكتور وســـائر العقلاء ذلك ، ولكنه يصـــرّ مسـتكبرا على قولـه. ذلك لأنه لم ينظم زاوية فكـره وفق الموت الحق ، فاختلطت عليه الحقائق جميعا. كذلك الذي لا يــؤمن بلقــاء الله يكفر بكل شــيء حــتى يخسر نفسه نهائيا.

(**قَــدْ خَسِــرَ الَّذِينَ كَــذَّبُوا بِلِقــاءِ اللــهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ**)

وزر التكـذيب بـالآخرة ، ووزر الأعمـال السـيئة الـتي ارتكبوها بهذا السبب (**أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ**).

وَمَا الْحَياةُ الـدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَلَلـدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُـكَ الَّذِي يَقُولُــونَ فَــإِنَّهُمْ لا يُكَــذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْــرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ وَلَقَـدْ جـاءَكَ مِنْ نَبَـإِ الْمُرْسَـلِينَ (34) وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقــــاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُــــلَّماً فِي السَّــــماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35)

---

35 [نفقا] : النفق سرب في الأرض له مخلص الى مكان آخر ، وأصـله الخروج ، ومنه المنافق لخروجه من الايمان الى الكفر.
[سلّما] : السلّم الدرج وهو مأخوذ من السلامة.

كيف تحدى الرسل

اعراض الجاحدين؟

هدى من الآيات :

لكي يبقى المؤمن جبلا أشـما يتحـدى الصـعاب ، لا بد أن يعرف حقيقة الدنيا الـتي ما هي سـوى لعب ولهو ، أما دار الاقامة الدائمة فهي الآخـــــــرة ، ومن ذلك أن قلب الرســول يجب ألّا يتــأثر بســبب كفر المشــركين الــذي يجحــدون بآيــات الله حين يكــذبون به ، وهــدفهم ليس الرســـول بقـــدر ما هو الحق والايمـــان ، وكما يكـــذب الظـالمون اليـوم بالرسـول فـأن رسل الله السـابقين قد كذّبوا أيضا ، ولكنهم صبروا حتى آتاهم نصر الله.

وهل هناك حيلة أخرى للرسول في الأمر. هل يســلك نفقا في الأرض ، أو يصعد بسلّم الى السماء ليأتيهم بآية ، ولو فعل ذلك فهل ينفعهم؟! علما بــــــأن الله لا يريد أن يجبرهم على الهدى ، ولو شاء لفعل ذلك بقدرته التامة.

بينات من الآيات :

واقع الحياة وحقيقة الآخرة :

[32] هل نستطيع ان نحدد هدفا معقولا للحياة الــدنيا لو لم نجعلها مقدمة

للآخرة ، وعموما هل نستطيع ان نخطط لهذه الحياة التي تنتهي في أية لحظة ، وربما دون تحذير مسـبق ، وتتفاعل فيها عوامل ومؤثرات غير محدودة؟

ان كانت الحياة الدنيا تمهيـدا للآخـرة ، ودورة تدريبية لتكامل البشر ، لاعداده لدخول الجنة خالدا فيها ، فان كل ما فيها سـوف يصـبح معقـولا وحكيما ، وتكـون الآخـرة لا الـدنيا هي الـدار الدائمة للاقامة ، ولكنها لا تكـون الا لمن اتقى في الدنيا.

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**)

اللعب هو العمل بـوعي وهـدف ، ولكن دون هـدف حكيم ، اما اللهو فانه من دون وعي أو هدف.

(**وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

العقل يحكم بـان الـدنيا ليست بـدار الاقامة ، وأنها ليست هدفا نهائيا للبشرية.

لماذا الحزن؟

[33] إذا كـانت الـدنيا قاعة امتحانـات يتخـرج منها المتقـون بنجـاح ، ويسـتلمون شـهادة الايمـان ، وبطاقة دخول الجنة ، فعلينا ألّا نحزن على الظالمين الذي يعادون الرسول ، وقبل الرسول يعادون الحق ، ويجحـدون بآيـات الله ، وبالتالي يظلمون أنفسهم فلما ذا نحزن عليهم؟!

(**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ**)

من التكذيب بك وبرسالتك ، ولكن مهلا.

(**فَـإِنَّهُمْ لا يُكَـذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيـاتِ اللـهِ يَجْحَدُونَ**)

مع علم مسبق بأنه حق ، فالحزن عليهم لماذا؟!

[34] وللرسول في الرسل السابقين أسـوة حسـنه ، فكم قد كـذّبوا وكم أوذوا ، ولكنهم صـبروا حـتى جـاءهم نصر الله ، وتلك هي سـنة الله لا تبـديل لها ، وتلك هي كلمته الـتي لا تبـديل فيها وها هي أنبـاء الرسل تـذكّر للرسول في القرآن ليتخذ منها عبرا كافية.

(**وَلَقَـدْ كُـذِّبَتْ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِـكَ فَصَـبَرُوا عَلى ما كُـذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتـاهُمْ نَصْـرُنا وَلا مُبَـدِّلَ لِكَلِمـاتِ اللهِ**)

ومنها هـذه الكلمة أن صـاحب الرسـالة حين يتعـرض للصعاب ويصبر ، فأن الله ينصره بالتالي.

(**وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**)

[35] وماذا يمكن ان يفعله الرسول ما دام الظالمون يجحـدون بآيـات الله بعد اليقين بصـدقها ظلما لأنفسـهم ، فهل يسـلك طريق 3 في الأرض خارقا للعـادة ، أو يصـعد الى السـماء بسـلّم ، ثم يـأتيهم بآية ، أو ليست الآيـات الهابطة كافية لهم لو كـانوا يريـدون الايمـان بالله وبرسالاته؟!

(**وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ**)

وكان ذلك عظيما في عينك.

(**فَـإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقـاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ**)

اي تفتش عن طريق تحت الأرض أو فوق السماء من أجل الحصـول على آية خارقة لكي يؤمنـوا بها ، فـأن استطعت أن تفعل ذلك فافعل ، فهل فيها فائدة؟

نعم هناك سبيل واحد لهداية هـؤلاء ، وهو أن يجـبرهم ربهم على الهدى ، ولكن هل يفعل ربنا ذلك؟ كلا .. لأنه لو شاء لفعل ذلك بأهل الأرض جميعا ..

(**وَلَوْ شـاءَ اللـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدى فَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ**)

الذين يريـدون تحقيق شـيء معين بـالرغم من سـنن الله وحكمته ، وأنظمة الكـون الـتي جعلها الله ، ان عليك ان تتحـرك في حـدود هـذه السـنن القائمة ، والانظمة السائدة في الكون.

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْـمَعُونَ وَالْمَـوْتى يَبْعَثُهُمُ اللـهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَـةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُــونَ (37) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طـــائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتـابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَـإِ اللـهُ يُضْـلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

هكذا استجاب من سمع ،

وضل الصم البكم

هدى من الآيات :

حين يعطب جهـاز الاسـتقبال ، فـان كثافة الأمـواج لا تزيـده الا عطبا ، وحين يمـوت قلب الإنسـان فـان المزيد من الـدلائل لا تنفع صـاحبها. انك تـرى الكفـار يطـالبون بالمزيد من الآيات ، والمشكلة ليست في قـدرة الله على أن يـنزل المزيد منها ، ولكن المشـكلة في فائـدة الآيـات للـذين تعطل عنـدهم جهـاز الفهم ، ان نظـرة واحـدة الى الحيـاة وما فيها من دابة ، أو طـائر في السـماء لا فـرق تكفينا دليلا على عظمة الخـالق ، حيث أنها جميعا تسـير وفق نظـام اجتمـاعي معين ، وتنتهي الى الله ، ولكن هل تكفي هـذه الآيـات العظيمة لأولئك الـذين فقـدوا القـدرة على التعبـير لأنهم فقـدوا السـماع والتفاعل مع الحيـاة الحقيقيـة؟! انهم صم بكم يعيشـون في ظلمـات الجهل والجهالة ، لان الله سـلب منهم نعمة العلم والهداية (بعد ان رفضوا الانتفاع بهما) فتاهوا في صـحراء الضـلالة ، أما الصالحون فقد هداهم الله الى الصـراط المسـتقيم الـذي يسير بهم الى أهدافهم السامية من أقرب الطرق.

بينات من الآيات :

عند ما يعطب جهاز الاستقبال :

[36] لقد زود الله عبــاده جميعا بــالفهم ، فالكل زوّد مثلا بالسمع ، ولكن البعض منهم فقط هو الذي يسمع. أي ينتفع بوسيلة السمع ، لأنه يريد ذلك ، وحين يســمع المــرء نداء ربه الى الخير يستجيب لهذا النداء ، فيعمل بما يأمره الله ، أما حين يمــوت القلب وتســترخي الارادة ، ويتعطل جهاز السمع ، فأن الأمل مفقــود في هداية الإنســان آنئــذ. الا إذا شــاء الله ذلك بمشــيئته الخارقة لســنن الطبيعة ، ولكن هل يفعل ذلك ربنا في الــدنيا. أم أن الله إنما يهــدي الناس للحقائق بهــذه الصــورة في الآخــرة حين يحشــرهم جميعا ليحاسبهم. آنئذ لا تنفع الهداية شيئا.

(**إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْـمَعُونَ وَالْمَـوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**)

[37] ولا يــزال الكفــار يطــالبون بالمزيد من الآيــات ، والله قادر على أن يســتجيب لطلبهم ، ولكن ما ذا ينفعهم ما داموا فاقدين لجهاز العلم؟!

(**وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَـةٌ مِنْ رَبِّهِ قُـلْ إِنَّ اللـهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً**)

كما أنزل الآيات السابقة ، بيد أنّ المشكلة ليست في قلة أو كــثرة الآيــات ، بل في العلم بها ، فلو كــانت عين الفرد عمياء .. فهل تنفع إضاءة المزيد من المصابيح.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

[38] والدليل على ان العبرة ليست في زيادة الآيــات ، بل في العلم بها وادراك ما وراءها من حقــائق .. الــدليل الأحيــاء الــذين لو أمعنت النظر في حياتها لــرأيت أمة مثل البشر ، لهم نظامهم وعلاقاتهم وأهدافهم في الحيــاة ، ثم إنهم كما البشر يحشــــــــرون الى ربهم ، أفلا تكفي تلك الآيات العظيمة ، ولكن قليلا من الناس يفهمون هذه

الآيات؟! لذلك يقول ربنا :

(**وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ**)

اي ما من متحـرك من الأحيـاء ، النملة وأصـغر منها ، والفيل والحوت وأكبر منهما.

(**وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ**)

اي كل طـائر في السـماء ، وإنما ذكـرت كلمة يطـير بجناحيه هنا للدلالة على التعميم ، كما ذكـــــرت كلمة في الأرض هنا لنفس السبب.

(**إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ**)

الا أمم مثل ســــائر الأمم البشـــــرية ، لها انظمتها وقوانينها ، وسيدها ومسودها.

(**ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ**)

ان الكتـاب هو كتـاب الله ، والله لا يبـالغ ولا يتطـرف في كلامه ، بل ان كلامه تعبير دقيق عن الحق دون زيـادة أبدا ، لان الحق الذي خلقه الله ، ويعلم أبعاده أكـبر بكثـير من المقـــــدار المناسب لفهم الإنســـــان ، على ان فهم الإنسان عظيم ، وان هـذه الأمم تسـير وفق نظـام قـدرة الله في الدنيا أما في الآخرة :

(**ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**)

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ**) :

[39] هذه آيات الله منتشرة في الكون ، فمن ينكرها ومن يكذب بها؟

انما يكــذب بها من فقد تفاعله مع الحيــاة. فهو أصم وأبكم يعيش في ظلمات لا

يرى شيئا.

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ**)

الظلمات هنا هي : الجهل والجهالة والشـهوات ، وكل واحـــدة منها حجـــاب بين الإنســـان وبين الحقيقة ، والله سبحانه هو الذي يزوّد الإنسان بنور الهداية ، ومستحيل أن يصل الإنسان الى الهداية من دون التوسل به.

(**مَنْ يَشَـــأِ اللــهُ يُضْـــلِلْهُ وَمَنْ يَشَـــأْ يَجْعَلْـهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

قُـلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتـاكُمْ عَـذابُ اللـهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّـاعَةُ أَغَيْـرَ اللـهِ تَـدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (40) بَـلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شـاءَ وَتَنْسَـوْنَ ما تُشْـرِكُونَ (41) وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْسـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَـرَّعُونَ (42) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطانُ ما كـانُوا يَعْمَلُـونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَـإِذا هُمْ مُبْلِسُـونَ (44) فَقُطِـعَ دابِـرُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

---

42 [البأسـاء والضـراء] : البأسـاء من البـأس والخـوف ، والضـراء من الضر ، وقد يكون البأساء من البؤس اي الفقر.

[يتضرعون] : التضرع التذلل.

44 [مبلســون] : المبلس الشــديد الحســرة ، وقيل المبلس المنقطع الحجة.

هكذا ترفع المآسي حجب الضلال

هدى من الآيات :

في الـدرس السـابق ذكّرنا الله بـأن النقص ليس في آيات الله ، بل في فهم الآيـات والاهتـداء عن طريقها الى الحقيقة ، وفي هذا الدرس يـبين القـرآن : كيف أن البشر قد تتطور حالته ، فيصلح جهاز الاسـتقبال عنـده ، فيهتـدي بهذه الآيات التي كان يفكر بها سابقا ، يهتدي بها ذاتها الى الله مما يدل :

أولا : على أن الخلل كان من عند البشر نفسه.

ثانيا : على أن الإنسان كان مخطئا تمـام الخطأ حينما كفر بربه. ولكن متى تتطور حالة الإنسان؟

تتطـــور حالة الإنســـان عند ما يواجه الحقيقة عارية ، وبلا غمــوض في حــالات مواجهة شــدائد الحيــاة ، هنالك يدعو الإنسان ربّه وينسى كل أولئك الشـركاء المزعـومين ، وأساسا الحكمة من بعض الشـدائد الـتي تصـيب النـاس هي كشف

الحقـائق لهم ، وإعـادتهم الى فطـرتهم التوحيدية النقيّة ، ولكن كثـيرا من الأمم السـابقة قست قلـوبهم ، فلم تعد تتقبل حـــتى الصـــدمات القوية الآتية من الشـــدائد ، فلا يلبثون بعد انتهـاء فـترة المصـيبة أن يعـودوا الى عـاداتهم السيئة ، وهناك يستدرجهم الله الجبار ببعض الرخاء حـتى يفقـدوا كل ما عنـدهم من وجـدان وايمـان وهنـاك يـأتيهم العذاب المدمر ، الذي يقطع دابرهم وينهي حياتهم.

بينات من الآيات :

وتنسون ما تشركون :

[40] جـاء رجل الى الامـام الصـادق عليه السـلام. يقول : يا ابن رسول الله دلني على ربي. فقال الامام : يا هـذا هل ركبت البحـر؟ قـال : نعم ، وهل انكسـرت بك السفينة؟ قال : نعم قـال : هل تعلق قلبك بشـيء حيث لا سـفينة تنجيك ولا سـباحة تغنيـك؟ قـال : نعم ، فقـال له الامام : ذلك هو الله.

في الحالات العادية ، تـتراكم ظلمـات الغفلة والتكـبر والجهل حـول فطـرة البشر ، اما حين يجـدّ الجد ، ويواجه الخطر الحقيقي ، آنئذ تنحسر الظلمات من حـول القلب ، ويتوسل الإنسان بربه (الحق) دون غفلة أو تكبر أو جهل.

(**قُـلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتـاكُمْ عَـذابُ اللـهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

عذاب الله المتمثل في الشـدائد ، والسـاعة المتمثلة في الخطر.

ان كل واحد منا يمر بمثل هذه اللحظات الصعبة التي يكتشف فيها ربه ، ولكن بعضـــنا فقط يبقى يتـــذكر تلك اللحظات بعدئذ.

[41] نعم هنـاك يـدعو الإنسـان ربه ، ويسـتجيب الله دعاءه ، حينما تقتضي

الحكمة ذلك.

(**بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ**)

يعني تدعون الله فقط دون غيره من الشركاء.

(**فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ**)

حين تدعون الله وتتوسلون اليه لبلوغ الهدف.

(**إِنْ شاءَ**)

الله حسب حكمتة ينقـذكم ، مما يـدل على ان الله لا يحتمّ عليه الـــدعاء ، ولا يـــؤثر فيه ، بل برحمته وحسب حكمته يفعل ما يشاء.

(**وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ**)

ما تشــركون به من أهــواء ، وقــوى مادية شــريرة ، فالإنســان يعبد أهــواءه ، يعبد شـــهوة الراحة في ذاته ، شــهوة الــنزوه ، والجنس والخلــود ، ثم يــزعم أن قــوى الطــاغوت تــوفر له هــذه الشــهوات ، فيعبد تلك القــوى ويصنع لها رموزا مثل الأصنام وما أشبه ، وربما لذلك عـبر القرآن الحكيم هنا بكلمة (ما) للدلالة على ان ما تشركون به الله هو من الأشـياء الـتي لا تعقـل! وهي تعـود بالتـالي الى شهوات الإنسان ، تلك الشهوات انما يخضع لها البشر ، ويخضع لمن يملكها لأنها ــ في زعمه ــ تنفعه ، وتحافظ على وجوده وكيانه ، وتحقق تطلعاته ، فإذا جد الجد عرف أن كل تلك الشـهوات لا تنفعه شـيئا ، وانما خـالق البشر ومقـدر أمـوره ومـدبر شـؤونه هو الـذي يكشف ضـره ، فينسى كل تلك الشهوات ويتوب الى الله سبحانه.

حكمة الشدائد :

من الشـدائد البسـيطة وحـتى الآلام ، الـتي تصـيب البشر هي توعيته بحقـائق الأمـور بـدءا من الشـدائد البسيطة وحتى الآلام وإلى أن يصل إلى العذاب فالساعة ، فمثلا الحكمة من الأحسـاس بـالجوع هو التفـتيش عن مصـدر الغـذاء ، والتحـرك إليه ، ومن خلال الأحسـاس والتفتيش والتحـرك تنفتح أمامك أبـواب المعرفة ، ولو لم يكن البشر يحس بالجوع إذا لما كان يعرف جزء كبيرا من الحيـاة ، ولم يكن يعـرف الزراعة والـرّي والصـيد .. إلخ ، وكلما كـان حصـول البشر على الغـذاء أسـهل كلما كـانت معرفته بالحيـاة أقل ، والألم يجعلك تحس بالحيـاة بشـكل أعمق من ذي قبل إنك لا تعـرف أساسا موقع كبـدك أو كليتك أو حـتى قلبك إلا بعد أن يتـألم هـذا العضو أو ذاك ، وعندئذ تتحسس ليس فقط بوجـود العضو ، وأنما بأهميته أيضا ، وتتشبث به أكثر.

أن المـريض أشد تعلقا بالحيـاة ، وأرهف إحساسا بأهميتها من غـيره ، والشـدائد في الحيـاة تكشف نقـاط ضـعف الإنسـان. سـواء الفـرد أو الامة ، مثلا. الهزيمة تكشف عيوب الامة أكثر مما يكشفه ألف كتاب وكتاب.

ولـذلك يـذكرنا القـرآن هنا ، بـأن الهـدف من اصـابة الإنسان بالمشاكل ، هو نفس الهـدف من بعث الرسـالات والرسل ، ان الهـدف من الرسـالة هي توعية الإنسـان بحقيقة العبودية المطلقة الـتي يعيشـها ، والـتي هي في الواقع مفتـاح صـلاح الإنسـان وقدرته ورفضه الخضـوع للجبت والطاغوت ، وكذلك الهدف من الشدائد.

(**وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَأَخَـذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ**)

بالشدائد الآتية من ظلم الناس لبعضهم.

(**وَالضَّرَّاءِ**)

بالشدائد الـتي مصـدرها غضب الطبيعـة. إنما أخـذهم الله بذلك بعد بعث الرسل ،

وربما بسبب عدم انتفاعهم بالرسالات.
أما الهدف فقد كان :
(**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**)
[43] وبـالرغم مما أخـذهم الله به من العـذاب فـأن أولئك الذين قست قلوبهم ، ولم تستوعب دروس التجربة المـرة ، عـادوا بعد النكبة الى سـابق أعمـالهم وعـاداتهم السيئة.
(**فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا**)
اي لمـاذا لم تلن قلـوبهم ، ولم تعد الى حالتها العادية ، حيث تتـأثر بالتجـارب بعيـدا عن نـزوة الغـرور ، وظلام التكبر.
(**وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**)
ولم تتفاعل مع الحيـاة ، وانغلقت على مفـاهيم ثابتة جامـدة وصـخرية ، والسـبب قد يكـون هو التمحـور حـول الـذات ، وعـدم الالتفـات الى الحق ، وحين تكـون النقطة المركزية في حياة الإنسـان هي ذاته ، تصـبح حياته بعيـدة عن التطـور ذلك لأن كل عمل يقـوم به الشـخص يصـبح حسنا لا بشيء ، وانما لأنه هو الذي عمله ، وحتى لو عمل هذا الشخص عملا من دون وعي ، فانه سوف يقدسه لأنّه صدر منه ، ونسب الى ذاته ، وهذا هو الذي يجعلك تحتفظ بالعـادات السـيئة ، فـإذا بك متعصب لها لأنها من صـنع ذاتك.
(**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)
ولكن على البشر أن يعـرف : أن الأعمـال السـيئة ليست جزءا من ذاته ، ولا

تصـبح كـذلك حـتى ولو صـدرت هـذه الأعمـال منه ، لان الإنسان قد خلق في أحسن تقويم ، وانما الأعمال السـيئة هي من عمل الشيطان ومن وحيه ، ومما يزينه للإنسان.

أشراط العذاب :

[44] لقد أتم الله حجته على هـــــذه الفئة ، أرسل إليهم رسالة ورسولا ، وأخـذهم بالبأسـاء والضـراء ليكـون ذلك رســـالة واقعية وعملية لهم ، ولكنهم لم ينتفعـــوا بواحــدة من الحجـتين .. وها هي سـاعة العـذاب ، فكيف يعذبهم الله؟

إن الله يمهّد للانتقـام بفتح أبـواب الـرزق عليهم من كل صوب ، ثم حين يصلون الى مرحلة الإشباع التام ، ولا تبقى في قلوبهم ذرة من ايمان يأتيهم العذاب فجأة.

(**فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُـلِّ شَيْءٍ**)

مما تصوروا انه خير لهم ، ولم يكن خيرا ، بل هو شر عظيم ، ففتح الله عليهم أبــــواب الطعـــــام ، والجنس والشهرة ، لأنهم لم يتقيدوا بشيء اسمه دين أو ضـمير أو نظام ، بل أخـذوا يتمتعـون بما في الحيـاة من دون قيد أو شـرط. أسـرفوا في كل ما هو لذيـذ. طيبا كـان أو خبيثا ، وأسرفوا في الجنس مشروعا كـان أو شـذوذا ، وأسـرفوا في التظـاهر بالصـلاح أو الفسـاد ، ولكن الى مـتى تبقى موارد الطعـام والجنس والشـهرة ، وكم هي قـدرة البشر على استيعابها؟! بالطبع أن هناك حدودا تنفذ عندها موارد الطبيعة ، وتنهك قـدرة البشر على اسـتيعابها ، وهي الـتي نسـميها مرحلة الإشـباع ، والـتي تنعكس على النفس في حالة (الفـرح) أي الشـعور بالكمـال والغـنى والإشـباع ، وعندها يكون السقوط المفاجئ.

(**حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ**)

ويكون السـقوط المفـاجئ نتيجة تراكمـات الإسـراف الدائم ، ولكن لحظة

السقوط لا يشعر بها المغرور الفرح الا بعدئذ. لـذلك عـبر القرآن عن حالتهم : بأنهم كانوا آنئذ مبلسين ، وكـانوا في ظلام دامس.

أن مثل الامة مثل الشاب الذي يسرف في ـ الطعـام والشراب والجنس والبطش والفساد ـ ويستمر لفترة من الوقت حتى يشعر بـأن كل لذائذ الـدنيا في متنـاول يـده ، وهو لا يدري أنّ أنواعا من المـرض قد أحـاطت بجسـده ، وأن سـحبا داكنة من حقد المظلـومين ، وأنصـار الحق تقترب منه ، وفي لحظة سـوداء ، وربما وهو جـالس على مائدة الشراب ، ولذائذ الطعام ، والى جانبه فتيـات الحب ، وغلمان الشذوذ ، وهو في غمـرة من الفـرح والإشـباع ، فاذا بالشرطة تداهم بيته ، وإذا به يشعر بـأنواع الألم وهو في غياهب السجون ، وأذا به في موقع لعنة الناس جميعا ، وأخيرا يسلّم الى حبل المشنقة غير مأسوف عليه.

كـذلك الامة الـتي تنفلت من قيـود الـدين والأخلاق ، وتعمل بـالظلم والبطش وتسـرف في كل شـيء ، انها تشـعر بـالغرور والكبريـاء ، ولكن في لحظة واحـدة يهجم عليها عدوها فيهزمها شر هزيمة ويذيقها الأمرّين.

[45] وحين تنتهي هـذه الحولة ينحسر غبـار المعركة عن أمة سـادت ثم بـادت ، ولم يبق منها سـوى الـذكر السيء.

(**فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

وهـذا الحمد ، هو حمد النـاس حين يشـعرون بـأن كابوسا عظيما ارتفع عنهم ، وهو حمد الناس حين يعرفون أن رحمة الله هي التي أنقذتهم من هذا الكـابوس بفضـله العظيم.

ولو لا رحمة الله الذي أجرى هـذه السـنة الحكيمة أذا لبقيت الجماهير ترزح تحت نير الطغاة.

قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَـذَ اللـهُ سَـمْعَكُمْ وَأَبْصـارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِـهِ انْظُـرْ كَيْـفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُـلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَـلْ يُهْلَـكُ إِلاَّ الْقَـوْمُ الظَّالِمُونَ (47) وَما نُرْسِـلُ الْمُرْسَـلِينَ إِلاَّ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْـلَحَ فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ (48) وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّـهُمُ الْعَـذابُ بِما كـانُوا يَفْسُـقُونَ (49) قُـلْ لا أَقُـولُ لَكُمْ عِنْـدِي خَزائِنُ اللـهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَـكٌ إِنْ أَتَّبِـعُ إِلاَّ ما يُـوحى إِلَيَّ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

---

46 [يصـدفون] : صـدف عن الشـيء صـدوفا إذا مـال عنه ، والصـدف والصدفة الجانب والناحية ، والصدف كل بناء مرتفع.

هل يستوي الأعمى والبصير

هدى من الآيات :

ان الله ســبحانه خلق الحيــاة وجعل فيها الظلمــات والنور ، والعذاب والمغفرة ، والشقاء والرفاه ، ثم اعطى البشر مصباح العقل ليهتدي به الى سبيل النور والمغفــرة ، والرفاه ، وفي وسع ربنا القدير أن يســلب نعمة العقل ، فيتخبط البشر في ســبل الحيــاة ، كما أنه قــادر على أن ينزل عليه العذاب جهرة دون أن يملك البشر له ردّا.

ولكن الله برحمته الواســعة لم يكتف بنعمته العقل ، بل بعث أنبياء مبشرين ومنذرين ووعدوه بأنه ان آمن فان مصـيبات الحيـاة لا تصـيبه ، وإلا فـان عـذاب الله سـوف يمسه ويشبع أحاسيسه ألما ورعبا.

وعند هـذه النقطة تنتهي وظـائف الأنبيـاء ، فـأنهم لم يأتوا ليتخذوا قرارات بديلا عن النـاس ، أو يكرهـوا النـاس على اتبــاع الحق ، أو ليــوفّروا لهم الخــير ، كلا. بل انما جاؤوا ليساعدوا الإنسان على الرؤية السـليمة ، ثم يكـون هو المسؤول عن ذاته. وعلاقة هـذا الـدرس بما مضى هو بيان أن : الضراعة الى الله لا تختص بحين نزول المصـيبة ،

بل نحن بحاجة الى الضراعة الى الله في كل حال.

بينات من الآيات :

أسباب الهداية :

[46] لكي نصل الى الغاية ـ أية غاية ـ لا بد ان يتـوفر لدينا شرطان :

الاول : أن يكــون أمامنا ســبيل معبد ينتهي الى تلك الغاية.

والثــاني : ان نملك الرؤية الكافية الــتي نكتشف بها ذلك السبيل ، والله هو الـذي سـنّ السـنن ، وعبّد السـبل أمـام البشر للوصـول الى اهدافه النبيلة ، وهو الـذي زود الإنســان بالرؤية الكافية ، اما لو ســلبه هــذه الرؤية فأنه سـوف يصـطدم بالعقبـات أو يقع في واد سـحيق ، وليس فقط يضل الطريق.

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ**)

السـمع جـاء مفـردا في آيـات القـرآن. ربما لان ما يســمعه الإنســان أقــرب الى العقل ، وأنسب الى المجــردات والكليــات. خصوصا إذا فســرنا السـمع ب (الأقوال) التي نسمعها من الآخرين حـول الحقـائق ، بينما الأبصار جاء جمعا في القـرآن ، ربما لان ما يـراه الإنسـان متنوع ومختلف ، وأقرب الى الواقعيات الخارجية.

وســواء ما يســمعه البشر وينقل اليه من تجــارب الآخـرين وعلـومهم ، أو ما يـراه بنفسه ويحصل عليه من علم وخبرة بصورة مباشرة ، فإنهما نافذتان الى القلب أو (الــــدماغ) فلو ختم الله على قلب البشر ، وأزال عنه مقاييسه العقلية ، ومســـبّقاته الفطرية ، فما ذا يبقى عنـده؟ انه سـوف يفقد القـدرة على تعقل الاحاسـيس ، ويتجمد على ما يسـمعه أو يـراه دون أن يسـتنبط منهما حقائق جديدة ، أو يستدل بهما الى ما

ورائهما من حقـائق وواقعيـات. انه آنئذ يـرى شـعلة النـار دون أن يعقل أن الشعلة نذير الحـرارة ، والحـرارة سـبيل الاحـتراق والانتشـار ، وانها لا تنشأ بلا سـبب ، وان الـذي أشـعل النــار كـانت له دوافعه وأهدافــه. كلا .. إنه يــرى الشـعلة فقط ، وقد يقع فيها ويحـترق. كـذلك الـذي يختم الله على قلبه. يقف في فهم الحقـائق عند حد معيّن دون أن يصل الى الجــذور البعيــدة لهــا. يــرى الفقر دون أن يعرف ان النظام الاقتصادي هو وراء الفقر. يـرى المـرض دون أن يعرف أن اللامبالاة في الوقاية هي السـبب. يـرى العجز الحضــاري دون أن يهتــدي الى ان الطــاغوت هو الســبب المباشر أو غــير المباشر له ، وهكــذا يبقى في العذاب أبدا.

(**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ**)

ان الله يبيّن الآيات بصورة تفصيليّة وواضحة ومع ذلك :

(**ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ**)

أي أنهم بعد تصـريف الآيـات وبيانها تـراهم يعرضـون عنها كأنها لا تهمّهم.

بينما لو فكروا قليلا لأدركـوا أن الإله الـذي يتضـرعون اليه عند ما تضـرب سـفينتهم الأمـواج العاتية الـتي تحمل في طياتها المــوت ، أو عند ما يلفهم التّيه في الصــحراء ويستبد بهم خوف الموت ، ان هذا الإله هو الـذي وفر لهم هذه الحياة الآمنة ، وأنه لو شاء لسلب الامان من حيـاتهم ، بل أن كلّ لحظة تمر بهم هي لحظة رعب ، ولو لا أمـان الله القادر لسلب منهم رحمته ، وآنئذ يكـون أبسط شـيء في الحياة سببا في هلاكهم فلما ذا لا يتضرعون إلى ربهم في هذه الأوقات التي يزعمون إنها عادية؟!

[47] أو تكــون للإنســان أوقــات عادية ، وأخــرى استثنائية ، أو لا يحتمل البشر في

كل لحظة ـ أن يأتيه الموت ـ أو ينزّل عليه عذاب المـرض أو المسـكنة؟! ولمـاذا لا؟ أو ليست الحيـاة مليئة بهـذه المفاجـآت ، كم لحظة حملت معها رعبا ودمـارا. ونحن لم نكن نحسب لها حســـــابا ، أو كنا نعرفها ولكن دون ان نستطيع مقاومتها ، فلما ذا الغرور إذا؟

(**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً**)

بغتة اي : مفاجـاة ، مما يـدل على ان علم الإنسـان بالحيـاة علما محـدود اما (جهـرة) فتـدل على العلن ، مما يدل على ان قدرة الإنسـان محـدودة حـتى ولو كـان بالغا وشاملا.

(**هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**)

إذا كـان عـذاب الله لا مـرد له ، بقـدرتنا المحـدودة ، اذن كيف نحصل على الامان؟

يجيب القـرآن على هـذا السـؤال ويقـول : ان الله حكيم لا يعـذب عبـاده بلا سـبب .. إنما يعـذب الظـالمين. فـــإذا أحببت تجنب عـــذاب الله ، فبإمكانك أن تعـــدل وتسـتقيم ، ولا تظلم نفسك ولا الآخـرين ، حـتى تحصل على الأمان.

مهمات الرسل وواجب الناس :

[48] ثم ان الله لا يعـذب الظـالم مباشـرة ودون أن ينذره مسبقا برسالة ورسول ، بيد أنّ البشر قد يخطأ في فهم دور الرسول ، فـيزعم أن الرسـول إنما يـأتي ليكـون مسـئولا بـدلا عنهم ، أو ليجـبرهم على الهـدى ، أو حـتى ليـــؤمّن لهم عمليا كل وســائل الســعادة ، بيد أن الله سبحانه يفنّد هذا الزعم قائلا :

(**وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**)

والهــدف من بعثهم هو توفــير وســيلة الامــان في النفوس وفي الواقع.

(**فَمَنْ آمَنَ وَأَصْــلَحَ فَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

لا خوف لهم من المستقبل. مما يدل على وجود حالة السلام في أنفس الذين يملكون الايمان والعمل الصـالح ، ولا هم يحزنون من الماضي مما يـدل على وجـود السـلام في الواقع الخارجي ، حيث لا يصيبهم ما يحزنون بسببه.

[49] تعرضنا للبشارة ، أمّا الإنذار فيتلخص في عاقبة الذين يكذبون بآيات الله ، ولا يهتدون الى الحقائق بالرغم من وجــود دلائل واضـحة تـدل عليها ، وهـؤلاء مصـيرهم العذاب.

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّـهُمُ الْعَـذابُ بِما كـانُوا يَفْسُقُونَ**)

ولم يقل القرآن بما كـانوا يكـذبون ربما لأن التكـذيب قد لا يكون وحـده سـببا للعـذاب ، بل الفسق الـذي ينتهي اليه التكـذيب هو الســبب المباشر للعــذاب ، والفسق هو تجاوز احكام الله.

حكمة الرسالات :

[50] الهدف من بعث الرسل ليس سلب المسـؤولية عن الناس ، وإلقائها على عـاتق الرسل ، كما كـان يـزعم البعض ، وقد تطـرف فريق من النـاس فزعمـوا أن أنبيـاء الله مكلفــون بتوفــير الســعادة لهم والرفــاه ، وأنه لو لم يكن النبي مالكا للـذهب والفضة فسـوف لا تكتمل نبوته ، بينما القــرآن بيّن أن الهــدف من بعث الرسل هو توفــير الرؤية للإنسان ، وعن طريق الرؤية الواضحة يكون البشر قادرا على معرفة الطريق السليم ، وحين يسير فيه يصل الى الفلاح :

(**قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ**)
ان خـــزائن الله موجـــودة في الأرض وفي الإنســـان نفسه.
(**وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**)
إلّا بقـــدر ما يعلّمـــني الله بحكمته ، بل العلم يحصل لكم بالتعلم وتزكية النفس.
(**وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**)
حتى أقوم بالخارق للعادة الا في حدود تبليغ الرســالة ، فأنا بدوري محتاج الى الطعام والشراب وسوف أموت.
(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ**)
فما عندي هو من عند الله ، وذلك عن طريق الــوحي ، فلو كنتم أنتم أيضا تســـتفيدون من ذلك الـــوحي. إذن لاصبحتم سعداء. ولاني اتبع ما يوحى إليّ فـأني أسـير في الحياة بصيرا ، فأعرف سـنن الحيـاة وأتبعها ، فأسـعد في الحياة.
(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**)
ولأنه لا يســتوي الأعمى والبصــير ، فــان نعمة البصر هي أفضل نعمة ، ومن أراد البصر فليتفكر ، فــــأن الفكر مرآة صافية.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخـافُونَ أَنْ يُحْشَـرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُـونَ (51) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـداةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ ما عَلَيْـكَ مِنْ حِســابِهِمْ مِنْ شَــيْءٍ وَما مِنْ حِســابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَــيْءٍ فَتَطْــرُدَهُمْ فَتَكُــونَ مِنَ الظّالِمِينَ (52) وَكَـذلِكَ فَتَنّا بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُـوا أَهــؤُلاءِ مَنَّ اللــهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللــهُ بِــأَعْلَمَ بِالشّــاكِرِينَ (53) وَإِذا جــاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُــونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِــلَ مِنْكُمْ سُــوءاً بِجَهالَــةٍ ثُمَّ تــابَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيـاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

حقيقة الايمان وميزات المؤمنين

هدى من الآيات :

من الـذي يتقي ربه فيصـبح صـالحا؟ إنه الـذي يوجه خوفه نحو المصدر الحقيقي للخوف وهو الله. حيث يحشر اليه الإنسـان وحيـدا ، دون أن ينفعه هنالك ما يتخـذه من دونه أولياء ، أو شفعاء.

الا أن هنـــاك رجـــالا يحجبهم عن الحقيقة التفـــاف البسطاء والفقراء حولها ، يقولون : إما أن يطرد هـؤلاء أو لا نقبل بالحقيقة ، والقـرآن نهى عن طـرد أهل الحق لان ذلك ظلم ، علما بأن حساب كل واحد على نفسه.

ان الله امتحن الناس في الدنيا بأنواع التنـافس ومنها أنه امتحنهم ببعضهم فاذا بالمؤمنين المسارعين الى الحق ينافسهم المستكبرون الذين يعادون الفقراء بصفة دائمة ، وبما أن المؤمنين يبادرون الى الايمان ، فان المسـتكبرين يتخذون ذلك ذريعة لعدم الايمان بالله ، وعلى الرسول أن يخفض جناح الرحمة للمؤمنين ، ويعدهم بالمغفرة.

هذه هي الآيات التي يفصّلها الله سبحانه لكي يتميز طريق المؤمنين عن طريق الكافرين.

بينات من الآيات :

أصحاب الرسالة :

[51] ان هناك شريحة خاصة في المجتمع هي التي تستجيب لرسالة السماء ، وهم الذين يخافون من العاقبة ، فعلى الرسول أن يفتش عنهم وينذرهم من عاقبة الضلالة دون النظر الى طبقتهم ، أو لونهم أو مستوى ثقافتهم.

(**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**)

هؤلاء الأولياء الذين يتخذهم البشر في الدنيا قادة ، ويحتمون الى ظلالهم لا ينفعونه في الآخرة شيئا ، كما أنه في الآخرة ليس هناك من يستطيع ان يفرض على الله سبحانه إرادته ، فلا شفيع من دون إذنه ، وما دام الله حكما مطلقا ، فيجب أن يخشاه البشر من بعد أن ينذر ، والهدف من الخوف ليس الجمود والانسحاب بل الهدف هو التقوى.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)

وهو العمل الايجابي في سبيل الخلاص من العاقبة السوء في الآخرة.

[52] والمؤمنون يشكلون حزبا واحدا مقياسه العمل الصالح ، من دون أثر للفوارق المادية فيه ، وعلى الرسول ان يكون علاقات مبدئية مع افراد هذا الحزب ، والّا يطرد واحدا منهم بأي اسم كان.

(**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**)

فما داموا متوجهين الى ربهم فـان الاخطـاء الصـغيرة التي يرتكبونها بسبب عدم وضوح الرؤية عندهم ، أو عـدم علمهم بالأحكام الشرعية فانها سوف .. تغتفر.

(**ما عَلَيْـــكَ مِنْ حِســـابِهِمْ مِنْ شَـــيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ**)

ان هذه الاخطاء البسيطة لا تسجل في حسابك أنت ، وليس لأحد ان يحاسبك عليها بمجرد أنك تقرّبهم إليك.

(**فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ**)

ان طرد هؤلاء يعتبر ظلما لهم ، ولا يـبرر هـذا الطـرد أن بعض المؤمنين القدماء أو بعض المتكبرين ينتقدونك أو حتى يبتعدون عن الدين بهذا السبب.

حقيقة الانتماء :

[53] والتنافس بين الناس متجذر في فطـرتهم حـتى في الـدين ، حيث يسـعى كل فريق أن يكـون هو الأقـرب الى صـاحب الرسـالة ، وأن يكـون الفريق الثـاني الأبعد ، ولذلك فان كثيرا من الناس يبتعدون عن الدين فقط لهـذا السبب ، لذلك حذر القرآن الحكيم من هذا الأمر وقال :

(**وَكَذلِكَ فَتَنّا بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُـوا أَهـؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا**)

فكانوا هم السابقين الى اعتناق الدين الجديد؟!

ويجيب الله على هذا السؤال الذي يطفح بالاستنكار.

(**أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ**)

نعم ان الله منّ على هـــؤلاء بـــأن وفقهم لقبـــول الرسالة ، ولكن ليس عبثا ، بل لأنه

عـرف أنهم أشـكر من غـيرهم لنعمة الرسـالة ، وأي فـرد كان شـاكرا لله وعارفا بحق الرسـالة فسـوف يوفقه الله سبحانه أيضا.

[54] ان انتماء البسطاء الى الرسـالة لا يعـني الغض عن سـيئاتهم ، بل الإغمـاض عن تلك السـوابق ، الـتي ارتكبوها بجهالة ، وقبل أن يصل مسـتوى وعيهم وايمـانهم وتـربيتهم حـدا كافيا يـردعهم عنها ، أما في المسـتقبل فليس عليهم التوبة فقط ، وانما إصلاح أنفسهم أيضا.

(**وَإِذا جـاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِآياتِنا فَقُـلْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ**)

أي انكم في أمان ، لا خوف عليكم.

(**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِـلَ مِنْكُمْ سُـوءاً بِجَهالَـةٍ ثُمَّ تـابَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَصْـلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

وهـذه هي الرحمة الـتي كتبها الله على نفسه ، وهـذا هو السلام ، فالإسلام يجبّ ما قبله ، ويبدأ الفرد معه حياة جديدة.

[55] ومع العفو العـام الـذي تقتضـيه هـذه الرحمة الربانية الشـاملة ، يتمـيز المجرمـون المعانـدون عن الجاهلين. حيث أن الفرد الذي يسـتمر في الخيانة والظّلم ، ولا يصلح نفسه بعد العفو العام فليستعد للعقوبة.

(**وَكَـذلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيـاتِ وَلِتَسْـتَبِينَ سَـبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**)

الـذين يختـارون طريقا غـير طريق الله بعمد وسـبق إصرار.

قُـلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ قُــلْ لا أَتَّبِــعُ أَهْــواءَكُمْ قَــدْ ضَــلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُـلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَكَـذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِـهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُـلْ لَـوْ أَنَّ عِنْـدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللـهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

دور الرسل في مسيرة التوحيد

هدى من الآيات :

لكي لا يحجب التنــافس الشخصي طائفة من النــاس عن الايمـان بالله ، أوضح الـدرس السـابق ، ان اسـتقبال الرســول للمؤمــنين المبــادرين لا يجب ان يكــون متــأثرا بانتماء آتهم السـابقة أو طبقتهم أو ما أشـبه ، إنما بسـبب الايمان وحده ، ولذلك فلا داعي للقلق ، وفي هذه الآيــات بيّن في القـرآن الحكيم : إن الـدعوة إلى الرسـالة ليست دعوة إلى شـخص الرسـول. إذ أن القيمة إنما هي للمبـدء وحتى شخص الرسول شملته الدعوة كأي فـرد آخر ، فهو قد نهي عن عبــادة الشــركاء ، وأنه لو اتبع أهــواء النــاس لأصـــبح ضـــالا ، وما عند الرســـول إنما هو من عند الله ، والعقوبة الـتي يهـدد بها الرسـول أعـداء الـدين قادمة من عند الله ، والحـــــاكم فيها هو الله الـــــذي يوضح الحق ، ويفصل أهله عن أهل الباطل ، وذلك بحكمه الحاسم ، أما الرســول ذاته فهو أن كــان مالكا للعقوبة ملكا ذاتيا وكــان بشرا متفوقا على سائر البشر. إذا لأنزل العقوبة بأعدائـه. كلا أنّ الله هو الذي يحكم وهو أعلم بالظـالمين من سـائر البشر.

بينات من الآيات :

من هو الرسول :

[56] كأي بشر آخر نهاه الله عن عبادة الشـركاء من دونه.

(**قُـلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

والنهي عن عبادة هـؤلاء يعـني التمـرد على سـلطات الطاغوت المتمثلة في السلطان الجائر ، أو شيخ العشيرة الفاسد ، أو رئيس الحزب المتجبر ، وهكذا.

(**قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ**)

اي لا اتبع الجبت أيضا.

(**قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً**)

حين أعبد الطاغوت أو أتبع الجبت.

(**وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**)

آنئذ ، ذلك أن هداية الله للرسـول ليست ذاتية ، بل قائمة بالله ، وهي تزول إذا انحرف الرسول ـ حاشا لله ـ عن الخط المستقيم.

اطار التحرك الرسالي :

[57] ويتمـيز الرسـول عن الكفـار ، بأنه على بينة واضحة من ربه ، انه يعرف الطريق جيدا بينما أولئك ليس فقط لا يعرفون الطريق بل ويكذبون بذلك تكذيبا.

(**قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ**)

اما العقوبة فهي عند الله وأنتم تســـــتعجلونها ، والله هو الــذي يحكم بها لأنه يقصّ ســبحانه الحق ، ويعلم لمن هو.

(**مٰا عِنْــدِي مٰا تَسْــتَعْجِلُونَ بِــهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ**)

ان الله يقص الحق ربما معنـــاه : ان الله ســـبحانه يقسّـــم الحق الكلي العـــام على أقســـام الحيـــاة ، أو الموضوعات الخاصة المنفصلة عن بعضها ، والله سـبحانه (خــير الفاصــلين) ربما معنــاه أن الله خــير من يقضي لتطبيق الحق على الشخص المعين.

ولنضـرب مثلا يقـرب الى أذهاننا معـنى الآية فـالحق الكلي مثلا هو أن العدالة قيمة صــحيحة ولكننا بحاجة الى قصّ هذا الحق ، وذلك بتقسيمه الى مختلف الموضوعات. مثل أن العدالة تقتضي إنـــــزال العقوبة على من يظلم صـاحبه ، ولكن من الـذي ظلم صـاحبه؟ هـذا الأمر بحاجة الى فصل (يسمى بالقضـاء) والله هو الـذي يفصل ويحـدد بالضبط من الذي ظلم ، ومن الذي وقع عليه الظلم.

[58] إذا فالله هو الـذي يملك العقوبة ، ويعلم الحكم ، وهو خــير من يقضي ، أما الرســول فهو بشر لو لم يكن رســولا من الله ، وكــان يملك العقوبــات الــتي يهــدد بها الأعداء. إذا كان يستخدمها عمليا في دحر الأعداء.

وهو حين لا يفعل فــان ذلك يــدل على أنه رســـول متصل بالله ، وأنه لا يقول ولا يعمل شيئا إلّا بأذنه ، بل هو لا يملك شيئا من دون الله سبحانه.

(**قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِـيَ الْأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِينَ**)

فهو الذي يقضي بين العباد ويعاقب المتجــاوزين على القانون ولست انا.

وَعِنْـدَهُ مَفـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُـوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59) وَهُـــوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْـــلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَـلٌ مُسَـمًّى ثُمَّ إِلَيْـهِ مَـرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (60) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِـلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَـةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُـونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللـهِ مَـوْلاهُمُ الْحَـقِّ أَلا لَـهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

---

60 [جرحتم] : الجرح بالجارحة ، والاجتراح الاكتساب.

مفتاح الغيب بين العلم والقدرة

هدى من الآيات :

المستقبل عند الله ، وما ينفتح اليه عنده ، فهو الــذي يخلقه حسب ما يشــاء ، ويجــري عليه ســننه ولــذلك فهو يعلم مــاذا ســيكون ، فــاذا تحقق علم بأصــوله وقواعــده العامة والحكيمة ، كما علم بجزئياته الصـــــــغيرة ، فمن الورقة الــتي تــذبل وتســقط ، الى الحبة الــتي تــدفن في بــاطن الأرض يعلمها الله ســبحانه ، بل كل شــيء حيّ أو ميت. مسجل في كتاب مبين.

وعلم الله محيط بالحيـــاة ، فهو الـــذي يســـترد في الليــالي روح الإنســان ، ويراقبه على أعماله في النهــار حيث يبعثه ليستمر الى فـترة محـدودة ، فـاذا انتهت يعـود البشر الى الله حيث يخبره بما فعل.

وكما علم الله فكذلك قدرته محيطة بالعبــاد. انك من دون هــذه القــدرة الــتي تحيط بك وتحفظك من المهالك تتعرض لألف مشكلة ومشــكلة. اما المــوت فهو لا يحـدث بعيــدا عن قــدرة الله بل عبرها ، فرسل الله هم الـــذين يتوفونك دون أن يخرجوا.

عن حدود الطاعة لله ، وتعود الى الله حيث يحاسبك على أعمالك وهو أسرع الحاسبين.

بينات من الآيات :

مظاهر علم الله :

[59] للغيب (وهو المستقبل) مفاتح. أي سـبل تـؤدي اليه ، أو أسباب تحققه ، وكلها عند الله في قبضـته وتحت هيمنته ، ولأن الله هو الـــــذي يفتح الغيب يحققه ويخلقه فانه عالم به دون الخلائق لأنهم دون مستوى الخلق.

(**وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ**)

وإذا كـــانت مفـــاتح الغيب عند الله فكيف بحقـــائق الشهود ، أي الـتي تجـري الآن في الواقع ، ان ربنا محيط بها علما.

(**وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**)

علما شـــهوديّا محيطا ، وربما نســتطيع القــول : أنّ الاحاطة بعلم الشــهود هو أحد مفــاتح الغيب الاساســية ، والمفتاح الثاني هو : القدرة على قهر الواقع كما يأتي في الآية التالية ، ولكن كيف العلم بالشهود مقدمة لفتح غيبه؟

الجواب : العلم بالجرثومة ـ مثلا ـ في جسد الإنسـان طريق لمعرفة المــرض ، والعلم بالفيتــامين أو المضــاد الحيوي طريق لمعرفة الـدواء ، والعلم بـالمرض وبالـدواء طريق للسيطرة عليها ، ولصنع المستقبل وهو الغيب.

(**وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها**)

أنها ورقة انتهى أجلها وســــــقطت ، ولكن علم الله محيط حتى بتلك اللحظة. لحظة

المــوت والســقوط بالنســبة الى الورقة التافهة الــتي لا أهمية لها أبدا.

(**وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ**)

إنها الحبة الصغيرة المسـتورة في الأرض الـتي لا يأبه بها أحد ، ولكن الله محيط بها علما.

(**وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ**)

الرطب كالحبة النشيطة التي تنمو ، واليابس كالورقة الـتي سـقطت. إن احاطة علم الله بالحبة وبالورقة الميتة أنما يعـني علمه بابتـداء كـلّ شـيء وانتهائه ، بيد ان علم الله ثابت ، ومسجل في كتاب واضح ومفصل.

(**إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**)

آيات قدرة الله :

[60] ما هو النوم؟ وكيف يحدث؟

لا تــــزال معلوماتنا ناقصة في هـــــذا الحقل ، الا ان المعلوم أنّ جزء من قدرتنا وحيويتنا نفقـدها عند المنـام ، والســـؤال : هل نفقد ذلك أم أن قـــدرة عليا هي الـــتي تنتزعها منا؟

بالطبع ان الله هو الذي يتوفى الأنفس ، أو بتعبير آخر يستعيد جزء مما وهبه للإنسان عند النــوم ، وكلما وهبه له عند الموت. لأنه صـاحب تلك القـدرة العليا المهيمنة على كل جزء ، بل كل جزء من الحياة.

(**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ**)

فســـبحان من يملك ناصـــية الطبيعة ، يوجهها كيف يشاء.

(**وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ**)

كل أثر يخلقه الإنسـان بعمله يعلمه الله ، بـالرغم من أن الإنســان نفسه ، قد لا يعلمه ، وكما أن الليل ســكون ووفاة ، فان النهـار تحـرك وتعب. حيث يشـعر الفـرد بـأن قواه تجددت واستعدت لتحقيق الاهداف.

(**ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى**)

ستبقى دورة الليل والنهار مستمرة الى أجل مســمى يبلغه الفرد شاء أم أبى ، وهذا الأجل ينتهي الى الله.

(**ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ**)

وعند ما يعــود النـاس الى ربهم يســتيقظون وكـأنّهم كانوا في سـبات ، بيد أن الشـريط الـرقيب قد سـجل كل أحداث حياتك ، فيعاد عليك.

(**ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

[61] ســبق القــول : ان للغيب مفتــاحين ، أحــدهما العلم والثاني القدرة أو القهر ، والله عالم وقاهر.

(**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**)

وقهر الله ليس كقهر العبـــاد بعضـــهم لبعض مؤقتا ومحدودا ، إنما قهـره دائم وشـامل ومطلق ، وربما لـذلك عبر الله عنه (فوق عباده) كما أن قهـره انما هو (بـالقوة) ولا يجب بالضـرورة أن يكـون (بالفعـل) فالله بـالرغم من أنه قاهر فهو رحيم ، ولذلك فهو لا

يســتخدم قهــره أحيانا كثــيرة ، ومن هنا فلربما لو عــبر القــرآن ب (وهو القــاهر عبــاده) كــان المعــنى مختلفا وناقصا. ان قهر الله ليس قهرا فعليّا ، بل قد يكون بالقوة فقط ، والــدليل يكمن في أن الله ســبحانه يحيط البشر بالحراس الذين يحفظونه.

(**وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً**)

الغلاف الـواقي الـذي يحيط بالفضـاء لكي لا تسـقط نيازك السماء على رؤسنا ، والجبال الراسـية الـتي تحفظ الأرض من أن تميد بأهلها ، والمحيطــات الواســعة الــتي تمتص الغــازات. كلها رسل الله الحفظة لعبــاده ، والغـدد المنتشـرة في جسم البشر الـتي تسـبب توازنه ، وطريقة توزيع المواد ، ونظام مقاومة الميكروبـات الـتي يقـوم بها جنــود الجسم ، والكريــات الــبيض و.. و. ومئــات الأنظمة الدقيقة التي تحرص على سلامة الجسم ـ كلها حفظة.

ولكن لا ينتهي حفظ الله للبشر على هذه الأمــور. بل هناك آلاف الحـوادث الـتي يتعـرض لها الإنسـان في حياته مما يحتمل ان تكــون الواحــدة منها كافية للقضــاء عليه ، فقد يقع الإنســان من علــوّ ، أو حــتى يعــثر في الطريق فيرتطم بالأرض ولو صادف واصطدم به حجرا اذن لقتــل. وقد تنحرف سيارته بسـبب الطبقة الثلجية يمينا أو يسـارا لتصــطدم بالســيارة الاخــرى ، ولو زاد انحرافها لارتطمت بالجبل ، ولو كان انحرافها بعد كيلومتر لوقعت في الوادي لضيق الشارع ، ترى كم احتمـالا للهلاك كـان قائما انجـاك الله منه بلطفــه. إن حفظة الله هم الــذين يحيطــون بك ويدفعون عنك المهالك ، ولكن الى متى؟

الى حين موعــدك ، حيث يصــبح الحفظة أنفســهم قابضين لروحك.

(**حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا**)

والسؤال الذي يقفز الى الــذهن. أفلا يخطأ الحفظة ، فيقصرون أو يعجزون عن الحفظ حينا ، أو يتوفـون الفـرد قبل موعده؟

يجيب القرآن : كلا.

(**وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**)

فالله هو الـذي يرسل حفظته ، ويحـولهم الى قابضي أرواح ، فمن هو المــولى الحق للإنســان؟ ومن هو القائد والمعين؟ أليس الله؟!

[62] اننا ســنعود اليه ليحاســبنا على هــذه الفــترة البسيطة التي أمهلنا فيها دون أن يهملنا.

(**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ**)

الحكم هو استعمال حق الولاية.

(**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ**)

أي القضاة الذين يقضون بالحق.

قُـلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمــاتِ الْبَــرِّ وَالْبَحْـرِ تَدْعُونَـهُ تَضَـــرُّعاً وَخُفْيَــةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هــذِهِ لَنَكُــونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَـرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) قُلْ هُوَ الْقـادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـــذاباً مِنْ فَـــوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ انْظُـرْ كَيْـفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)

---

63 [تضرعا] : معلنين الضراعة والتذلل.
[خفية] : مسرّين بالدعاء.
65 [يلبســكم] : لبست عليهم الأمر ألبسه إذا لم أبينه ، وخلطت بعضه ببعض ، ولبست الثــوب ألبسه ، واللبس اختلاط الأمر واختلاط الكلام ، ولابست الأمر خالطته.
[شـيعا] : الشـيع الفـرق ، وكل فرقة شـيعة على حـدة ، وشـيعت فلانا اتبعته ، والتشيع هو الاتباع.

عند لحظات الخطر حجة الله

هدى من الآيات :

في الدروس السابقة. بين القـرآن جـوانب من هيمنة الله على الكـون ، والبشر بالـذات لـيزداد الإنسـان معرفة بربه ، وحبا له ، وتقربا اليه ، ويســتجيب بإرادته الحـــرة لواقع الولاية الحق الــتي تنتشر في الحيــاة وفي أنفســنا آياتها وعلائمها.

وتتابع الآيات في هذا الـدرس في ذات الموضـوع من زاوية فطرية يعيشــــــها كل منا في حياته ، وذلك عند ما ترتفع غشاوة الكبر والغفلة ، ويتحسس الإنسـان بـالخطر فيصبح آنئذ أقرب الى الحقيقة.

ولكن متى نشعر بالأمان المطلق. أو لسـنا في لحظة الأمان يساورنا الخوف من تجدد ظـروف الخطر ، أو ليس الله الـذي نـدعوه عند ما تحيط بنا ظلمـات الـبر والبحر ، ونـدعوه تضـرعا وخفية ، ودون ريـاء قـادرا على ان يـنزل علينا عــذابا من الســماء أو الأرض ، أو حــتى من أفــراد البشر إذا لماذا ندعو الله فقط في أوقات الكرب الظـاهر ، ولا نـــدعوه في كل حالة ما دامت كل لحظة تحمل في طياتها مخاوف كروب

عظيمة؟!

ولكنّ فهم هـــــــذه الحقيقة بحاجة الى فقه ومعرفة عميقة بالحقيقة.

بينات من الآيات :

مع الله :

[63] اصطدمت سيارتنا بـأخرى في طريق صـحراوي بعيد .. والـــوقت بعد منتصف الليل والســحب المتراكمة حجبت ومضات النور المنبعثة عن النجــوم ، وأخي قطعت ذراعه ، وأخذ الـــدم يتفجر منه كـــالميزاب ، بعضـــنا أخذ يحاول إيقاف الدم النــازف ، والبعض الآخر أخذ يتطلع في الظلام لعله يبشر بمرور سـيارة. ولكن لا شـيء نسـتطيع فعله ولا ندري هل تـأتي سـيارة أم لا؟ الكل حبس أنفاسه في صـدره ، ويكـاد لا يتكلم إلا همسـا. القلـوب تحلق في فضاء آخر ، اتّصلت بعالم آخر بالله القــادر على أن يرسل من عالم الغيب سيارة أو يلهمنا طريقة ما لوقف الدم.

فجأة يعلو صراخ : حبل. حبل. صاحب الجـرح النـازف يـدعو رفاقه بجلب الحبل ، ثم يـأمر بشـدّه فـوق جرحه .. بشـــدة ، ثم ينقطع الـــدم الا قليلا ، ومن وراء الأكمة يشع الفضاء بنـور خـافت ، ثم ينكشف هـذا النـور عن سـيارة ، وســرعان ما نحمل جريحنا الى أقــرب مركز للطــوارئ ، وتنتهي الأزمة ، ويتــبين بعدئذ أن خــبرا خاطئا دعا ســيارة النجدة الـتي قـدمت ان تسـرع الى المنطقة ، ولولاها لما جاءت ، وبالتـالي تـبيّن أن يـدا غيبية هي الـتي دفعتها الى هــذا الطريــق. تــرى كيف كنا نعيش في تلك اللحظة ، ما الذي كنا نقوله لله في مناجاتنا الخفية؟

كنا نقـول لربنا : فـرّج كربنا يا ربنـا. فسـوف تجد ايّ عباد شاكرين سنكون نحن ، سنترك الذنوب مرة واحـدة ، ولا نظلم النـاس ، ونتصـدق بأموالنا في سـبيلك. يا رب يا رب يا رب! كنا نشـــعر آنئذ بأننا عبـــاد ضــــعفاء لا نملك لأنفسنا شيئا ، والله رب

قوي رحيم ، مالك لكل شيء.

ان هـذه القصة غـير الواقعية هي حقيقة تقع بأشـكال مختلفة لكل واحد منا ، ولكنه سـرعان ما ينسـاها ، والله سبحانه يذكرنا بها في هذه الآية قائلا :

(**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**)

حين تكـاد الأمـواج العاتية ابتلاع قـارب الصـيد الـذي نمتطيه .. ولا أمل الا بالله.

(**تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**)

بسبب شدة الخوف نقول لربنا آنئذ :

(**لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)

[64] (**قُلِ اللـهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُـلِّ كَـرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ**)

حيث اننا مستعدون بعدئذ لأن ننسب خلاصنا حتى الى الصـدفة دون أن نـذكر أن الله هو الـذي أنقـذنا ، وسـوف نشـكر سـيارة النجـدة ، ونشـكر الطريق المعبد ، ونشـكر حتى مبضع الجـرّاح دون أن نشـكر ربنا الـذي كـان المنقذ الحقيقي ، والذي توسلنا إليه حين اشتد بنا الكرب.

احتمال عودة الخطر :

[65] ولكن هل انتهى الخطر .. أفلا نعـــود الى ذات المشكلة ، أو لا يمكن ان يهبط علينا عـذاب ، من السـماء أو الأرض .. فمثلا هل نـأمن ان ينفجر الـبر كـان قريبا من قريتنا فيقـذفنا بحمم ، أو يزلـزل الأرض بنا فتخسف بنا وبما نملكه.

(**قُلْ هُـوَ الْقـادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**)

وهنـاك خطر آخر وأشد هو خطر النـاس بعضـهم ضد بعض ، حيث يختلفون على بعضهم.

(**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**)

كم دمرت الحروب البلاد ، وأجرت أنهر الدم. هل كان يسـتطيع هـذا الفريق أو ذاك النجـاة من ويلاتهـا؟! ان الله هو القــادر على اقامة الصــلح العــادل أو إلقــاء الــرعب المتبــادل في نفــوس المتخاصــمين لئلا يبــادر أحــدهما بالهجوم على الآخرين حتى يأذن الله بغير ذلك.

(**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**)

ان الله يوضح آياته حتى لا يكون البشر سـطحيا ينظر الى ظــواهر الحــوادث بل يتعمق الى أغوارها البعيــدة ، ويبقى على البشر أن يتذكر بتلك الآيات.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

مواقف الناس من آيات الله

هدى من الآيات :

في الــدروس الســابقة حــدثنا القــرآن الحكيم عن مجموعة من الآيــات ، وفي هــذا الــدرس يــبين اختلاف الناس في موافقهم من هذه الآيات ، وهو موقف الــرفض أو اللامبـالاة أو الاسـتجابة ، فهنـاك من يكـذب بـالحق من قوم الرسول ، بيد أن الرسول لن يغني عنهم شــيئا بحجة أنهم قومه ، أما الحق فأنه إذا جـــــاء موعد تطبيقه في المستقبل فسوف يعلم الناس ماذا يعني وما هي أهميته.

ومن الناس من يتخذ آيات الله هـزوا يتسـلى بها دون أن يتخذها ويعمل بها. هؤلاء يجب التباعد عنهم لأنهم قــوم ظـالمون ، وقد ينخـدع الإنسـان السـاذج بمظهـرهم حيث يتظاهرون بأنهم لا يخالفون الحق ، وآنئذ يجب أن يقرر ألّا يعود الى القعود معهم.

ومنهم من يستجيب للحق ، ويتقي الله وهم السـعداء الذين سوف يغفر الله لهم.

بينات من الآيات :

التكذيب والمسؤولية :

[66] للإنســـان امـــام الحق ثلاثة مواقـــف. موقف الاستجابة أو الرفض أو اللامبالاة ، وفي هـذه الآية ينـاقش القرآن الموقف الثاني فيقول :

(**وَكَذَّبَ بِـهِ قَوْمُـكَ وَهُـوَ الْحَـقُّ قُـلْ لَسْـتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**)

فالإنســان نفسه هو المســؤول المباشر عن قبوله أو رفضه للحق وليس مبلّغ رســـالة الحق ، والواقع أن علم الإنسان بمسؤوليته أمام تصـرفاته سـوف يسـاعده كثـيرا على اتخــاذ الموقف الســليم ، أما لو زعم أن بإمكانه أن يــبرر موقفه ، ويلقي بمســؤوليته على هــذا أو ذاك ، فأنه سيكون سببا لعدم الاهتمام بالحق.

[67] والقــــرآن يهـــدد المكـــذبين بما يرونه في المستقبل. حيث يتجلى الحق في شكل واقع قائم ويقــول : ان النبأ الـــذي عبّر عنه الله وهو الحق ســـيتحقق في الــوقت المحــدد له سـلفا ، وآنئذ يعلم الإنســان كم خسر بتكذيبه بالنبإ. ان الدكتور يخـبرك بوجـود خلية فاسـدة في رجلك ويـــأمرك بالاســـراع في العلاج ، ولكنك قد تكذبه فيتخذ المــرض خطّه المتصــاعد ، فينتشر السـرطان في الجسد في الوقت المحدد له حسب سنة الحياة ، وأنظمة الجسم وآنئذ يعلم الإنسان مـدى خطئه عند ما كـذب بالنبإ ، كـذلك رسـالة الله مجموعة أنبـاء صـادقة ، ولها أوقاتها المحـــددة (مســـتقرها) الـــتي تتحقق فيها ، وانئذ يعلم المكذب حقيقة الأمر.

(**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

تمييع الأحكام :

[68] والموقف الثاني من الحق وهو موقف اللامبالاة ، واستخدام الآيات مادة

للحديث اللامسؤول ، أو حتى للتسلية.

وهـؤلاء أخطر من المكـذبين إذ أنهم يميّعـون الحق ، ويفرغـون الحـديث من محتـواه الحقيقي ، ويحولونه الى مادة للجدل ، وقضاء للوقت ، والمباراة وإظهـار الوجـود ، وبذلك يغيرون نظرة الإنسان الى الكلام من نظـرة عبرية هـدفها العمل ، الى نظـرة ذاتية هـدفها التسـلية ، ولـذلك يجب مقاطعة مجـالس هـؤلاء وعـدم الخـوض معهم في جدلياتهم الفارغة ، وتركهم وحدهم يأكل بعضهم بعضا.

(**وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُـونَ فِي آياتِنا فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**)

ولكن كثـيرا ما ينسى الإنسـان هـذا الحكم بسـبب تظـاهر هـذه الفئة بالعلمانية وأنهم إنما يبحثـون عن الحقيقة بهـذه الجـدليات. لـذلك ذكرنا القـرآن بخطـورة النسيان قال :

(**وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

لقد سمّى الله هؤلاء بالظالمين بالرغم من تظـاهرهم بـالبحث عن الحقيقـة. لأن من يبحث عن الحق فعلا سيجده من دون تعب ولا حاجة إلى الجدال.

الموقف السليم :

[69] أما الموقف السـليم من الحق فهو : الاسـتجابة له عمليا ، وهي التقوى ، واحترام الحق الـذي نبأ به الله ، وحينئذ يكون خط المتقي سليما في اتجاهه العـام بـالرغم من بعض الانحرافـات البسـيطة ، أو بعض الاخطـاء التكتيكية ، ومع سـلامة الخط العـام لا يحاسب الشـخص بشيء من اخطأ البسيطة.

(**وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**)

وهـدف الـوحي من هـؤلاء هو إيصـالهم الى مسـتوى التقوى ، وابقاؤهم على هـذا المسـتوى ، وذلك عن طريق تذكرهم المستمر حتى لا يغلبهم نعاس النسيان ، أو سـكر الغفلة.

(**وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70) قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ

---

70 [تبسل] : يقال أبسلته بجريرته أي أسلمته بها ، والمستبسل المستسلم الذي يعلم أنه لا يقدر على التخلص ، وهذا بسل عليك أي حرام عليك ، ولتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم والمرتهن بسل اي حرم الثواب ، والفرق بين الحرام والبسل أن الحرام عام فيما كان ممنوعا منه بالحكم والقهر ، والبسل هو الممنوع منه بالقهر.

هُـوَ الْهُـدى وَأُمِرْنا لِنُسْـلِمَ لِـرَبِّ الْعـالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ وَيَـوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَـقُّ وَلَـهُ الْمُلْـكُ يَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

---

71 [استهوته] : حملته على اتباع الهوى.
[حيران] : المتردد في امر لا يهتدي الى الخروج منه.

أسباب حيرة المبلسين

هدى من الآيات :

فيما مضى سبق القول في ان وجود الآيات في الكون وظهورها لا يكفي لهداية البشر ، إذ لا بد أن يكون جهاز الإدراك عنده سليما فمثلا لو اتخذ الفرد دينه لعبا ولهوا فكم تستطيع الآيات ان تكون نافعة له .. لا شيء ، هؤلاء هم الذين أبسلت أنفسهم ، بما كسبت من سيئات ، وحجبت الشهوات نور عقولهم ، فلا تنفعهم الموعظة بل يجب تركهم الى حين بلوغهم جزائهم عند الله. حيث يعذبون بشراب من حميم ، وعذاب أليم. جزاء ما طعموا من الشهوات الحرام ، وبما كفروا بالرسالة.

وقد يبلغ حال الواحد منهم وضعا مزريا حيث يتخذ من دون الله أربابا ـ هم أصحاب المال والزينة ـ ويترك هدى الله ، ويكون مثله كمن اخترق الصحراء مع أصحابه ، ولكنه ابتلي بالشياطين ، وفقد وعيه ، وأخذ يدور من دون فهم ويتبع الشياطين ويترك الصراط المستقيم ، والتسليم لله رب العالمين.

بينات من الآيات :

موقفنا منهم :

[70] اننا كبشر نشــعر بفطرتنا النقيــة. أن الطعــام والجنس والراحة كلها وســائل للإبقــاء على الحيــاة ، أما هدف الحيـاة فهو شـيء آخر ، قد نختلف في تحديـده تبعا لاختلاف ثقافتنا ، ولكننا نكـاد لا نختلف في أصــله ، بيد أن هنـاك من يتخذ دينه وهدفه الشـهوات ، ويـزعم أن اللـذة هي الهدف الأساسي من الحياة ، أما الدين الحق فيتخـذه لعبا يفسره كيف تشاء شهواته ، ولهوا يتسـلى بطقوسه ، أو بالحديث حوله ، أما إذا جدّ الجدّ فأنه يتـبرأ من الـدين ، وموقف المؤمن من هؤلاء هو المقاطعة.

(**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَهُمْ لَعِبـاً وَلَهْـواً وَغَـرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**)

وإنما يهبط البشر الى هـذا الحضـيض بسـبب تورطه في الشـهوات ، وتعـوده على اللـذات والراحة والكسل ، حيث أبسلت نفسه.

والخلاص الوحيد من ظلمــــات الجهل والعــــادة هو التذكر المستمر الذي هو بمثابة حزمة نور ، تخرق حجـاب العادة الى القلب.

(**وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ**)

أما إذا أبسلت النفس فأن الله سبحانه سوف يلعنها ، ولا يقبل منها شفيعا ، وليس لها ولي من دونه.

(**لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللـــهِ وَلِيٌّ وَلا شَــفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها**)

ان العدل لا يقبل من هذه النفس التي أبسلت ، وهذا هو مصير الذين أحاطت بهم ذنوبهم التي اكتسبوها.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا**)

مصـيرهم في الـدنيا ظلمـات في قلـوبهم ، أما في الآخرة ف :

(**لَهُمْ شَـرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَـذابٌ أَلِيمٌ بِما كـانُوا يَكْفُرُونَ**)

بآيات الله ، ويتخذونها لعبا ولهوا. إذ أنّ الذنوب سـبب ظلمـات القلب ، وهي سـبب الكفر ، والكفر يـؤدي الى النار.

[71] وهناك فئة ضـالة قد اتخـذت أربابا من دون الله ، والتزمت بطقوس لم ينزل الله بها سلطانا ، وربما تكون هذه الفئة هي امتداد نوعي للفئة الاولى ، إذ حين يكتسب الفـرد السـيئات ، ويحتجب عنه نـور العقل تتحـول فطـرة التدين عند هذا الشـخص الى الأربـاب الـتي تعبد من دون الله ، فيزعم صاحبها أن تلك الأربـاب هي تطـبيق لفطـرة الايمان التي يشعر بها ، وربما لذلك ذكر القرآن هذه الفئة بعد تلك الفئة قائلا :

(**قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا**)

لماذا يعبد البشر شـيئا لا يضر ولا ينفع ما دام لا يمثل الحق ، ولماذا يتقيد به إذا ، ويخضع له؟!

وما هي المنفعة من وراء ذلـك؟! انه ليس الارادة في مسيرة البشر ، ومسخ لطبيعته الحرة الكريمة.

(**وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللهُ**)

وهداية الله تتمثل :

أولا : في الهداية الفطرية.

ثانيا : في هداية الرسل.

وكثيرا من النّاس ينحرفـون بعد الهداية الفطرية ، أما بعد الهداية الرسالية فان الانحـراف ضـلالة كـبري يشـبهها القــرآن الحكيم بالــذي يســير في الصــحراء ، ثم يضل السـبيل بسـبب تضـليل الشـياطين له ، حيث يدلّون على الطرق المنحرفة ، وفي هذا الوقت يجد الرجل من يدعوه الى الهدى ، متمثلا في أصحابه الذين يدعونه الى السـبيل القــويم الــذي يســيرون فيه ، فانه لو لم يقبل نصــيحة أصــحابه فســوف لا تكــون لديه أية حجة في البقــاء في الضـلالة ، إذ أن أصـحابه قد أتمـوا عليه الحجة ووفـروا له فرصة الخلاص من استهواء الشياطين.

(**كَالَّذِي اسْـتَهْوَتْهُ الشَّـياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْـرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا**)

هــذا الرجل يشــبه الإنســان في تيه الحيــاة ، وقد أحاطت به شياطين الشهوات ، وأضلوه عن سواء السبيل ، وحجبوا فطرته النقية بركـام من الخرافـات الباطلة ، ثم جــاءه هــدى الله مســاعدا لفطرته ، موضــحا له ســبيل الهداية.

(**قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى**)

وعلينا ان نتبع سبيل الله ، ونسلم له الذي أسلمت له السموات والأرض.

(**وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

الصلاة معراج المؤمن :

[72] ولكي نتبعه ، ونخضع له ونسلم ، فعلينا ان نقيم الصلاة نصـليها بخضـوع وخشـوع ، ونـديم عليها مع العمل بضروراتها ، في حياتنا الاجتماعية ، ومن ضروراتها

التقــوى إذ ان الصــلاة معــراج المــؤمن وهي تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، ومن شـروط إقامتها الانتهـاء فعلا عن الفحشاء والمنكر ، كما أن الخوف من الآخـرة حين يحشر الفرد الى ربه واحدة من فوائد الصلاة المهمة.

(**وَأَنْ أَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَاتَّقُـوهُ وَهُـوَ الَّذِي إِلَيْـهِ تُحْشَرُونَ**)

ارادة الله بين الكاف والنون :

[73] والله الـذي يجب التسـليم له ، هو الـذي يمثل الحق ، والحق يعني ان هناك واقعيات قائمة خارج الفكر ، وأنها تدار بأنظمة ثابتة ، وأن على الإنسان أن يسـعى من أجل توفيق نفسه ، وتطـبيق أعماله على أسـاس الحق ، ولكن دون أن يـزعم أن هـذه الانظمة هي آلهة ، فيعبـدها كما يعبد الغرب اليـوم أنظمة الحيـاة القائمة .. كلا .. عليه أن يعرف : أن فـوق الحق إرادة الله الـتي تخلق ما تشـاء بكلمة واحـده هي (كن) فليعبد الله الـذي له ملك الحيـاة الآن ومستقبلا ، وهو الذي يجـازي النـاس على أعمـالهم ، وهو العـالم بـالغيب (المسـتقبل والماضـي) والعـالم بالشـهادة ، فعلمه بالحقـائق القائمة ، علم شـامل مـاذا كانت سابقا ، وماذا تكون عليه مستقبلا.

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَـوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ**)

لأنه بقوله هـذا خلق الأشـياء ، وأجـرى فيها الأنظمة ، وبقوله تطمئن الحياة ، وتستمر وفق الأنظمة.

(**وَلَـهُ الْمُلْـكُ يَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ عـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**)

فمن أولى به معبودا نسلم له الأمور.؟

وَإِذْ قالَ إِبْـراهِيمُ لِأَبِيـهِ آزَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْـناماً آلِهَـةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَــكَ فِي ضَــلالٍ مُبِينٍ (74) وَكَــذلِكَ نُــرِي إِبْــراهِيمَ مَلَكُــوتَ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُــونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قـالَ هـذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قـالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هـذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لَأَكُـونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّــالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّـمْسَ بازِغَـةً قـالَ هـذا رَبِّي هـذا أَكْبَـرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قـالَ يا قَـوْمِ إِنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَـــرَ السَّــــماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

---

76 [أفل] : غاب.
[بازغا] : البزوغ الطلوع ، يقال بزغت الشمس إذا طلعت.

الشك المنهجي طريق الى اليقين

هدى من الآيات :

كيف يتدرج الإنسان في مراحل الايمان؟

يبدأ الإنسـان رحلته الايمانية ابتـداء من نقطة الشك ، وعـدم الثقة المطلقة بما يتخيله هـذا أو ذاك من أفكـار أو أهواء.

والشك يرفع عن بصـــيرة الفـــرد حجـــاب الأفكـــار المسـبقة ، ويحـرك فكـره ويضـيء عقله ، فـيرى بذاته ما وراء السـموات والأرض من علم وقـدرة وحكمة ، وبـذلك يهتدي بأذن الله الى الحق فيصبح موفقا.

العقل يهدي الفرد الى أنّ الإله لن يكون متغيرا ، وأنه فوق القـوى ، وأن لا سـلطان على سـلطانه ، وحين يـرى الفـرد الكـواكب والقمر والشـمس كل يأفل عند ما يصل وقت أفوله يتيقن أن كل أولئك ليسوا بآلهة.

ومن خلال التطلع الى الظواهر الكونية والايمـان بأنها لا تصلح أن تكون آلهة

عرف إبـراهيم حقـائق أخـرى منها : أن الـذي يهـديك الى الله هو الله ذاته ، وأن ما لا يصـلح أن يكـون إلها لا يصـلح أن يكـون نصف اله ، وأن يشـرك به شـيئا ، ولـذلك يجب رفض جميع الآلهة إلّا الله.

بينات من الآيات :

نعم للاحترام لا للعبودية :

[74] من دون تضـحية لا تبلغ الحقـائق ، والعلم كـأي مكسب آخر بحاجة الى جهد بل الى جهـــــــاد وتحد ، أن البشر معرض لأن تستعبده القوى الطاغوتية أو الطبيعية ، لذلك يبدأ البشر تحرره بالتحرر العقائدي ، وإبـراهيم كـأي شـــــخص آخر في مجتمع الجاهلية قد عـــــرّض لعبودية الطـاغوت ، ولكنه رفضـها وتحـداها ، ان الطـاغوت يصـنع جوا فكريا في المجتمع ، يؤيده ويبرر اخطاءه ، وهـذا الجو يضـغط على الإنسـان من خلال تعامله مع أقـرب النـاس اليه ، أي من والديه ومربيه الذين يغذونه بالأفكـار الباطلة ، ويدّعون أنهم محترمون ، ولذلك فـأن أفكـارهم يجب أن تحـــترم هي الاخـــرى ، وإبـــراهيم كمثل أعلى للثـــوري الرسالي رفض هذه الأفكار ، وصرخ هاتفا الاحـترام للوالد نعم. اما للعبودية فلا ..

(**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً**)

لم يقل هـــذا الكلام الفضّ لأخيه الأصـــــغر منه ، أو لرفيقه أو لزميله ، كلا .. لأن الضـغط الـذي كـان يمارسه عليه المجتمع انما كان بسبب أبيه آزر.

وآزر لم يلد إبراهيم ، بل هو عمه الذي ربّاه ، فخاطبه إبراهيم بالأبوة ، وذكره القـرآن ليـذكّرنا بـأن الايمـان يبـدأ من رفض الخضـوع لاقـوى سـلطة اجتماعية على الفـرد ، وهي سـلطة المـربي والكفيل ، ثم أعقب إبـراهيم رفضه لأبيه برفضه لسلطة المجتمع الجاهلي وقال :

(**إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

ان الخوف من المجتمع لا يدعك تفهم الحقائق ، لأنك آنئذ لا تشكّك نفسك بتلك الأفكار الباطلة ، فتستمر عليها ، ولذلك تجد الناس عادة يؤمنون بأفكار مجتمعهم ، حتى قيل : بأن المجتمع صنم الفرد ، حتى أن بعضهم آمن بالحتمية الاجتماعية ، لذلك فعليك ان تتشبع بالثقة بذاتك حتى تتحدى الناس جميعا.

كيف نحصل على اليقين؟

[75] حين تخلص إبراهيم من ضغط مجتمعة أراه الله ملكوت السموات والأرض المتمثلة في فهم تلك القوة التي تملكها وتدبرها.

(**وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**)

اي ليخرج من الشك الي اليقين. ان الذي أوتي قدرة الشك قادر على أن يصل بأذن الله الى ذروة اليقين ، والشك لا يختص بالمجتمع ، أو بالمربي ، بل وأيضا بالأفكار السابقة والخاطئة التي يزعم الفرد انها صحيحة في بعض مراحل حياته ، كما نرى إبراهيم عليه السلام كانت له الشجاعة الكافية برفض أفكار مجتمعة السابقة كما نرى لاحقا.

[76] حين يهيمن الظلام على الكون يبحث الفرد عن أي نور ، فيرى الكوكب فيزعم أنه اله لأنه أنقذه من ظلام دامس ، وهذه العقيدة العاجلة قد تكون نتيجة هيبة الظلام ، والخشية منه.

(**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي**)

وقد يكون هذا رمزا لحالة الشك ، التي تزعج البشر ، فيبحث عن مخلص له منه ،

فيتعجل بقبـــول أي ومضة نـــور تخلّصه من حالة الشك ، فاذا به يعتقد بأول فرضيه تطرء على ذهنه أو تـبرق أمـام عينه ، ولكن وجود الفرضيات الباطلة عند الفرد ليس عيبا ، انما العيب هو أن يســتمر عليها بعد أن تثبت عنـــده أنها باطلة ، وإبراهيم عليه السلام كانت له هـذه الشـجاعة أن يكفر بأفكاره السابقة.

الفطرة هي الدليل :

ان الفرضـيات الباطلة قد يكـون بطلانها واضح بدرجة أن ردها لا يحتـــاج الى دليل ، بل يكفي أن تراجع فطرتك لتوضح لك بطلانها ، لـذلك قـال إبـراهيم عليه السـلام بعد أن افل الكوكب أني لا أحبه.

(**فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**)

الحب هو الفطرة النقية قبل أن يصبح فكرة مسـتدلة متكاملة ، وحين تكـــــون علاقة البشر بربه علاقة الحب ، حيث يحبّ البشر ربه بصورة طبيعيـة. ما دام ربه سـبحانه قد أغذق عليه نعمة ظاهرة وباطنة فيكون عدم وجود هـذا الحب بالنسبة الى الكوكب دليلا على أنه ليس بآلهة حتما! لان الله ينعم على البشر ليلا نهـــارا ، أما الكـــوكب فانه يأفل نهارا.

ومن المعلـــوم ان بعض النـــاس لا يزالـــون يعبـــدون النجوم ، ويزعمون انها ذات أثر فعال في مصير الإنسان ، وقد كان عمل إبراهيم ردا صارخا لمثل هؤلاء الذين كــانوا موجودين آنئذ.

[77] وانتظر إبـراهيم على مضض من شـكه ، وتـوتر من قلبه ، ثم انتظر هـذه المـرة فـترة أطـول حـتى بـزغ القمر ، وأعجبه ذلك النـــور الهــادىء الــذي ينســاب على الطبيعة بعفوية وسخاء. فقال : هذا ربي.

(**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي**)

وربما كـان بـزوغ القمر هو السـبب في عـدم رفضه للقمر ، وقد يكـون تعلق إبـراهيم ظـاهرا بـالقمر رمـزا للفرضـية الباطلة الـتي هي ليست إلّا مجـرد ضـغط حالة الشك ، وعذاب الفراغ الفكري.

(**فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لَأَكُـونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**)

بعد فشـله الثـاني في فهم الحقيقة قلّل إبـراهيم (ع) من ثقته المطلقة بفكره ، وتوكل على الله ، ذلك أن هـذه الثقة مفيدة في مرحلة الشك ، ورفض الأفكـار الـتي يريد الآخـرون فرضـها عليـه. أما بعدئذ فقد يكـون لها مـردود سلبي.

بك عرفتك :

اما كيف أدرك إبـراهيم عليه السـلام أن القـوة الـتي يجب انتظـار دعمها للإنسـان وهو يبحث عن الحقيقة هي قوة الله ، وهذه قضية هامة؟

ان فطـرة الإنسـان تهديه الى وجـود سـنن ونظم في هـذا الكـون المهيب ، وأن الطبيعة تسـير وفق نظـام. الشمس والقمر والنجوم كلها تسير وفق خطة مرسـومة. من الذي يهدي الشمس الى مسـيرتها ، والقمر الى فلكه ، والنجـوم الى مراسـيها؟ انه اللـه. انه خالقها ، إذا فعلينا نحن أيضا ان نبحث عن الهـدى هنالك عند الله ، لا سـيما في موضـوع الإلـه. إذ قد يكـون (وهـذا واقع فعلا) البشر عاجزا عن معرفة ربه ، ولكن ربه سبحانه ليس بعاجز عن تعريف ذاته له.

ومن جهة اخرى : حين تكرر تجربة الإنسـان الفاشـلة في الوصول الى الحقيقة ، تعتريه حالة اليأس ويقول : أنا أقل من أن أعرف الحقيقة ، فلما ذا البحث؟!

وهـذا اليـأس هو أخطر عـدو للبحث ، وهو وراء أكـثر من نصف الجهل الموجود لدى النـاس ، واليـأس لا يـزول الا بالتوكل على الله ، لذلك قـال إبـراهيم (ع) وهو يعـاني من صدمة الفشل :

(**لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**)

[78] إذا كـان جمـال القمر قد دفع إبـراهيم (ع) الى اتخاذه إلها مؤقتا فأن كبر الشمس وضـخامتها ، بالاضـافة الى جمالها دفعه هذه المرة الى مثل ذلك.

(**فَلَمَّا رَأَى الشَّـمْسَ بازِغَـةً قـالَ هـذا رَبِّي هـذا أَكْبَرُ**)

وكانت صدمة الفشل الهائلة والمتكــررة حيث اختفت الشمس العملاقة وراء الأفق. هذه الصدمة نقلت إبـراهيم من واد لواد آخر ، من وادي مجتمعة الى رحاب الحقيقة.

(**فَلَمَّا أَفَلَتْ قـــالَ يا قَـــوْمِ إِنِّي بَـــرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**)

فتجعلـون الشـمس وهي خلق مما خلق الله شـريكة لرب العالمين ، بينما شريك الألوهية يجب أن يكون قـادرا حـرا مريـدا ما يشـاء ، والشـمس مسـخرة بـأمر ربها ، لا تستطيع ان تخالف امر الله في الطلوع والغروب.

التسليم المطلق .. المرحلة الاخيرة :

[79] ترك إبراهيم (ع) الخلق واستقبل بوجهه الخالق ، ترك الطبيعة الى مسخرها ومدبر أمرها ، وقال :

(**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ**)

اي اتخذت الله طريقا ، ومرضاته هدفا.

(**لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ**)

خلقها وحدد مسارها ، ورسم حـدودها ، وأظهر بـذلك هيمنته التامة عليها.

وحين عبد إبــراهيم ربه كفر بكل الشــركاء ، ورفض الأنداد جميعا وكان : ـ

(**حَنِيفاً**)

مــائلا عما اعتمــده النــاس متمــردا على عــاداتهم وتقاليـدهم ، وسلّم أمـوره جميعا الى الله رافضا الانتمـاء الى المجتمع الكافر وقال : ـ

(**وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَـدانِ وَلا
أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِـهِ إِلاَّ أَنْ يَشـاءَ رَبِّي شَـيْئاً وَسِـعَ
رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخافُ
ما أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْـرَكْتُمْ بِاللـهِ ما لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِـالْأَمْنِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (81) الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا
إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ (82)
وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجـاتٍ
مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

هكذا يتحدى الايمان الخالص

هدى من الآيات :

بعد المعانــاة الشخصــية ، وبعد الشك الــبريء الــذي انتهى بــإبراهيم عليه السّــلام الى الاهتــداء الى ربه بــدء الصـراع بينه وبين قومه حيث حـذروه مغبة الكفر بالآلهة ، فـــردهم ببســـاطة : إن الخـــوف انما هو من الله ، لا من القوى المخلوقة له سـبحانه. إذ أن تلك القـوى تقع ضـمن دائرة إذن الله وعلمه ، وأمرهم بأن يعـودوا الى فطـرتهم ليتـذكروا الحقيقة ، وبيّن لهم أنّ حـذرهم واحتيـاطهم من الآلهة لا معـــنى لـــه. إذ لو لم يـــنزل الله حجة واضـــحة بالســـماح بطاعة أحد ، فانه ســيعاقب من يطيع غـــيره ، وعقابه أشد وأبقى مما يخافه الإنســـــان على نفسه من ضرر الآلهة ، إذا الحذر من الآلهة يقابل بحذر أكبر من الله لو قبلنا بها من دون اذنه.

وانما الأمن لمن أرضى ربه ولم يخلط ايمانه بشرك ، لأن هذا الشخص قد اهتـدى الى الطريق السـليم ، بيد أن فهم هذه الحقيقة ليس في وسع البشر. إنما الله سـبحانه هو الذي يهدي إليها من يشاء لـيرفع درجته ، وهو الـذي لا يفعل ذلك الا حسب علمه

بالفرد ، وحكمته البالغة بأنّه يصلح للهداية ويستحقها.

بينات من الآيات :

مسئولية الهداية :

[80] بعد رحلة الايمان ، تبدء رحلة الرسـالة. إذ فـور ما يتنور قلبك بنور الايمان.

تجد نفسك أمام مسئولية هي تنوير قلـوب الآخـرين ، ولا يمكنك الا أن تفعل ذلــك. إذ أن الــدنيا صــراع فلو لم تذهب الى الناس لهدايتهم جاءوا إليك لاضـلالك ، وبالتـالي سوف يبدأ الصراع ، من هنا قال ربنا عن إبـراهيم (ع) بعد ان وحد الله ونزهه عن الشرك به.

(**وَحاجَّهُ قَوْمُهُ**)

يبدو أنهم قالوا له :

أولا : اين الله؟ وكيف آمنت به؟ وبأي دليل؟ وبالتـالي أخذوا يشككونه في ربه ، فأجابهم ببساطة :

أنتم لا تعرفون الله. أليس كذلك؟ أما انا فأعرف الله لأنه قد هداني إليه ، ومن لا يعرف لا يستطيع ان يحاج من يعرف ، لأنه هو الجاهل ، وهذا عالم ، وهو الضـال ، وهـذا المهتدي.

ثانيا : قالوا له : لماذا تشرك بالالهة هـذه وهي قوية ، وقد تضــربك ، انك تكفر بــالقوى الاجتماعية الــتي يمثلها الطـاغوت ، وبـالقوى الثقافية الـتي تمثلها قيم المجتمع ، وكهنة المعابد ، وبـــــالقوى الاقتصـــــادية الـــــتي تمثلها الرأسمالية والاقطاع ، وآلهة البركة .. و.. و.. ، أفلا تخشى هذه القوى؟!

فأجابهم إبراهيم عليه السّلام : كلا .. أنا لا أخـاف كل أولئك ، لأن مشـــيئة الله هي الحاكمة عليها ، صـــحيح أن الطاغوت قد يؤذيني ، ولكن أذى الطاغوت انما هو ضـمن دائرة ارادة الله واذنه ، فلو لم يرد شـيئا لا يمكن ان يقع ، والله محيط علمه بـالجبت والطـاغوت ومن في فلكهما ، فهم أضعف من الله ، وأضاف إبـراهيم قـائلا : عـودوا الى فطـــرتكم النقية وتــذكروا ان الله أقــوى من خلقه ، وأن علينا أن نخشاه ولا نخشى خلقه.

(**قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِـهِ إِلَّا أَنْ يَشـاءَ رَبِّي شَـيْئاً وَسِـعَ رَبِّي كُـلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**)

[81] للآلهة رمـــوز وان ما يخافه البشر هو القـــوى الطبيعية أو الاجتماعية الـتي ترمز إليها الآلهة ، والخضـوع لهـذه الآلهة انما هو رمز الخضـوع لتلك القـوى ، ولا يمكن أن يتحـرر البشر من هـذا الخـوف الا بخـوف أقـوى ، وهو الخوف من رب القوى الموجودة في الكـون ، لـذلك حـذّر إبراهيم قومه من غضب الله ، وقال :

(**وَكَيْـفَ أَخـافُ ما أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً**)

وربما يتصـور البعض منا أن الله رحيم بعبـاده ، إذا لا خـــوف منه ، أما الطبيعة فهي؟؟؟ فعلينا الخضـــوع لها لنتجنب ضررها ، هذه الفكرة هي التي دفعت بعض الناس لعبادة الشيطان حيث قـالوا : ان الله رحيم بنا لأن طبيعته الخير ، أما الشيطان فان طبيعته الشر فعلينا عبادته.

ولكن إبـــراهيم بيّن ان الله لا يرضى بطاعة أحد من دون أن يـأذن هو بـذلك ، ولن يـأذن والا فهو يـنزل غضـبه ولعنته على البشر ، وانه لو أرادت الآلهة أو الـــــــذين يطـاعون من دون الله الفتك بالنـاس والتجأ النـاس الى الله ـ رب الآلهة والناس ـ لتخلصوا

من شرورهم ، إذا فالأمن الحقيقي لمن يخشى الله.
(**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

مضار الشرك :

[82] وعاد إبراهيم وأضاف دليلا جديـدا على ضـرورة التوحيد الخـالص وهو : ان الشـرك ظلم ، بينما الخضـوع لله هو العدل ، وأن للظلم ضررين :

الاول : الابتعاد عن الأمن.

الثاني : الابتعاد عن الهدى بينما المؤمن الموحد يملك الأمن والهدى.

(**الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**)

دعنا نتصـور : مجتمعا يسـوده الطـاغوت ، ويخشى الطبيعة ، ويقدم قرابينه لإله البحر وإله الحرب وإله الربيع ، كما كـان يفعل أهل مصر ، ومجتمعا تسـوده حكومة عادلة ، ويتحدى الطبيعة ويقهرهـا. أيهما سـيكون المجتمع الآمن؟ هل الظلم الطـاغوتي والخضـوع للطبيعة يـوفر الأمن ، أم العدالة والحضـارة (قهر الطبيعة وتسـخيرها)؟! ثم ان التحرر من خوف الطـاغوت وخـوف الطبيعة يجعلنا نفكر بحريتنا ، نبحث عن الحقيقة بكل أمـان ، ولا نخشى من الحقيقة ، ولا تسـودنا دعاية الطـاغوت ، ومخـاوف الطبيعة لنقتحم كلّ أسوار الطبيعة ، لنكتشفها ونسخرها ، وآنئذ نحصل على الهدايـة. ان بداية كل علم هو الشـعور بالأمن. لذلك جاء الهدى بعد الأمن في الآية الكريمة.

[83] لقد حـاج إبـراهيم قومه فانتصر عليهم ، والسؤال هو من آتاه هذه الحجة؟ انه الله ، إذ أن إبـراهيم عليه السّـلام كشـخص يعيش ضـمن حـدود المجتمع ، وتقهره

الطبيعة لا بد ان يتقــول حسب أفكــارِ المجتمع وحتميــات الطبيعة ، إلا أن الله سبحانه يرسل رسـالته على الإنسـان لكي ينقذه من الحتميات الاجتماعية والطبيعية التي تحيط به.

(**وَتِلْـكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْـراهِيمَ عَلى قَوْمِـهِ نَرْفَـعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**)

ولحكمته ولعلمه لا يرفع كل شـــــــــخص الى رفيع الــدرجات عبثا ، انما يرفع من يكــون مــؤهلا لــذلك بجــده واجتهاده ، وبحثه عن الحقيقة ، وعدم خوفه من الحتميات الباطلة.

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُـوبَ كُلاًّ هَـدَيْنا وَنُوحـاً هَـدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُـلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُـفَ وَمُوسى وَهـارُونَ وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّـالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطـاً وَكلاًّ فَضَّـلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنـاهُمْ وَهَـدَيْناهُمْ إِلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (87) ذلِكَ هُـدَى اللـهِ يَهْـدِي بِـهِ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبـادِهِ وَلَـوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88)

خط إبراهيم (ع)

في سلسلة الأنبياء (ع)

هدى من الآيات :

تلك الرسـالة الـتي أهبطها الله على قلب إبـراهيم (ع) ، بعد ان وجـده أهلا لها ، ثم بعد ان دخلت مرحلة الصـراع المرير ، أصـبحت اليـوم تيـارا يهـدى به الله ، مجموعة من الأنبياء العظام ، وقبلهم جميعا نوح (ع) حيث هداه الله ، وداود وسليمان و.. و..

ولم يكن هؤلاء وحـدهم في السـاحة ، لقد كـان معهم الآبـاء والذرية والأخـوة الـذين اجتبـاهم الله على علم منه بهم ، نظرا لصلاحيتهم للعمل الرسالي.

وإذا كان هؤلاء على صـراط مسـتقيم فانما بـإذن الله وبهداه ، ولم يكن باستطاعتهم الوصول الى هذا المستوى من دون التوحيد الخـالص ، إذ أنهم لو أشـركوا لأحبط الله أعمالهم.

بينات من الآيات :

انتصار إبراهيم :

[84] مـاذا كـان عاقبة الصـراع بين إبـراهيم وقومه الذين أبطل إبراهيم حجتهم.

ان العاقبة كانت انتصارا ساحقا لإبراهيم حيث أن الله أمدّ إبراهيم بأبناء وذرية وأنصار.

(**وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا**)

حيث كوّن إسحاق ويعقوب ـ بني إسرائيل ـ تلك الامة المؤمنة الصبورة.

(**وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ**)

فلم يكن اهتداء إبـراهيم بـدعا جديـدا ، بل كـان سـنة قائمة منذ مدة طويلة.

(**وَمِنْ ذُرِّيَّتِــهِ داوُدَ وَسُــلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُــفَ وَمُوسى وَهارُونَ**)

هـذه الأسـماء الـتي تحـولت في تـاريخ البشـرية الى رمــوز لكل قيم الخــير ، ان نقطة البداية عنــدهم كــانت الهداية الى الله ، والهداية بدورها جاءت نتيجة إحسـانهم ، وفعلهم الخير.

(**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)

ونحن بــدورنا لو فعلنا الخــير لهــدانا الله ، ولأصــبحنا بأذنه رموزا لقيم الخير في التاريخ.

خط إبراهيم (ع) :

[85] وهناك رموز اخرى اتبعت ذات الطريقة القويمة والمنهج السـليم ، وكـانت النتيجة أنهم أصـبحوا صـالحين. أفكـارهم سـليمة ، وأخلاقهم قويمة ، وأعمـالهم خيّـرة ، وأهــدافهم نبيلة ، وبالتــالي كلما يــراه الضــمير الســليم للإنسان ، أنه صلاح يتمثل فيهم.

(**وَزَكَرِيَّا وَيَحْـــيى وَعِيسى وَإِلْيـــاسَ كُـــلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

[86] واخــرين اتبعـوهم على الهـدى ـــ وفضـلهم الله على الناس لهذا السبب ـ.

(**وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطـاً وَكلًّا فَضَّـلْنا عَلَى الْعالَمِينَ**)

بعلمهم وجهادهم.

ان هذه الأسماء اللامعة في سـماء الانسـانية معروفة لمن يتلو آيـات القـرآن ، حيث ذكرها الله أكـثر من مـرة ، وفصّـل كثـيرا من قصص حيـاتهم ، وعـبر تـاريخهم ، وانما فعل ذلك ليصـــبحوا قـــدوات للبشر ، وليقـــول لهم : أيها الناس إن هؤلاء كانوا بشرا مثلكم ولكنهم أحسنوا فهداهم الله ، وأصبحوا ثناء على كل لسان ، ومثلا لكل فضيلة أفلا تقتدوا بهم وتتبعوا منهجهم؟!

ويلاحظ المتدبر في نهايات هذه الآيات الثلاث ان الله سـبحانه ذكر صـفات ثلاث لهـؤلاء الصـفوة (الإحسـان ، والإصـــلاح ، والتفضـــيل) ويبـــدو أنها صـــفات متدرجة ، فالاحسـان هو العطـاء ، والخـروج عن سـجن الـذات ، وقوقعة الانانية الى رحـاب الحق ، وخدمة الآخــرين ، انه سـبب الهداية ، بل سـبب كل خـير ، اما الهداية فهي من الله سبحانه ، وبالاسلوب الذي ذكره ربنا سبحانه بالنسـبة الى إبراهيم ـ عليه السّلام ـ والصـفة الثانية هي الصـلاح ، وهي عاقبة الهداية ، وأثرها في حيــاة البشر ، حيث تجعل منه إنسـانا متكـاملا ، اما الصــفة الاخـيرة ، فهي نتيجة الهداية في الواقع الاجتمــاعي. حيث يصــبح البشر أفضل العالمين.

[87] لم تكن هذه الأسماء التي ذكرت سوى رمــوز ، ولن تكون هي الوحيـدة في هـذا الطريق بـالرغم من أنها كانت أبرزها ، لذلك يذكرنا القرآن ببقية الذين ساروا على ذات النهج.

(**وَمِنْ آبــائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْــوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنــاهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

قانون الهداية :

[88] (**ذلِـكَ هُـدَى اللـهِ يَهْـدِي بِـهِ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ**)

ولكن الهــدى لن يجتمع مع الشــرك ، إذ أن الشــرك بالله يعني سلب الالوهية من الله ، ونسبة الضعف والعجز اليه سبحانه ، وتحديد قدرته ومشيئته ، وكل هذه الصـفات بعيـدة عن صـفات الله ، وبالتـالي من يـؤمن بها لا بد أن يكفر بالله ، لأنه ليس بإله من هو خاضع لخلقه ، وغـــــير قادر على أن يقهر صـنما حجريا منحوتا ، أو صـنما بشـريا يتمثل في المجتمع الفاسد ، أو في طاغوت جبار.

(**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

من خـير وإحسـان وصـلاح لأن الصـلاة مثلا : تعـني الايمان بالله ، والايمان بالله يعني بدوره الكفر بالطـاغوت ، إذ أنه لا إله ذلك الذي لا يستطيع قهر الطاغوت ، ولذلك إذا خضع المصـلي للطـاغوت لم يكن لصـلاته اي معـنى ، فلذلك فهي تحبط حبطا.

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (90) وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

---

92 [أم القرى] : مكة.

أولئك هم قدوة المؤمنين

هدى من الآيات :

في الدرس السابق ذكر القرآن أسماء الأنبياء العظام ، وفي هذا الـدرس يـذكرنا بحقـائق عنهم : فهم يشـكلون خط الرسالة الذي لا انحراف فيه أبدا ، حتى وان انحرفت الخطـــوط الاخـــرى ، وقد حافظ الله على ســـلامته واستقامته ليكون قدوة للناس من دون ان يحملهم أجرا ، بل ليذكرهم بالحقيقة فقط.

وهنـاك من يشـكك في بعث الأنبيـاء ، وهم الـذين لم يعرفوا ربهم ، وماله من حكمة وقدرة ، وأنهم لم يشـكروا ربهم على تلك الرسـالات النـيرة الـتي أنزلها على البشر على يد موسى عليه السّلام.

ثم هـذا الكتـاب الـذي أنزله لكي يكـون منهجا للنمو والرشد والتكامل وهو في ذات الخط الرسالي المسـتقيم ، والهدف منه أن ينذر به أم القرى ومن حولها.

ومن يؤمن بالله واليوم الآخر لا بد أن يؤمن بالرسـالة ، إذ أن الرسالة هي نتيجة

الاعتقاد بهما.

بينات من الآيات :

فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ :

[89] تلك كـانت رسـالات الله بينها الله في الآيـات السابقة ، ورسله كانوا دعاة لتلك الرسالة.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**)

الكتـاب هو الرسـالة ، والحكم هو القضـاء والسـلطة باسم الرسـالة ، اما النبـوة فهي تحمل الرسـالة لـدعوة الناس إليها.

(**فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُـوا بِها بِكافِرِينَ**)

فلا خوف على الرسالة ــ ان تبقى غريبة ــ إذ سـوف يقيّض الله لها رجـالا يؤمنـون بها ، ويفـدونها بـأرواحهم ، وانما الخوف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بها.

وعلى امتـداد التـاريخ هنـاك رجـال يؤمنـون بخط الرسالة المستقيم دون أن يخالط ايمانهم شك أو وهن أو ارتداد.

[90] والله سبحانه يبارك هذا الخط السليم بهدف ان يكون قدوة في الهدى.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ**)

وهــذه الهداية انما هي للنــاس جميعا وهــؤلاء لا يتقاضون أجرا على تبليغها.

(**قُـلْ لا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرى لِلْعالَمِينَ**)

الايمان بالرسالات جوهر الايمان :

[91] الايمـــان بالله ، ومعرفته ســـبحانه هي النقطة المركزية للايمان بسائر الحقائق ومعرفتها ، وأنّ أبرز هذه الحقائق الايمان برسالات الله الــتي من ينكرها فانما ينكر الله أو لا يعرفه حق معرفته ، فالله الـذي خلق السـموات والأرض وكل شيء فيهما إنما خلقه بهدف وحكمة ، وخلق الإنسان ولم يتركه سدى ، بل بعث اليه رسلا يوضحون له درب السعادة ، فمن أراد السعادة اتبعهم ، ومن لم يـرد ، فمصيره النار وساءت سبيلا.

(**وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْـزَلَ اللـهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**)

ثم ان ابسط دليل على اي شـيء هو وجـوده العيـني الخارجي ، والله قد انـزل رسـالته على البشر متمثلة في كتاب موسى عليه السّـلام الـذي يسـتحيل عقلا أن يكـون من غير الله ، فاذا هو من الله.

(**قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِـهِ مُوسى نُـوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ**)

انه من الله بـدليل أنه نـور يسـتجلي العقل ، ويوقظ الضـمير ، وينبه الفطـرة البشـرية ، ولأنه نـور فهو كاشف للحقــائق ســواء تلك الــتي تمتّ الى الــدنيا أو الآخــرة ، والكتاب بالاضافة الى ذلك هدى للنـاس يهـدي به الله الى سواء السبيل في الآخـرة ، والهـدى أخص من النـور ، لأنه يهدي صاحبه حتى ولو لم يؤت نورا شاملا.

انّ الأنبياء والصـديقون والعلمـاء يؤيـدون بنـور العقل فيكشفون بأنفسهم الحقائق. أمّا الناس فأنهم قد لا يؤتون النور ولكن يهديهم الله الى الصراط المستقيم عن طريق توضـيح السـبل لهم كـالأعمى الـذي يأخذ بيـده البصـير ويقوده في مسيرته.

(**تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً**)

لأنكم خشـــيتم منه على مصـــالحكم والآن تنكـــرون البقية رأسا ، أو ليس في هــذا التنــاقض دليلا على بطلان كلامكم.

(**وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ**)

فجـاءت الأفكـار بعيـدة عن الجو الثقـافي الـذي كـان سائدا عليكم ، مما يدل على أنها كانت أفكارا غيبية.

وأخـيرا : ان جـدل هـؤلاء في رسـالة النـبي نـابع من مرض قلبي دفين ، لا ينفع معه اقامة الحجج ، لـذلك يجب أن يتركوا لشأنهم حتى يأتيهم جزاء أفعالهم.

(**قُلِ اللهُ**)

الله هو الحـــاكم بيـــني وبينكم ، والله هو الشـــاهد والشــــهيد عليكم ، والله هو الــــذي لو آمنا به حقّا لآمنّا بالرسالات ، ولأصلحنا عقد أنفسنا.

(**ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**)

اي يلعبــون فيما يخوضــون فيه ، ويناقشــون فيه من أفكار خاطئة وأهـواء. انهم لا يتبعـون العلم ، بل يتلاعبـون بالألفاظ والأهواء.

خصائص رسالتنا وأهدافها :

[92] الايمــان بالرســالات عموما ، ركن من أركــان الايمـــــان بالله ، الا أن ذلك لا يكفي. إذ يجب ان نـــؤمن بالرسالة الـتي تخص حياتنا بالـذات ، والرسـالة الاسـلامية هي تلك الرسالة التي لا بد ان نؤمن بها لعدة أسباب.

أولا : لأنها مباركة تحفز البشرية نحو التقدم والرقي ، والنمو والخير ، وهذا هو تطلع البشر الأسمى.

ثانيا : لأنها تتفق في أصولها مع سائر رسالات السماء ، مما يدل على وحدة المشكاة التي انبعثت منها.

ثالثا : لأنها جــاءت لتحقيق يقظة في عــالم يغط في سبات الجاهلية ، وذلك في شبه الجزيرة العربية.

رابعا : ان الهـــــدف من اعتناقها ليس هـــــدفا ماديا كالوصول الى السلطة أو الغنى ، بل هدف معنـوي بـدليل أن حملة الرســالة هم رجــال الله ، فهم يحــافظون على صلواتهم ، وعموما المؤمنون بهذه الرسالة هم المؤمنــون باليوم الآخر الذين لا يهدفون من ورائه الدنيا وزينتها.

(**وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ**)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْـهِ شَـيْءٌ وَمَنْ قـالَ سَـأُنْزِلُ مِثْـلَ ما أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَـراتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِـطُوا أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُـوا أَنْفُسَـكُمُ الْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْـرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْنـاكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَتَـرَكْتُمْ ما خَوَّلْنـاكُمْ وَراءَ ظُهُـــورِكُمْ وَما نَـــرى مَعَكُمْ شُـــفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُـرَكاءُ لَقَـدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَـلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

94 [ما خولناكم] : ما أعطيناكم من متاع الدنيا.

الافتراء على الله أشد الظلم

هدى من الآيات :

الظلم ظلمـــان ، فقد يغتصب الفـــرد حق صـــاحبه المادّي ، وهـذا الظلم قد ينتهي بالتوبة وأداء الحق ، ولكن قد يغتصب الفرد فكر النـاس ، ويضـلّهم ويضل نفسه عن الحق ، ويحرف مسيرة البشرية ، وهذا أكـبر خيانة وأخطر ضررا.

فإذا قال أحد : ان الله يقـول هـذا. كـذبا وافـتراء ، أو ادعى النبــوة وهو ليس بنــبي أو ادعى قدرته على إبــداع أفكار ، ومناهج مثيلة لأفكار ومنـاهج الرسـالات ، فانه آنئذ أظلم النـاس ، وجـزاؤه عـذاب الهـون الـذي يأتيه عند ما تهبط عليه ملائكة الغضب بكل عنف وخشـونة ، ينـتزعون منه نفسه ، لأنّه كـــذب على الله ، ولأنه اســـتكبر على الحق.

وإنما يعتمد الظالم على قدرته الجسدية أو المادية أو الاجتماعية ، ولكن حين تنـتزع الملائكة نفسه ، تتبخر هـذه القـدرات ، فالجسد خـائر القـوى ، والأمـوال والممتلكـات تنتظر الورثة ، أما الناس الذين زعم أنهم وراءه فهم غــير موجودين هنـاك ، أو غـير نـافعين له ، أما الأفكـار الباطلة التي اخترعها فقد أصبحت كالسراب الزائل.

بينات من الآيات :

الجريمة المنظمة :

[93] في عـــالم الجريمة الســـارق الوحيد عقوبته محــدودة ، بينما على العصــابة عقوبــات مشــددة ، لأن جريمتهم أخطر ، وأخطر من تلك السرقات الكبـيرة الـتي تتستر تحت قناع الايدلوجية الباطلة ، كسرقة الاقطـاعيين والمـــترفين من المحـــرومين ، أو ســـرقة الطـــواغيت والامبريالية من الشـعوب المستضـعفة ، وأكـثر ما عـانت البشرية في تاريخ الجريمة انما كانت بسـبب هـذا الطـراز من المجرمين.

أن هؤلاء يخترعون أولا أفكـارا باطلة تسـاعدهم على اسـتثمار الجمـاهير ، واسـتغلال بسـاطتهم ، ثم يبـدءون بامتصاص جهودهم الى أخر قطرة دم في عروقهم.

وكثيرا ما ينسـبون افكـارهم الى الله لإعطائها المزيد من الشـــرعية ، ولإتاحة الفرصة لأنفســـهم للمزيد من الابـتزاز ، وقد يسـتخدمون رجـال الـدين المـزيفين لهـذا الغرض البشع.

وأخطر من ذلك أنهم قد يـــدّعون النبـــوة ، وأن الله يوحي إليهم ، أو حتى يكـابرون على ربهم ، ويزعمـون أن خرافاتهم وضلالاتهم مثيلة لبصائر رسالات الله وهداها.

هذا الفريق أظلم الناس جميعا.

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً**)

ولعل هـذه الكلمة تشـمل كل من يـدعي كـذبا أنه قد فهم الحقيقة حتى ولو لم ينسب كلامه الى الله مباشـرة ، إذ أن مجـرد هـذا الادعـاء يجعل هـذا العمل مرتبطا بالله سبحانه.

(**أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ**)

عند ما تنتزع الروح :

اما جزاء هـؤلاء فيصـوره القـرآن الحكيم ، في لحظة مفارقة الـدنيا ، تلك الـتي من أجل متاعها الزائل تسـبب هــذا الفريق المجــرم في حرمــان الألــوف من البشر حقـــــوقهم ، أو حـــــتى في هلاكهم ، عند ما تهبط عليهم ملائكة العذاب وهم في أشد لحظـات الفـزع والاحتضـار ، حيث تغمرهم أمـواج المـوت موجة بعد أخـرى ، والملائكة واقفـون على رؤوسـهم ، وقد بسـطوا أيـديهم الغليظة ، وهم يقولـون بكل عنف : أخرجـوا أنفسـكم ، وينتظـرون انتزاعها لتعذيبها بعذاب الهون.

(**وَلَــوْ تَــرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَــراتِ الْمَــوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ**)

ان تصور هـذه اللحظـات الحاسـمة ينفع كل واحد منا في الّا نتورط في ظلم الآخرين.

(**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ**)

اما العذاب ف ..

(**بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِ**)

اما الهون والخزي والعار فانه جزاء الاستكبار.

(**وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**)

من لضعف الى الضعف :

[94] لمــاذا يســتكبر الإنســان عن الحق ، ويخــترع أفكارا باطلة ، وينشرها بين

الناس ، ويمنع الجماهير من نعمة الله؟ هل لأنه يريد جاها أو مالا أو قوة ، واين تـذهب أمواله وشـفعاؤه عند ما تأتيه ملائكة الموت؟!

(**وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

أنتم ضــعفاء ، بــدليل أن خلقكم الاول ، مبــنيّ على الضعف والانفـراد ، وانما بسـبب نعم الله عليكم الـتي لم تصـبح جــزء من كيـانكم ، بل لم تصــبح ملككم أصــبحتم كذلك وأنتم تحسبون انكم أقوياء ، لقد خول الله لكم هذه النعم. أي أعطــاكم إذنا باســتخدامها في طــرق معينة ، وسوف تذهب عنكم حينما يشاء الله.

(**وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ**)

أما المجتمع الفاسد الـذي اعتمـدتم عليه في اخـتراع هـذه الأفكـار وترويجها ، اما الطبقة المترفة والمفسـدة ، كالرأسماليين الكبار ، ورجال الأمن الفاســدين ، فهم الآن غائبون عنكم ، فأين هم؟!

(**وَما نَــرى مَعَكُمْ شُــفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ**)

اي انفصلت القوى الرابطة بينكم وبينهم ، أما الأفكار الجامعة بينكم وبينهم كفكــرة الطبقة الحاكمة أو الحــزب الطليعي ، أو النخبة المثقفة ، هـــذه الخرافـــات الـــتي اخترعتموها لاســتثمار الجمــاهير قد تلاشت وغاصت في الرمال.

(**وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**)

من الشرك بالله واعتقادكم بأفكار باطلة.

إِنَّ اللـهَ فـالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللـهُ فَـأَنَّى تُؤْفَكُـونَ (95) فـالِقُ الْإِصْـباحِ وَجَعَـلَ اللَّيْـلَ سَـكَناً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُمـاتِ الْبَـرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّـلْنَا الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ (97) وَهُـوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِـدَةٍ فَمُسْـتَقَرٌّ وَمُسْـتَوْدَعٌ قَـدْ فَصَّـلْنَا الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَفْقَهُـونَ (98) وَهُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَأَخْرَجْنا بِـهِ نَبـاتَ كُـلِّ شَـيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ

---

98 [فمستقر] : مستقر في أرحام الأمهات.
[ومستودع] : في أصلاب الرجـال. وجـاء في الحـديث عن أبي عبد الله ان المسـتقر هو الثـابت من الايمـان والمسـتودع هو الايمـان العـواري الذي يبقى لفترة من الوقت ثم يزول.

النَّخْـلِ مِنْ طَلْعِها قِنْـوانٌ دانِيَـةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنـابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَـرِهِ إِذا أَثْمَـرَ وَيَنْعِـهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

الطريق الى معرفة الله

هدى من الآيات :

كيف يختـــار لنا الشـــيطان طريق الضـــلالة والافك والانحـــراف عن مســيرة التوحيد ، والله هو الــذي خلق الحب والنوى ، وهو الـذي يحـيي المـوتى ويميت الأحيـاء ، وهو الـذي يخـرج الإصـباح من رحم الظلام ، ويجعل الليل مأوى للأحيـاء حيث يسـكنون الى ظلامه وهدوئه ، وسـواء الصباح أو الليل ، فهما يجريان وفق نظام دقيق يـدل على علم المدّبر لهما وقدرته.

ومواضع النجـوم ، وحركتها المنظمة مـدبرتين بحكمة بالغة ، لا يكشـــفها الا أهل العلم والمعرفة ، ولا يعرفـــون مـــدى ما فيهما من حكمة ، فيتســـاءلون : إذا كنا نهتـــدي بـــالنجوم على الطريق في الليـــالي المظلمة ، فكيف لا نهتدي الى الله بآياته الباهرة؟

وإذا أمعن البشر النظر في طريقة تناسل الإنســـان ، وكيف انشأ الله كل البشر من نفس واحـــدة ، فمنهم من يستمر في البقاء ، ومنهم من يمـوت ، ومـال هـذا يمـوت وذلك يحـــيى؟! وإذا ما أوتينا الفقه عرفنا ما وراء المـــوت والحياة من حكم بالغة تدل

على حكمة ربنا وقدرته.

والله هو الـذي أنـزل المطر ، فـاذا به يتحـول بقـدرة الله الى شـتى أنـواع النباتـات ، من حقـول خضـراء الى جنان النخيل والأعناب والزيتـون والرمـان بعضـها متشـابه وبعضـها مختلف ، وحين ينظر المـرء الى سـاعة أثمارها ، ولحظة ينعها ينبهر بها ، وعموما فـــــان البشر بحاجة الى فطرة سليمة ، وغير معقدة ضد الايمان حتى يهتدي بهـذه الحقائق الى الرب الكريم.

ومن الملاحظ ان القرآن الحكيم قد قسم الآيات على أنـــواع : بعضـــها للعـــالمين ، وبعضـــها للفقهـــاء ، والبعض للمؤمـــنين ، للدلالة على تـــدرج المراحل ، الكمالية ففي البداية علينا ألا نكـون في إفك وضـلالة ، وتكـون القلـوب نظيفة من العقد والعقائد الباطلة ، ثم نحصل على العلم ، ثم نتعمق في العلم ، حـــــتى نحصل على غـــــور العلم ، وعمقه وهو الفقه ، وأخيرا ننظر الى الحياة نظرة بسيطة ، نابعة من الفطرة النقية ، حتى نصبح مؤمنين بأذن الله.

هذا الدرس يأتي حلقة من مسلسل الدروس الايمانية المباشرة ، بينما كـانت الـدروس السـابقة تمهد لمثل هـذا الدرس.

بينات من الآيات :

النشأة الاولى :

[95] الفلق هو : ان ينشـــــطر شـــــيء فينكشف عن شيء خفي ، والحب تكمن فيه المواد الحية ، ولكنها تبقى خفية حـتى تنفلق وتنشـطر ، فينكشف عن تلك المـواد ، ولكن هذه الحالة بحاجة الى من يدبرها حـتى ينفلق الحب بتنظيم ومتانة ورفق ، حتى تتم الـولادة سـليمة ، والله هو ذلك المدبر العزيز.

(**إِنَّ اللهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى**)

والكلمة تــــدل على طريقة النشـــأة ، وهي أن نمو المــواد الحية يســبب في انقشــاع الغلاف الظـاهر الــذي يخفي وراءه تلك المــواد ، فـاذا بنا نشـاهد الحيـاة ، بينما كـانت الحيــاة موجــودة ســابقا ، ولم تكن معدومة آنئذ ، ولكنها كانت مخزونة الى هذا الوقت.

وهذا النمو يتم بإضافة المواد الميتة الى المـادة الحية ، فتصـبح تلك المـواد الميتة ذات حيـاة بإضـافتها الى تلك المـادة الحية ، فـالحب فيه مـادة حيّة تسـتقي من الأملاح الميتة ، ومن النور الميت ومن الماء ، فتصبح حبة كبيرة ، فاذا انتهت دورة الحياة ، فان تلك المواد الميتة تــزال عن تلك المادة الحية. وربما يكون هذا المعنى قوله سبحانه :

(**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْـرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللهُ**)

أو يكــون معنــاه : ان الله يخــرج من ضــمير الأشــياء الميتة شــيئا حيا ، ومن رحم الأشـــياء الحية شـــيئا ميتا ، وبتعبـــير أخر يحـــول الحيّ الى ميت ، والميت الى حي ، سبحانه.

(**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**)

في أية ضـــلالة تـــتيهون ، وأي إفك يحمّل عليكم ، ويفرض عليكم.

أن الخلاص من الافك الــــــذي تفرضه على البشر أهواؤه ومجتمعة والشيطان الرجيم ، شـرط مسـبق لفهم الحقائق ببصيرة الفطرة النقية.

[96] والله ســبحانه هو الـــذي خلق النـــور ، وفلقه ونشره ، ونظم انتشاره. كما جعل الظلام في حدود معينة ولهدف محدد وهو السكون اليه والراحة.

(**فـالِقُ الْإِصْـباحِ وَجَعَـلَ اللَّيْـلَ سَـكَناً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً**)

جعلهما يســيران وفق نظــام ثــابت ومحســوب ، لا يحيدان عنه قيد أنملة.

(**ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**)

فبعلمه سبحانه وضع الخطة ، وبعزته أجراها.

بين العلم والهدى :

[97] مواقع النجــوم ، وما في الســماء من كــواكب ســيارة ، ونجــوم ثــوابت ، بــالرغم من دوران الشــمس والقمر ، انها من آيــات الله العظيمة ، اننا نهتــدي بها في ظلمات البر والبحر ، وهذا الاهتـداء يتم لعلمنا بثبـات هـذه المواقع ، وبأنها دليل على وجود ثبـات في سـنن الكـون ، وبالتــالي على أن للكــون أنظمة بالغة الدقة ، وأن هــذه الآيات وضعها الله ليهتدي البشر إليها وليستفيد منها ، أفلا تــدل هــذه الآيــات على الواحد القهــار؟! إذا كنا نهتــدي بالنجوم على السبل السـليمة في الحيـاة ، أفلا نهتـدي بها على من وضع هـــذه الســـنن ما دامت طريقة الاهتـــداء واحـــــدة ، وهي الانتقـــــال من العلامة الى ما ورائها من الحقيقة؟!

(**وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ النُّجُـومَ لِتَهْتَـدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

لأنه من دون العلم والمعرفة لا يمكننا بلـــــوغ معرفة الحقـــائق ، وفي هـــذه الآية جـــاء التأكيد على دور العلم خصوصا في معرفة الآيات المفصلة.

دورة المياه :

[99] التنـــوع في الحيـــاة دليل آخر على حكمة الله وعلمه وقدرته ، فبالرغم من وحـدة الهـدف العـام ، فانك تـرى كل شـيء في الحيـاة يحقق هـدفا معينا يتكامل مع سائر

الاهداف في وحـدة شـاملة لها جميعا ، واننا نجد الاهـداف كلها تتحقق بــذات الوســائل الواحــدة ، وذلك عن طريق احــداث تغــيرات بســيطة في طريقة تركيبة المــواد مع بعضها ، وفي كمية كل مـادة وما أشـبه ، فـالأرض تسـقى بمــاء الســماء ، فالمــاء هو المــاء ، والأرض هي الأرض ، ولكن النبــات يختلف لونه وطعمه وفائدته ، والهــدف من خلقه ، وكل نبتة أنشئت لهـدف محـدد يتكامل ، مع سـائر أنواع النباتات.

(**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً**)

تــرى كم هي حكمة رائعة ان يــنزل الله من الســماء مــاء ، والمــاء منبعه في الأرض ، وهو مــالح ، ولكن الله يحليه بالتبخير ، ثم يرفعه الى السماء ، ويضيف اليه هناك المــواد الضــرورية للــزرع ، بعضــها عن طريق احتكــاك السـحب ببعضـها مما يحـدث الرعد ، وبعضـها عن طريق امتزاج المـاء بـالهواء ، ثم حين تمطر السـماء يتـوزع هـذا المــاء في كل أرجــاء الأرض الســهل والجبل ، والمدينة والصحراء ليحقق اهدافا مختلفة.

أولا تهـدينا هـذه الآية الى ربنا القـدير ، ثم أنظر الى آثار الماء الذي يهبط من السماء.

(**فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ**)

كل شيء ينمو بهذا الماء. الزرع والضرع والحيوانات.

(**فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً**)

كالحنطة والشعير والـذرة وما أشـبه مما يـتراكم الى بعضــها لفائــدة المجتمع ، حــتى يكــاد البشر يعجز عن اسـتيعاب الفـائض منه ، فـاذا ببعض الـدول تحـرق المزيد منها ، وبعضها تلقيه في البحر.

(**وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ**)

تعطيك تمرها بسـهولة بالاضـافة الى روعة جمالها ، وسائر فوائدها.

(**وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنـابٍ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُشْـتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ**)

ولحظة ولادة الحيـاة لحظة رائعة ، لأنها أقـرب الى الفهم العميق لطبيعة الحياة ، ولما فيها من حكمة ونظـام ، ولما تحتـوي عليها من شـواهد عظيمة على طبيعتها المحـدودة المحكومة بما فوقها من ارادة وعلم وقـدرة. لذلك يأمرنا الله بالنظر الى هذه اللحظة.

(**انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**)

ان هذه العبر المنتشرة في الحياة بحاجة الى الايمان بها حـتى يعرفها ويسـتوعبها البشر إذ من دون الايمـان يقتصر نظر البشر الى الحيـاة ذاتها ، دون النظر الى ما ورائها من حكمة وغاية معقولة ، أو لما فيها من شـهادة على الرب الكريم.

(**إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

الامام علي (ع) المثل السامي للمؤمن الصـادق كـان يقول :

(ما رأيت شيئا الّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه)

وَجَعَلُـوا لِلَّهِ شُـرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُـوا لَـهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَـهُ وَلَـدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَـيْءٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيـلٌ (102) لا تُدْرِكُـهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصـارَ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِـيرُ (103)

---

100 [وخرقوا] : حكموا.

101 [بديع] : بمعنى المبدع ، والفرق بين الإبداع والاخـتراع أن الإبـداع فعل ما لم يسـبق الى مثله ، والاخــتراع فعل ما لم يوجد سـبب له ، ولذلك يقال البدعة لما خالف السنة لأنه احداث ما لم يسبق اليه.

أسماء الله الحسنى

هدى من الآيات :

إذا تدبّرنا في الآيات الكونية الـتي أشـار إليها القـرآن الحكيم في الدروس الماضـية ، نجد ان الله يعطينا معرفة بذاته ، ويأتي هـذا الـدرس ليـذكرنا ببعض الصـفات الالهية الــتي يعرفها المــؤمن بســبب معرفته بربه ، وكلما زادت معرفة الإنســان بالله زادت معرفته بصــفاته وأســمائه الحســنى ، ومن ثم معرفته بســائر المعــارف التوحيدية كالعدل والنبوة والامامة والمعاد وما إليها.

في البداية يذكرنا القرآن بان الله هو الذي خلق الجن ، ولكن الساذجين من البشر يزعمون بـأن الجن شـريك ، كما انهم قالوا «كذبا» ان لله بنين وبنات ، وهذا يدل على عــــدم علم بالحقيقة ، ولا معرفة بالله المتعــــالي عن الصفات السيئة.

هو الذي خلق الأشياء من العدم خلقا إبـداعيا دون أن تتولد منه الأشـياء ، حـتى يحتـاج الى آخر مكمّل له يتولد منهما معا ، كما البشر بحاجة الى صاحبة حتى يتولد منهما الطفل.

وأخـيرا فـان الله هو الـذي خلق كل شـيء ، وأحـاط بكل شيء علما ، وعلى البشر ان يخلص عبادته لله ، لأنه الرب ، ولأنه الوحيد ، ولأنه مهيمن على كل شـيء ، يـدبر أمر الخلق ، ويجري فيه السنن والانظمة فهو علينا وكيل.

بينات من الآيات :

حين يجهل المخلوق قدر خالقه؟!

[100] القــوى الغيبية الــتي يشــعر البشر بوجودها (بطريقة أو بأخرى) يجهل عادة طبيعتها ، ويزعم انها قوى منفصلة عن قدرة الله المهيمنة على الحياة ، أو حـتى أنها آلهة وشريكة للاله العظيم في العلم والقدرة ، وقد يتطور هـذا الـزعم الى خرافة عبـادة الجن والمـرتبطين بـالجن ، من النـاس كالكهنة وسـدنة المعابد ، الى جـانب الايمـان بالله وبرسالاته.

بينما الحقيقة : ان هـذه القـوى الغائبة عن الأنظـار ، سواء كانت عاقلة ومريـدة كـالجن والملائكة ، أو لا كقـوة الكهرباء والجاذبية وما أشـبه ، انما هي مخلوقـات كسـائر المخلوقات المادية ، منتهى الأمر ان علمنا بها محدود.

(**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ**)

الله خلق الجن ، لأنه هو الاخر يتمـيز بـذات الصـفات الــتي تتمثل في ســائر الموجــودات مثل : المحدودية والجهل والتعــدد والتكــاثر ، وكلها صــفات المخلــوق ، والمخلوق سواء كان ظاهرا أو غائبا فهو المخلوق.

(**وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ**)

نسبوا الى الله تهمة بعيدة جـدا عن الحقيقة ، بل هي خرق للفطرة ، ولما هو معلوم

من سنن الحياة : تلك هي أن بعض هؤلاء الشركاء قــريب الى الله ، فزعمـوا انها أبنـاء لله أو بنـات له ــ سـبحانه ــ وليس أصحاب هذه التهمة على علم بهذه الفكرة الخرقاء ، وهنا يظهر مـــــــدى بطلان كلامهم. إذ كيف يمكن ربط شيئين ببعضهما ، والادعـاء بـأن هـذا قـريب من ذلك ، من دون اي دليل أو شــاهد ، وربما تشــير الآية الى أن طاعة أحد باسم طاعة الله انما هي شــرك وضــلالة ما دام الله لم ينزل على ذلك سلطانا وبرهانا مبينا.

ثم ان نسبة شيء الى الله سـبحانه ، باعتبـاره بنتا أو أبنا له لدليل على عـدم معـرفتهم بالله ، إذ ان من يعـرف الله يعـرف أنه مـنزّه عن الشـريك ، ومتعـال عن صـفات الخلق ، ان هـذه الصـفات هي صـفات المخلـوقين ، ولاننا نجد مثل هذه الصفات في المخلوقات ، نعرف ان الخـالق منزه عنها ، ولو نسبنا الى الله سـبحانه مثلها ، إذا لاحتـاج هو الاخر الى رب أعلى ، لأنها تدل على انه بدوره مخلوق مثل سائر المخلوقات.

(**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ**)

وينسبون الى ربهم من صفات المخلوقين.

الخلق وليست الولادة :

[101] يبدو ان الآية السابقة نفت الفكرة القائلة بـأن هناك في عالم الالوهية درجات ، كل اله له درجة ، بعضها كالأب وبعضها كالابن ، بيد ان هذه الآية تنفي وجود التوالد والتناسل ، فيـذكرنا القـرآن هنا : بـأن نشـوء الخلق ليس كما يـزعم المبطلـون ، من أنه عن طريق التوالد ، بل هو عن طريق الخلق المباشر.

(**بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَـهُ وَلَـدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ**)

إذ ما من شـيء يلد الّا وكـان له صـاحبة. إذ من دون ذلك من المستحيل الولادة ، إذ يسبب في نقصان الشـيء الاول وانتهائه ، وإذا كان ربنا بحاجة الى جزء مكمل حـتى يخلق الخلائق ، فما الفـــرق بينه وبين أي مخلـــوق آخر ، ولماذا أساسا نعتقد بوجود اله؟ ان المخلوقات تشهد على عجزها وحاجتها الى الخـالق وبحاجتها الى بعضـها ، ولا بد ان يكون الخالق بريئا من ذلك ، ولنفرض مثلا حاجة شيء الى شيء آخر لتتم عملية خلق شيء ثالث ، أفلا يحتاجون إذا الى قوانين وانظمة لهذا التزاوج حـتى يتم وكيف وبـأي قدر وكمية؟ بلى ومن يضع هـذه القـوانين ، ومن يجريهـا؟ أو ليس شخص ثالث؟ وهو أعلى منهما؟ إذا هو دون هذين الشخصين.

(**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**)

خلقا مساويا ، فنسبة أي شـيء اليه هي نسـبة سـائر الأشياء دون زيادة أو نقيصة فهو خالقهم جميعا.

(**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

[102] وهــذه بالضــبط ، صــفات الخــالق من دون المخلوقين ، انه بريء عن نسبه البـنين والبنـات اليه وعن الأولاد والصاحبة ، وعن الضعف والجهل ، فهو الذي تشهد فطرتنا بأنه الخالق الذي نتطلع اليه.

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ خـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**)

والعبــادة لا تنبغي الّا له ، لأنه خــالق الأشــياء ، ولأنه الذي بيده أمور الأشياء ، فهو الذي يجــري عليها الانظمة ، ويهيمن على أمورها اليومية.

القريب البعيد :

[103] وصفة حسنى لله ، هي صفة القرب المتعـالي ، فبالرغم من ان الأبصار لا تدركه لأنه متعـال عن الحـدود والابعاد والاتجاهات والأبصار ، كما العقـول لا تـدرك شـيئا مطلقا لا حدود له ولا أبعـاد ، بـالرغم من ذلك فهو قـريب من الأشـياء ، فهو يـدرك الأبصـار ، ويحيط علمه بما في العقول والأفكار.

(**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ**)

وهـذه الصـفة تـدل على منتهى اللطف ، حيث انه يدرك كل شيء لأنه يحيط بكل شيء.

(**وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**)

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108)

---

105 [درست] : الدرس أصله استمرار التلاوة ، ودرس الأثر دروسا إذا انمحى لاستمرار الزمان به ، ودرست الريح الأثر دروسا محته باستمرارها عليه.

108 [عدوا] : اعتداء وظلما.

مسئولية البشر في الهداية

هدى من الآيات :

بعد ان ذكّـرت آيـات الـدرس السـابق بالله سـبحانه ، جاءت هذه الآيات لتؤكد المعنى الذي سـبق في الـدروس السـابقة وهو أن وجـود الآيـات لا يكفي في هداية البشر ، بل إذا لم يرد الإنسان لنفسه الاهتداء ، فانه لا يهتـدي وهو المسؤول عن ذلك.

وتصــريف الآيــات اي ذكرها بصــفة مكــررة انما هو بهــدف توضــيح الحقــائق لمن يعلم أنه يجب عليه أن يتبع الحقــائق ، دون خــوف ممن يخالفها كالــذين أشــركوا ، والمشركون لا يعجـزون الله إذ لو شـاء الله ما أشـركوا ، فشـــركهم انما هو بـــإذن الله (دون ان يكـــون برضـــاه سـبحانه) والرسـول ليس مسـئولا عن شـركهم ، ولا هو وكيلهم ، انما عليه ان يبلغهم الرســـــــالة ، ثم إذا لم يستجيبوا يعرض عنهم الى غيرهم.

ان الشرك مضلل لأهله حـتى انهم أصـبحوا يقدّسـون أصنامهم ، ولا يجـوز سب هـذه الأصـنام لأنهم آنئذ سـوف يسبون الله ظلما وعدوانا. وان الله الذي سـوف يرجعـون اليه ســوف يجــزيهم بما فعلــوا ، وكيف أنهم خــالفوا الحقائق.

ويبـدو أن معرفة العلاقة المعقولة والمناسـبة بين من يــؤمن وبين من يشــرك. ذا أمر ايجــابي في اســتيعاب المؤمـنين للحقـائق. إذ من دونها ينشـغل ذهن المؤمـنين بمصير المشركين.

بينات من الآيات :

بصائر الرسالة ومسئولية الاهتداء :

[104] البصيرة هي الآلة الـتي تسـاعد على التبصر ، والقـرآن بصـائر ، لأنه يحتـوي على منـاهج للفكر وآيـات للحقيقة ، والقـــرآن يــزكي النفس ، ويرفع عنها حجــاب الكبر حتى ترى الحقيقة.

(**قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ**)

والكلمة المشهورة في أدبنا الحديث والـتي تسـتخدم مكـــان البصــيرة هي الرؤية ، بيد ان البصــيرة (وجمعها بصائر) أقرب الى المعنى المطلوب ذلك لان الرؤية تطلق حينا على الأبصـار ، وحينا على اتخـاذ رأي ، بينما البصـيرة هي التي تساعد على عملية الأبصار ، ومشـاهدة الحقـائق عن كثب من دون احتمال للخطأ.

والقرآن لا يحمّلك رأيا ، أو يفـرض عليك اتجاها فكريا ، بل يســـاعدك على تلمس الحقيقة مباشـــرة من دون وســـائط ، بيد ان لارادتك دورا في ذلك ، فـــان شـــئت استخدمت البصيرة ، والا فـأنت كمن لا يسـتخدم عينه فلا يرى.

(**فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها**)

والرســول هو الآخر لا يهــدف تحميل رؤية عليك لأنه ليس حفيظا عليك. أي إنّ الله لم يكلفه بحفظك وهـدايتك ، بل أنت المسؤول عن نفسك.

(**وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**)

[105] والآيات هذه بيّنها الله ببيان واضح.

(**وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

قالوا في معنى الآية : ان تصريف الآيات ، وذكر بعضها بعد بعض وتنزلها بصورة تدريجية يعتبر زيادة في شقاء الضالين وزيادة بيان للمؤمنين.

ذلك لان الكفار كانوا يتخذون من تنظيم نزول القرآن ذريعة لكفرهم فيقولون :

ان النبي يتعلم من العلماء ويدرس عندهم ويتفكر في المسائل ويدرسها ثم يحولها الى آيات. وإلّا فلم لم يأتي بها جملة واحدة كما فعل موسى.

[106] وعلى البشر ان يتبع الوحي دون نظر للآخرين الذين لا يؤمنون ، لأن أولئك مسئولون عن أنفسهم ، وانا بدوري مسئول عن نفسي ، فالانشغال بهؤلاء قد يجعلني انحرف قليلا أو أترك جانبا من الوحي ، ان المقياس الاول والآخر هو الحق ، وعلى البشر أن ينظر اليه فقط في مسيرته.

(**اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**)

[107] والتفكر في المشركين وفي مصيرهم ، وأنه لما ذا يذهبون الى النار بالرغم من أنهم بشر مثلنا؟ هذا التفكر يجعلنا نشتبه في بعض الحقائق ، أو لا أقل لا نتبع مسيرتنا الى نهايتها ، لذلك يذكرنا القرآن بأن شرك المشركين ليس بمعجز لله ، بل هو ضمن اطار اذن الله وهيمنته على الكون ، وإذا كان على البشر أمر أكثر من مجرد دعوتهم الى الايمان. لكان الله سبحانه يفعل لهم ذلك.

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**)

فانتظـارهم خطأ لأننا لسـنا مكلفين بحفظهم أو وكلاء عنهم.

لا تسبوا المشركين :

[108] دع المشـــركين في ضـــلالهم ، انهم بعد أن أرادوا الشـــرك واختـــاروه على الهـــدى ، وكلهم الله الى أنفسـهم ، وزين لهم الله أعمـالهم ، لـذلك فهم يقدسـون منهجهم في الحيـــــاة ، ومن الخطأ أن يسب المـــــؤمن مقدسـات المشـركين ، لأنه سـوف يسـبب في رد الفعل من جـانبهم ، فيسـبوا الله ظلما وعـدوانا ، ولأنه قد زيّن لهم هـذه الأعمـال ، فلما ذا نكلّف أنفسـنا ، وأننا نعلم ان مصير هؤلاء الى الله حيث يحاسبهم ويجازيهم؟!

(**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ فَيَسُـبُّوا اللهَ عَـدْواً بِغَيْـرِ عِلْمٍ كَـذلِكَ زَيَّنَّا لِكُـلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

إذا : يجب الاعـراض عن المشـركين والاسـتمرار في بنـاء الكيـان الاسـلامي ، بعيـدا عنهم لأنه لا أمل فيهم ، وحسابهم غدا على الله.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُـؤْمِنُنَّ بِها قُـلْ إِنَّمَا الْآيـاتُ عِنْـدَ اللـهِ وَما يُشْـعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُـونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصـارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُـوا بِـهِ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَنَـذَرُهُمْ فِي طُغْيـانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَـوْتى وَحَشَـرْنا عَلَيْهِمْ كُـلَّ شَـيْءٍ قُبُلاً ما كـانُوا لِيُؤْمِنُـوا إِلاَّ أَنْ يَشـاءَ اللـهُ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ يَجْهَلُـونَ (111)

---

111 [قبلا] : معاينة.

لما ذا المطالبة بالآيات الجديدة؟

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث عن ضـرورة الاعـراض عن المشركين باعتبـارهم معانـدين ، في هـذا الـدرس ، يتـابع القرآن هذا الحديث ببيـان ان المشـركين يحلفـون بالله ـ الايمان المغلظة ـ انهم سـوف يؤمنـون بشـرط نـزول آية معينة عليهم ، أو دليل قـوي ، بيد أنهم يكـذبون ، وبـالرغم من ان الله قـادر على ان يـنزل آية مما يطـالبون بها ، ولكن ما الضـمان لقبولها ما دامـوا يرفضـون الآيـات الواضـحة ، وتحـدثنا الآية الثانية ، عن أن الكفر بالآيـات يسـبب في تبـديل القيم والمقـاييس ، وعـدم قـدرة الفكر على التميـيز ، ذلك لان الكفـار طغـاة والطغيـان يحجب العقل ، ويدع القلب مظلما.

وفي الآية الاخيرة : يذكر القرآن انه حتى لو أنزل الله أكثر الآيات وضوحا ، مثل نزول الملائكة ، وتكلم الموتى ، وحشر كل شـيء أمـامهم ، فـإنهم لا يؤمنـون لأن الجهل محيط بأكثرهم.

بينات من الآيات :

الايمان الكاذبة :

[109] التعرف على طبيعة المشركين ، يساعدنا في تكوين علاقات سليمة معهم ، انهم انما يكفـرون اسـتجابة لشهواتهم ، أو تسـليما لضـغوط مجتمعهم ، أو خشـية من طاغوت حكومتهم ، أو ما أشـبه ، ولكنهم يـبررون كفـرهم بـأنهم غـير مقتنعين بـالحق ، أو ان الآيـات والمعـاجز غـير كافية لهم ، ولكي يبـالغوا في تغطية كـذبهم ونفـاقهم ، لا يـدعون قسـما الا ويحلفـون به على صـدق نوايـاهم وهم كاذبون.

(**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ**)

اي بآخر ما يستطيعون عليه من الأيمان.

(**لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها**)

أي آية معينة يذكرونها ، أو آية يصدق عليها كلمة آية ـ في زعمهم ـ مثل ان تكون آية كبيرة جدا كإحياء الموتى.

(**قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ**)

فالله قـادر على أن يـأتي بآية ، ولكنه لا يـأتي بها إلّا حين تقتضي حكمته ، وليس كلما شاءت أهواء الكفار ، أو حتى ارادة الرسول (ص) الحريص جدا على هداية الناس.

(**وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ**)

وأي ضـمان نملكه نحن لأيمـانهم بعد مجيء مثل تلك الآية ، علما بأن هؤلاء

كفروا سابقا بكل الآيات الواضحة.

محكمة الفطرة :

[110] للإنســـان فطـــرة أولية أنعم بها الله عليه ، وبهذه الفطرة يمـيز البشر الخـير من الشر ، والهـدى من الضـــلالة ، وإليها يحتكم أهل الأرض حين يتنـــازعون ، فالفداء والإحسان والشجاعة والسخاء والبطولة ، صـفات جيدة ، وعكسـها رذيلة ، تجد هـذا عند المسـلم والكـافر ، والحضري والبدوي ، وحتى الإنسان البدائي شبه الوحشي ، انها مقـــــــاييس عامة زود الله البشر بها ليتلمس بها طريقه.

وبهـذه الفطـرة الاولية عـرف البشر ربه ، وآمن به ، ولكنه بعد أن تعـــرض لضـــغط الشـــهوات والطغـــاة والخرافـــات. استســـلم لها وكفر بالله ، وحين كفر بربه أرسل الله اليه الرسل ، فمنهم من آمن وتحدى الضـغوط ، ومنهم من كفر ، وهـــؤلاء لم يفقـــدوا نعمة الرســـالة الســماوية فحسب ، بل أن الله ســبحانه أفقــدهم نعمة الفطرة الاولى أيضا.

(**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ**)

الأفئدة هي القلوب الـتي كـانت سـابقا محلا للفطـرة النقية ، وللمقاييس السـليمة ، اما الأبصـار فهي الحـواس التي تتبع القلـوب ، فـاذا تحـولت وتبـدلت معـايير البشر ، فـــان حواسه هي الاخـــرى تتحـــول دون ان يقـــدر على الاستفادة السليمة منها ، وآنئذ يصبح هؤلاء بسبب فقــدان الفطرة.

(**كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

والســبب ان هــؤلاء طغــوا ، والطغيــان يســبب قلب الافئدة ، وتبدل المقاييس.

فالبشر الـــــذي يتبع عقله ، ويتبع الحق ، والحق هو هدفه ، مزود بمقاييس لمعرفة هذا

الحق ، ولكنه حين يتبع شـــهوته ، ويتبع ذاته ، والـــذات الطاغية كل هدفه ، ومقياسه في الحسن والقبح ، والخـير والشر ، والفضـــيلة والرذيلة ، هو الأقـــرب الى نفع ذاته وتحقيق هدفه اللامقدس من وراء شهواته ، وتكون أصول دينه ثلاثة : الطعـــام والشـــراب والجنس ، وأحكـــام دينه هكذا. الحلال ما حل باليد ، والحرام ما حـرم منه الإنسـان ، ان مصـير هـذا الإنسـان ، مصـير الـدول الطاغوتية في العـالم الـتي تصـنع لـذاتها مقـاييس خاصة بها ، وقـوانين دولية ومحـــاكم ومجـــالس أمن .. إلخ. كلها بهـــدف دعم السـلطات الطاغوتية على رقـاب الجمـاهير المحرومة ، لذلك يحذر القرآن من مغبة الكفر بالآيات ويقول :

(**وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**)

لا يلتمســون طــريقهم لأنهم طغــوا ، بل ان هــؤلاء يفقدون شيئا فشيئا المقـاييس لمنفعة ذواتهم ، فيخربـون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

[111] ودليل كذبهم ونفاقهم : أنهم لو أنــزلت عليهم أكثر الآيات إثارة لم يؤمنوا.

(**وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى**)

بل أكثر من هذا لو أن الله حشر عليهم الأموات حتى يقابلونهم بالحقيقة الصريحة ، كما إذا حشر عليهم الطيور فآمنت بالرسالة مع ذلك ما آمنوا.

(**وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُـوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**)

فيهديهم هداية مفروضة عليهم.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**)

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَـياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْـرُفَ الْقَـوْلِ غُـرُوراً وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَما يَفْتَـرُونَ (112) وَلِتَصْـغى إِلَيْـهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

الإصغاء الى زخرف القول

هدى من الآيات :

الــدنيا دار ابتلاء ، والهــدف مما فيها من صــراع ، هو فضح جوهر الأشخاص حـتى يكـون الثـواب والعقـاب وفق العمل لا وفق علم البــاري ســبحانه ، ولقد قيّض الله لكل رســول عــدوا. ليكــون قــدوة لمن لا يــؤمن بــالآخرة. كما الرسول قدوة وامام للمؤمنين ، وأعداء الرســالات يــوحي بعضـــهم الى البعض أقـــوالا مزخرفة يتبعـــون بها غـــرور أنفسهم ، وهذا الكلام يشبه الوحي الالهي في انه مقــدس عند من لا يؤمن بالآخرة.

وهنا جعل القرآن الخط الفاصل بين المؤمن والكــافر الايمان بالآخرة ، وهذا يعـني ان غـير المؤمـنين بـالآخرة لا يمكنهم الايمان باي شيء آخر من الحقائق.

ويأتي هذا الدرس ليبين جانبا من فلسفة الشـرك عند أولئك الـذين يرفضـون الايمـان بالله والرسـالة. حـتى ولو جاءتهم كل آية ممن ذكـرهم القـرآن الكـريم في الـدرس السابق.

بينات من الآيات :

المعارضة المنظمة :

[112] لنعرف ان هناك معاندين لا ينفع معهم الجـدل ، وأن موقف هـــؤلاء لا يعتمد على دليل مضــاد فلا يبعث موقفهم في أنفسنا الوهن والشك ، فنقول : لعل حـديثهم ينطوي على جانب من الصحة فنخرج ـ لا سمح الله ــ من الايمان ، لذلك جاء هـذا الـدرس وما مضى ليؤكد على أن الله ســبحانه ليس فقط حــرم هــؤلاء من نعمة الهداية ، وسـلبهم نعمة الفطـرة النقية ، وانما أيضا نظم هـؤلاء في قيادة مناهضة لامامة الرسول ، وجعلهم يقلـدون أسـاليب الرسالة حتى ان بعضهم يوحي الى البعض الاخر.

(**وَكَـذلِكَ جَعَلْنا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَـياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِ**)

والســـؤال : كيف جعل الله ذلك ، هل خلق أعـــداء ليكونوا مناهضين للرسالة؟

ربما الجواب السليم هو : ان هذه سنة من سـنن الله في الحياة ، يـذكرها القـرآن هنا لنكـون على بصـيرة منها لئلا نفاجئ بها ، ولان كل السنن في الكـون من صـنع الله لذلك يعبر عنها القرآن دائما بمثل هذه التعبيرات.

ان الرسـالة الـتي تنتشر دون مقاومة أعـداء لا بد ان يتهم أصحابها أنفسهم ، لان هـذه السـنة لم تتحقق فيهم ، وان الرساليين الذين ينتظرون عملا سـهلا وميسـورا. انهم على خطأ ان شيطان الانس يتمثل في مجتمع الطاغوت ، وشـيطان الجن يتمثل في أهــواء الجبت والمنــافقين وما أشبه.

(**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**)

وحي الرسالة يتمثل في البصـائر الـتي تسـاعد البشر على رؤية حقــائق الحيــاة ، بينما وحي أعــداء الرســالة وثقافــاتهم الاســطورية (المقدسة عنــدهم) يتلخص في أقوال مزخرفة ذات أدب خاو مشـبع بالكلمـات المفخمة ، غـير ذات المحتـوى ، اما روح هـذه الكلمـات فيتمثل في الغــرور ، ونفخ الانانية الباطلة ، ان هــذا مقيــاس صــادق لتمييز الثقافة الرسالية عن الجاهلية.

حيث ان الاولى تدعو الى تقديس الحق ، والتواضع له ، ونســيان الــذات والأرض ، والــدم واللغة ، والـثروة وما أشبه من أجل احقاق الحق ، بينما الثانية تقدس كل شيء مادي غير الصدق والحق والخير وما أشبه.

(**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ**)

فلا نتصور ان هناك ضرورة تدعو الى إسكات هـؤلاء ، وتصــفيتهم أو هــدايتهم ، إذ لو شــاء الله لفعل ذلك ، فهو قادر على ذلك وانما لم يفعل لحكمة بالغة.

الايمان بالآخرة ومسئولية الضلال :

[113] ومن ســـنن الله في الحيـــاة ان نعيق أئمة الضلال ، يسـتقطب الهمج الغثـاء الـذين يفقـدون الايمـان بالآخرة ، فيكون امتحانا لهم أيضا.

(**وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**)

انما ركزّ القـرآن على الايمـان بـالآخرة ، لان السـبب في عدم الايمان بالله وهو مصدر كل معرفة وايمـان ليس عدم وضوح الشواهد ، فالله أكبر شـهادة من كل شـيء ، وانما عـــدم الخـــوف من العاقبة ، وأساسا قصر النظر ، ومحدودية الرؤية بما في عاجل الـدنيا ، بل عاجل اللحظة التي يعيشها الشخص من الدنيا.

(**وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ**)

من الجـرائم حـتى يلاقـوا جـزاءهم العـادل بعد عمل وعلم بذلك.

وانما قـال ربنا : «**وَلِتَصْـغى إِلَيْـهِ أَفْئِدَةُ**» ولم يقل اســماع لان هــذه الأفكــار لمزخرفة تتناسب وخــوائهم العقائدي فيتقبلونها بأفئدتهم.

أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتـابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَـزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِـالْحَقِّ فَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُمْتَـرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِـلُّوكَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ إِنْ يَتَّبِعُـونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُـونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِـلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

---

116 [يخرصون] : يكذبون.

اتباع الاكثرية الضالة

هدى من الآيات :

بعد ان ذكر القــرآن الحكيم الــوحي الشــيطاني في الدرس السابق ذكّرت هذه الآيات بـالوحي الالهي الـذي لا يجوز اتخاذ غيره لأنه كتاب مفصل فيه تفصيل كل شيء ، فلا نحتـاج الى غـيره وهو لا ريب فيه بالنسـبة للمؤمـنين. ففيه الثقة كلها ، ثم انه يمثل الحق والعدالة ، بالاضـــافة الى كل ذلك فهو كتـــاب دائم ، لا يتغيّر وفق تطـــورات الزمـان والمكـان ، لان الـذي وضـعه هو الله الـذي وضع سنن الحياة ، وهو السميع العليم وعلمه جديد قديم.

وفي مقابل رسالة الله لا نجد سوى تخرصات النـاس الـتي لا نجد فيها الا الظنـون والخيـالات الفارغة الـتي لا يقدرون هم أنفسهم من اليقين بها والايمان بصحتها.

والله سـبحانه اعلم باتجاهـات النـاس الضـالين منهم والمهتـدين لان السـبيل هو سـبيل الله ، والمقيـاس في الضـلالة أو الهـدى هو الله الحق ، فهو اعلم بـذلك الحق ، وأولى بأن نسأله سبحانه في هـدايتنا الى السـبيل الأقـوم المؤدي اليه سبحانه.

ان البشر يبحث عــــــادة عن الحق ولكنه يضل عنه ، ولان الناس يختلفــون في الحق ، ولا يمكن ان يجعل كلام بعضهم مقياسا وميزانا لمعرفة وتميـيز الحق عن الباطل ، إذا فلنعد الى الله رب النـــــاس ، ومن اليه منتهى طريق الحق ليهدينا الى الحق.

بينات من الآيات :

أنزل عليكم الكتاب مفصلا :

[114] العــالم يمــوج بالنظريــات ذات الاتجاهــات المتناقضة ، والحيـــاة تـــتزاحم فيها الســـبل المختلفة ، والإنسان يولد مرة واحدة ويختار سبيله ، والنظريات التي يعتقها يتحمل شخصــيا مسـئوليتها ، والنــاس لا يمكن ان يكونــوا حكما على بعضــهم لأنهم يختلفــون مع بعضــهم اختلافا واســعا ، انما علينا ان نتوسل الى قــوة أعلى هي قوة الله لتكون مصدر الهامنا بالنظرة الصحيحة ، ومصـدر هدايتنا الى السبيل الا قوم.

(**أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً**)

والله تعـــالى لم يبخل بالهداية على عبـــاده ، بل لم يكتف بالهداية المجملة ، وانما فصل الهداية تفصيلا.

(**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً**)

فيه علم كل شيء بحدوده المتغيرة ، وحسب مراحله الزمانية ، فــالقرآن لا يكتفي ببيــان قبح الظلم وانما أيضا يفصل الحديث في أنواع الظلم وتفاصيل العدالة.

والكتاب هذا لا ريب فيه فبامكـان البشر أن يـؤمن به ببساطة ، ودون تعقيد بشرط ان لا يكون معقدا ومعاندا.

(**وَالَّذِينَ آتَيْنـاهُمُ الْكِتـابَ يَعْلَمُـونَ أَنَّهُ مُنَـزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ**

الْمُمْتَرِينَ)

الذين يجادلون في الحق بغـير هـدف سـوى الجـدل ، لأنه لو لم يكن البشر ممتريا يسـتهدف المـراء والجـدل ، فانه سوف لا يشك في الكتاب.

الصدق والعدل وسيلة وهدف الرسالات :

[115] تتميز كلمات الله ، وخلاصة وحيه الى البشرية بأنها تامة ، والتمام بمعنى وفائها بكل الحاجات البشـرية ، وأنها صـادقة تطـابق الحق ، والحق هو ما في الكـون من أنظمة وســـنن ، وبما ان ربنا هو جاعل هـــذه الانظمة ومجريها ، فانه ســبحانه هــدي البشر إليها عــبر كلماته بصدق ، وأنّ كلمات ربنا سـبحانه عدالة ، حيث انها تعطي لكل فـرد حقه ، ولكل طائفة وقـوم وجيل حقه ، ذلك لان الله فوق الميول والشهوات ، وقادر وحكيم وعليم ، لذلك لا يوجد لديه ســـبحانه اي ســـبب للظلم ، من عجز وما أشبه.

(**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ**)

المحتوية على رسالاته.

(**صِدْقاً**)

أي حقا.

(**وَعَدْلاً**)

الصدق هو وسيلة الرسالة والعدل هو هدفها.

(**لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

فبسمعه يحيط علما بكل صغيرة وكبـيرة من حـوادث الحياة ، وبعلمه الواسع يحيط بأصل الحيـاة وأولها وآخرها و.. و.. ، فعلمه جديد قديم. محيط بالجزئيـات والكليـات ، فهو إذا تام الكلمات صدقا وعدلا.

عند ما لا تتبع رسالتك!

[116] الرســـالة الالهية التامة قائمة على أســـاس الصـدق والعـدل ، الصـدق في القـول والعمل ، والعـدل كهدف لهـذا الصـدق ، اما الثقافـات الجاهلية ، فانها قائمة على أساس الظن والتخرص ، فما هو الظن؟

الظن : هو التصـــور النـــابع من الأهـــواء الذاتية والشهوات والضغوط ، أو هو ما تصنعه أنت في ذهنـك. لا لكي تطبقه على الواقع الخـارجي ، بل ليكـون بـديلا عنه ، مثلا : تصورات الشعراء عن الحيـاة ظنـون. لأنها لا تهـدف كشف الحياة كما هي ، بل تهـدف تصـويرها حسب مـذاق الشاعر ، ولـذلك قيل «الشـعر أعذبه أكذبـه» كـذلك حين تتصور أن نظام الطاغوت يجب ان يبقى لا لشـيء الا لأنه يحقق مصالحك الذاتية ، وقد تـأتي بأدلة متشـابهة لإثبـات ذلك ، ولكنها جميعا تأتي لإثبات قصور مصدره حب الذات لا كشف الحقيقة.

والظن يختلف عن العلم في أنه قـــائم بذاته ، بينما العلم قائم بالحقيقة ، مثلا : علمك ببزوغ القمر قـائم على أســاس وجــوده ، فـاذا أفل زال علمك ، أما إذا تصــورت القمر على جـدار بيتك ، فـان هـذا التصـور قـائم بذاته ، ومثله كلوحة جميلة تصور القمر. سواء كان هنـاك قمر أم لا.

والبشر قد يتبع الخرص والاحتمال ، وذلك حين لا يرى ضــرورة لكشف لحقيقة ، فيفــترض افتراضــات حولها ، مثلما كان الناس يقولـون عن السـماء والنجـوم لأشـياء لا برهان لهم بها سوى الاحتمال.

وأكثر البشر يـتراوحون بين الظن والخـرص ، لأنهم لا يملكون الهدى الرسالي ، ذلك لان الهدى كمال لا يبلغه الا من جاهد نفسه وزكاها.

(**وَإِنْ تُطِـــعْ أَكْثَـــرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِـــلُّوكَ عَنْ سَـــــبِيلِ اللَـــــهِ إِنْ يَتَّبِعُـــــونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**)

[117] وإذا كـان أكـثر البشر ضـلالا ، لأنهم يتبعـون الظن ، فكيف يمكن ان يمـيز الإنسـان طريق الحق عن الضـلال ، ان عليه ان يتوسل بالله لأنه الحق الـذي يميّز الضلال عن الهدى.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)

ولان منتهى السبيل ، هو الوصـول الى الله سـبحانه ، فهو دون غيره يهدي الناس الى السبيل ، ويحدد من يضل عنه أو يهتدي اليه.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَـأْكُلُوا مِمَّا ذُكِـرَ اسْـمُ اللـهِ عَلَيْـهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْـطُرِرْتُمْ إِلَيْـهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِـأَهْوائِهِمْ بِغَيْـرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كـانُوا يَقْتَرِفُـونَ (120) وَلا تَـأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُـذْكَرِ اسْـمُ اللـهِ عَلَيْـهِ وَإِنَّهُ لَفِسْـــقٌ وَإِنَّ الشَّــياطِينَ لَيُوحُــونَ إِلى أَوْلِيـــائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

اتباع الهوى واكتساب المآثم

هدى من الآيات :

يضـرب الله مثلا على بصـائر الـدرس السـابق ، بـان السبيل الى الحق هو السبيل الـذي يـؤدي الى الله ، والله سـبحانه أعلم به ، وأن ما سـواه ضـلالة وظن وتخـرص لذلك بيّن حكم الطعام الـذي هو أبسط الضـرورات ، ومع ذلك يحـرم جماعة أنفسـهم منه لبعض الظنـون الـتي لم ينزل الله بها سلطانا ، فجاء أمر صـريح بأكل ما ذكر اسم الله عليه ، ثم تساءل القرآن عن سـبب الاحجـام عن أكل ذلك بعد أن أعطانا الـرب قائمة بالمحرمـات الـتي تصـبح هي الاخـرى حلالا عند الضـرورة ، ولكن مع ذلك فـان البعض يضلون بسبب أهوائهم.

ان المحـرّم هو الإثم الـذي فصّـله القـرآن (ظـاهره وباطنـه) وكـذلك الشـرك بالله ، ومن مظـاهره ان تـذبح الذبيحة باسم الأصـنام ، وأوليـاء الشـياطين يجـادلون أهل الحق في ذلك بـوحي من الشـياطين ، ويشـككونهم في تحـريم ما ذبح على النصب ، أو الـذي لم يـذكر اسم الله عليه ، وان طاعة الشـياطين في حكم الشـرك بالله العظيم.

بينات من الآيات :

قاعدة الاضطرار :

[118] قد تميل النفس البشـــرية الى الانطلاق (كما في بداية انفجـار الحضـارات) فتحلل كل حـرام ، ولا تتقيد بقيـــود الأخلاق والآداب ، وقد تنعكس فتميل نحو الانغلاق فتنكمش (كما في حـالات التخلـف) فتحـرم كل شـيء ، وتسـتقبح حـتى الطيبـات ، اما المؤمنـون فـإنهم يتبعـون الحق في حـــالات الانطلاق والانغلاق معا ، دون الاتبـــاع لأهــوائهم ، ولطبيعة نفســياتهم في الظــروف المختلفة ، والحالات الاجتماعية المتباينة.

والقــرآن يربط بين الايمــان بالله ، وبين أكل ما ذكر أسم الله عليه ، لكي يكون المؤمن ملتزما في تصرفاته ــ سلبا وإيجابا ـ بالمنهج السماوي.

(**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْـمُ اللـهِ عَلَيْـهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِـهِ مُؤْمِنِينَ**)

اي تلك الآيـات الـتي أشـار إليها القـرآن في الـدرس السابق ، وإذا كنتم مؤمـنين بـان الله أعلم بسـبيل الهـدى عن الضلالة ، فاتبعوه فيما يأمركم به.

[119] يتساءل القرآن عما يـدعو البشر الى الامتنـاع عن أكل غير المحرمات.

(**وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْـهِ وَقَـدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**)

اي انه بــالرغم من حرمة بعض الطعــام الا أنه حلال لمن يسـبب تركه له ضـررا كبـيرا عليه فهو مضـطر اليه ، فكيف بالطعـام الحلال الـذي لا يجـوز تركه لمجـرد أهـواء ونفسيات ضيقة

ومن النــاس من يتبع أهــواءه دون هــدى الله ، ودون علمه ، فيحــرم على نفسه الطيبــات ، لا لأن الله حرمها ، ولا لأنه يعلم بضررها.

(**وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْــرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ**)

الذين يتجاوزون حدود أحكام الله ـ زيادة أو نقصــانا ــ فهم لا يتبعــون منهج الله ، بينما المنهج القــويم الســالك بالبشـــرية الى الله ، هو منهج الله ســبحانه لأنه خــالق البشرية ، فالمعيار هو ما عند الله ، لا ما عند البشرية من أهواء.

الإثم بين الظاهر والباطن :

[120] وكما لا يجــوز التوقع وتــرك الطيبــات احتياطا وحذرا. كذلك لا يجوز الاسترسال وتناول الرطب واليـابس معا دون فرق ، كما تفعله الجماعات البشرية في ظـروف قوتهم وبطشهم (وحضارتهم) كلا .. هناك حدود يجب على البشر أن يقف عنـدها ، هي حـدود الإثم الـذي فصـله الله سبحانه.

(**وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ**)

والإثم حـرام لا لأنه يتشـكل بهـذه الصـورة أو بتلك أو لان اسمه (إثم) أو لأن الناس يتبرءون منه ، بل لأنه خبيث واثم في جــوهره ، ولــذلك لا فــرق بين ظــاهره وباطنه ، علنه وسره ، سواء كان باسم الإثم ، أو وضع له اسم أخر مثل الأسماء القانونية الـتي توضع اليـوم للاحتكـار أو الربا أو الغش ، أو مثل الشــرائع الدولية الــتي تســمح للــدول الكبرى استغلال ثروات الشعوب تحت أسماء مشـــروعة ، مثل الانتداب ، وتدوير الثروات النفطية ، والأمن الصناعي وما أشـبه ... ان الإثم إثم مهما غيّرنا اسـمه أو وضـعنا له شريعة أو قانونا.

والإثم يولّد الدمار ، سواء سميناه كذلك أم لا.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِــبُونَ الْإِثْمَ سَــيُجْزَوْنَ بِما كــانُوا يَقْتَرِفُونَ**)

من الإثم في عاجل الدنيا وأجل الآخرة.

[121] والإثم هو ما يشـــــــــــرعه الله لا ما يوحيه الشيطان. مثلا : لا يجـوز أكل الذبيحة الـتي لم يـذكر اسم الله عليها حين تذبح لأنها فسق ، يدل على حالة الانفصال بين الإنسـان ومبادئه ، أو الـزعم بـأن الـدين محصـور في المسجد. أما الحياة سواء منها ما يرتبط بالأكل والشرب ، أو الزواج والطلاق ، أو السياسة والاقتصاد ، فانها منفصلة عن الــدين. ان كل ذلك فسق وشــرك بالله ، وذلك يعـني أن هناك إلهان ووليان وقائـدان للبشر ، أحـدهما للمسـجد والثاني للسوق.

(**وَلا تَــأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُــذْكَرِ اسْــمُ اللــهِ عَلَيْــهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**)

والشــياطين يجــادلون في الحق ، ويحــاولون تمــييع الواجبات وأن يقولـوا : ما هو الفـرق بين الذبيحة الـتي لم يذكر اسم الله عليها وبين الاخرى؟ دون ان يضعوا القضية في اطارها العـام ، ليعرفـوا : ان ذلك مرتبط بكل سـلوك البشر. ان يكون سلوكا توحيديا فيقول :

(**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**) [1] أو سلوكا شركيا فيقول : ان صلاتي ونسكي لله ومحياي ومماتي لنفسي.

(**وَإِنَّ الشَّـــــياطِينَ لَيُوحُـــــونَ إِلى أَوْلِيـــــائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**)

أولا : لان طاعة غير الله في حكم الشرك بالله.

---

(1). 162 / الانعام.

ثانيا : لان منهج الشياطين هو منهج الشرك ، والفصل بين الــدين والــدنيا ، بين الــدين والسياسة ، بين الجــامع والجامعة ، بين المسجد والسوق وهكذا.

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَـهُ نُـوراً يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَـذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُــرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِــهِمْ وَما يَشْــعُرُونَ (123) وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُـؤْتى مِثْـلَ ما أُوتِيَ رُسُـلُ اللـهِ اللـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَـلُ رِسـالَتَهُ سَيُصِـيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كـانُوا يَمْكُرُونَ (124) فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجـاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ

---

124 [صغار] : الصغار الذي ينبه المرء الى نفسه.

عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــــونَ (125) وَهـــذا صِـــراطُ رَبِّكَ مُسْـتَقِيماً قَـدْ فَصَّـلْنَا الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دارُ السَّــلامِ عِنْــدَ رَبِّهِمْ وَهُــوَ وَلِيُّهُمْ بِما كــانُوا يَعْمَلُونَ (127)

---

125 [حرجا] : الحرج أضـيق الضـيق ، وحـرج فلان إذا هـاب ان يتقـدم على الأمر.

دور أكابر المجرمين

في تضليل الناس

هدى من الآيات :

البشر ميت ، ورســـالة الله روح تبعث فيه الحيـــاة ، وتعطيه نـــورا يتحـــرك به في الحيـــاة الاجتماعية ، ولكن فريقا من أبنـاء البشر يرفضـون هـذه الحيـاة ، ويفضـلون البقـــاء في الظلمـــات ، وذلك بســـبب أنهم تعـــودّوا على سلوك معين ، وأنهم يستأنسون بذلك السلوك ويحبونه.

ومخالفة الرســـالة قد تكـــون له عوامل فردية ، مثل عامل العـــادة ، وقد تكـــون له عوامل اجتماعية ومنظمة مثل : خطط الســـلطة الطاغوتية الــــتي هي في واقعها تجمع يضم مجموعة من المجــرمين ، ذات قيــادة مــاكرة ومخططة ، بيد أن خطط هــــذه القيـــادة تنعكس عليها ، ومن خططها تكبرها على الرسالة بسبب ادعائها أنها دون الرســـول أولى بها ، وما دامت الرســـالة لم تهبط عليها فانها ســوف تكفر بها ، والله يقــول : «**اللــهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**».

أما جزاء هؤلاء فهو الـذّل والصـغار والعـذاب الشـديد بسبب خططهم المضادة

للرسالة.

ومن عوامل الكفر بالرسالة ضيق الصدر ، وقلة الاستيعاب ، وضعف الارادة ، وبالتالي الضيق والحرج.

والواقع ان ذلك يصيب قلب الفرد بسبب عدم الايمان ، ومن عوامل الايمان التذكر واستعادة الحقائق ، حيث يهتدي الإنسان بهما الى صراط الله الذي يوفر للبشر الاستقامة والسلامة ، والولاية الالهية (الدعم الالهي).

وانما يبلغ المؤمن هذه الاهداف بأعماله ، وليس بمجرد التذكر أو العلم والمعرفة.

بينات من الآيات :

أو من كان ميتا فأحييناه؟!

[122] كما ان البشر كان فاقدا للحركة والنمو ، وبالتالي الحياة ، حتى نفخ الله فيه روحا ، فأصبح بشرا سويا ، كذلك فهو فاقد للعلم والهدى حتى يحييه الله ، ويعطيه القدرة.

(**أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**)

ان الله يحيي قلب البشر بالعقل والوحي ، وذلك لعله يستطيع أن يعرف ضره من نفعه ، ويعرف من يضره ومن ينفعه ، وكيف يتصرف مع الناس ، وينظم علاقته معهم.

بيد ان هناك من لا ينتفع بالحياة هذه ، فيبقى في ظلمات دون ان يخرج منها.

(**كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**)

اما السـبب الـذي يجعل الفـرد يفضل الظلمـات على النـور فقد يكـون العـادة حيث يحب الفـرد السـلوك الـذي كان ينتهجه حتى ولو كان شائنا.

(**كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

التنظيم الهرمي في جهاز الطغاة :

[123] العامل الثـاني للكفر هو وجـود مـاكرين في المجتمع والمكر هو : التخطيط من أجل تضـليل النـاس بهدف وصول جماعة أو فرد لمصـالحهم الشخصـية ، وفي المجتمعـات توجد دائما شـبكة من المجـرمين تجمعهم قيادة واحـدة تعمل ضد مصـلحة الامـة. هـذه الشـبكة هي الـتي تشـكل واقع السـلطة الطاغوتية ، وهي تنشأ ، من فرد أو عدة أفراد زيّن الشيطان لهم ما كانوا يعملـون من سـيئات ، ثم نظمّـوا أنفسـهم في سلسـلة هرمية على رأسها أكبر المجرمين.

(**وَكَذلِكَ**)

ربما الاشارة توحي بـآخر الآية السـابقة ، أو بها جميعا ، اي لان هنا جماعة تسـتحب العمى على الهـدى ، فقد تشكلت منظمة في كل قرية للمجرمين.

(**جَعَلْنا فِي كُـلِّ قَرْيَـةٍ أَكـابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُـرُوا فِيها**)

وقيادة هذه المنظمة الماكرة انما هي لأكبرهم اجراما ، فالقيمة بينهم هي قيمة الاجرام ، والهـدف لها هو المكر والتخطيط ضد الجماهير.

(**وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ**)

ان السـلطة الطاغوتية حين تخطط ضد الجمـاهير ، فأمّا تثور ضدها الجماهير ، وتقضي عليها ، فيكـون جزاؤها خزيا ، وعذابا أليما ، وإمّا تسترخي الجماهير ، فينزل

عليها وعلى السلطة عذاب الله فيدمرهم جميعا ، إذا فعاقبة المكر تعود على صاحبه إمّا وحده أو مع الآخرين.

والآية هذه تفضح طبيعة السلطة الطاغوتية ، وتبين أنها ليست سوى تجمع للمجرمين ، وأن قوتها تكمن في خططها الماكرة ، وأن قيادتها متمثلة في المجرم الأكبر ، وأن الأمة لو عرفت هذه الطبيعة للسلطة الطاغوتية ، إذا لتخلصت منها ، إذ ان المجرم لو كشف مكره جرد منه سلاحه وسهل القضاء عليه.

[124] من مكر هذه الفئة السالفة الذكر أنها تتعالى عن الحق ، بعد أن تضع على نفسها هالة من القداسة الباطلة ، وتنشر بين البسطاء هذه الفكرة الرعناء : لو كانت الرسالة صحيحة ، إذا لم يكن ربنا يختار لها الا واحدا منا نحن الكبار ، ولم يكن يفضل علينا واحدا من عامة الناس.

(**وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ**)

ولكن الله يدحض حجتهم بقوله :

«**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**»

يجعلها في أيد نظيفة ، وجيوب طاهرة نقية ، وقلوب زكية ، ورجال مخلصين ، وليس في أيدي هذه الفئة التي سرقت أموال الناس ، وصنعت مجدها على أجسادهم ، ثم يهددهم الله بالقول.

(**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ**)

بسبب تكبرهم.

(**وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ**)

الشروط المساعدة للايمان :

[125] بعد ان بينت الآيـــــات عوامل الكفر الفردية والجماعية ، جـاءت هـذه الآية لتـبين الشـروط المسـاعدة للايمان ، وفوائده وأبرزها : شرح الصدر حيث ان الايمــان بالله يعــني تفضــيل المســتقبل على الحاضر ، وتفضــيل الجماعة على الفــرد ، وتفضــيل الحق على الشــهوة لان الحق خير عاقبة ، وأفضل أملا.

وهــذه الصــفات لا تعطى الّا لمن يتمتع ببعد الرؤية ، ورصانة الفكر ، وبالتـالي سـعة الصـدر. بينما الكفر الكفر بعكس الأيمــان تماما ، أن هو إلّا نتيجة ضــيق الصـــدر ، وسبب له أيضا.

(**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَـهُ يَشْـرَحْ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِـلَّهُ يَجْعَـلْ صَـدْرَهُ ضَـيِّقاً حَرَجـاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ**)

يبدو أن الضيق هو الجزع ، ومحدودية الرؤية ، وعــدم استيعاب الاحداث ، بينما الحرج هو الـتردد وعـدم القـدرة على اتخــاذ رأي ما ، وبالتــالي أن يــرى الشــخص نفسه عـاجزة عن اي شـيء ، والـذي يصّعد في السـماء يشـعر بالضـــيق لأنه يجد نفسه مقطوعا عن أطرافه ، ويشـــعر بالحرج لأنه يخشى الوقوع.

ومن المعروف ان الصعود في السماء يســبب قلة الا وكســجين ، وبالتــالي ضــيق النفس ، وســوء الخلق وقد يكون التشبيه من هذا الباب.

(**كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**)

انهم يعيشون في حدود ساعتهم وموقعهم ، فلا يرون الاحــــداث القادمة ، أو الظـــــواهر المتفاعلة فيما وراء موقعهم المحدود فتأتيهم المشاكل والصعوبات من حيث

لم يحتسبوا ، ولأنهم كانوا يكفرون بالحقائق الغيبية والـتي هي وراء زمانهم ومكانهم ، فاذا بهم يواجهـون بها دون ان يستعدوا لها.

منافع الايمان :

[126] كما ســـبق ان قلنا ان : العامل المســـاعد للايمـان هو شـرح الصـدر ، أما منـافع الايمـان فهي اربعة أبرزها :

أ/ الاهتداء الى الصراط المستقيم الذي يؤدي بصاحبه الى الله سبحانه ، بما له من أسماء حسنى وأمثـال عليا ، أي الى التحرر الكامل ، والعدالة الشاملة والفلاح.

(**وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً**)

ب / لا تنحـــرف به الأهـــواء العاجلة ، والشـــهوات المؤقتة ، ذات اليمين وذات الشمال ، لان المـؤمن شـرح الصدر ، لا تغرّه الظـواهر الآنية والاحـداث الزائلة ، فيبقى على خطه وخطته البعيدة المدى.

(**قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**)

فيعرفون الحقائق ولا ينسونها ، اما الذين لا يذّكرون ، فإنهم لا ينتفعون بالآيات لأنهم لا يربطون بين الآيـات وبين الحقائق التي تدل عليها.

دار السلام :

[127] ج / وبعد الاسـتقامة ، وأيضا بسـببها ، يسـتفيد المؤمنون السلامة والأمن في الدّنيا والآخرة.

(**لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

لأن ما يهـــــدد ســــلامة البشر ، هو التطـــــرف في الشـهوات. اما الاعتـدال فانه طريق الأمن لان العدالة في المجتمع أفضل وســيلة للامن ، والاعتـــدال في الطعـــام والشراب هو الآخر طريق السلامة الصحية ، وهكذا ..

د / اما أهم فائـدة للايمـان ، فهي الانضـواء تحت راية التوحيد والتنعم بعبادة الله وولايته.

(**وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وولاية الله هي التي توفر للبشر الاطمئنان الداخلي ، ومضــاء العزيمة ، وســلامة النية ، وبالتــالي الانتصــار في الدنيا والفلاح في الآخرة.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَـرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقـالَ أَوْلِيـاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْـتَمْتَعَ بَعْضُــنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قــالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِـدِينَ فِيها إِلاَّ ما شـاءَ اللـهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذلِكَ نُـوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضـاً بِما كـانُوا يَكْسِــبُونَ (129) يا مَعْشَــرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّـونَ عَلَيْكُمْ آيـاتِي وَيُنْـذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَـهِدْنا عَلى أَنْفُسِـنا وَغَـرَّتْهُمُ الْحَيــاةُ الــدُّنْيا وَشَــهِدُوا عَلى أَنْفُسِــهِمْ أَنَّهُمْ كـانُوا كـافِرِينَ (130) ذلِـكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُـرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غـــافِلُونَ (131) وَلِكُـــلٍّ دَرَجـــاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)

عاقبة تولّي الظالمين

هدى من الآيات :

تلك كـــانت فوائد الايمــــان كما ذكـــرت في الـــدرس الســـابق ، أما أضـــرار الكفر فأهمها هي : الولاية الباطلة فاذا كانت للمؤمنين ولاية الله فان الكفـار أوليـاؤهم الجن حيث يحشرهم الله وإياهم ، ويحاسبهم ويجيبـون انهم انما تولوا الجن طلبا للمتعة ، باعتبار المتعة ، هي الهدف العام للمشركين.

ولكن المتعة لا تبقى الّا لفـــترة محـــدودة تنتهي في الأجل المحتوم ، ثم يكون مصيره النار.

ولان الظـالمين يعملـون السـيئات ، فـإنّ الله يجعل بعضهم أولياء بعض ، ويسلط بعضـهم على بعض لان هـذه نتيجة أعمـالهم في هـذه الـدنيا ، أما في الآخـرة فبعد أن يسألهم ربهم عن سبب كفرهم ، وأنه هل كان هناك نقص في أسباب الهداية؟ فيجيبون : كلا .. بل جـاءت رسل الله ومعهم الآيـات الواضـحة وبالتـالي بعد أن يشـهدهم على أنفسهم يأخذهم بأعمالهم ، ويبين القرآن السبب الحقيقي للكفر وهو :

غرور الحياة الدنيا.

من هنا يبعث الله في كل قرية من ينــــذرها ، حــــتى ينـــذرها ، حـــتى يهلك من يهلك عن بينة وحجة واضـــحة ، وانما ينقسم النـاس درجـات سـواء في حقل الصـلاح ، أو الفساد بأعمالهم وليس عبثا.

بينات من الآيات :

لماذا عبدوا الجنّ؟

[128] بعض النـاس يعبـدون الجن ويتخـذونهم أوليـاء من دون الله. لماذا؟ وما هي حجتهم؟

أولا : حجة هــؤلاء ان الجن يمتّــون الى الله ســبحانه بصلة قـربى ، أو أنهم أقويـاء ، بيد ان الجن خلق من خلق الله ، وسيحشرون يوم القيامة ، وسيحاســبون كما الانس لا فرق ، فعبادتهم واتخاذهم أولياء لا معنى له.

ثانيا : الســـبب في عبـــادة الجن أو في اتخـــاذ بعض الانس أولياء من قبل الآخرين هو فقـدان الرؤية الســليمة للحيـــاة ، حيث يحسب البشر أنّ الهـــدف الأســـاس من الحيـــــاة هي المتعة ، ولكي يحقق رغباته في المزيد من التمتع يرتبط بـــالجن أو ببعض الانس ، وانما يتبع هـــواه وشهواته باسم اتبــاع الجن والانس ، اننا حين نتبع الحق لا نعبد الجن أو الانس ، انما نعبد الله ، والســـــبب : إننا آنئذ نقيد شهواتنا ، وننظمها وفق البرامج الالهية ، الـتي تهـدينا إليها عقولنا ، ولأننا لا نهــــدف آنئذ التمتع كهـــــدف أعلى لحياتنا ، بل نهـــدف تحقيق مســـئوليتنا في الحيـــاة وهي هدفنا.

من هنا نعـــرف : أن عبـــادة الجن نـــاتج من عـــدم الاستعداد لتحمل المسؤولية في الحياة.

(**وَيَــوْمَ يَحْشُــرُهُمْ جَمِيعــاً يا مَعْشَــرَ الْجِنِّ قَــدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ**)

يبــدو ان معنــاه أنكم. اي الجن قد جــذبتم كثــيرا من أبناء الانس لعبادتكم ، فالتفوا حولكم ، ما السبب؟

ويجيب على هــذا السـؤال الانس الـذين التفـوا حـول الجن. لأنهم هم المســـؤولون عن عبـــادة الجن ، وليس الجن المعبودون :

(**وَقالَ أَوْلِيـاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْـتَمْتَعَ بَعْضُـنا بِبَعْضٍ**)

أي إنما اتخــذناهم أوليـاء لتحقيق رغباتنا باسم الجن ، والّا فـــان المعبـــود الحقيقي هو الهـــوى وليس الجن المساكين؟

(**وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا**)

فانتهت المتعة والمهلة التي أمهلتنا إياها.

(**قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللهُ**)

حيث انه قد يرحم بعض العباد ، وينهي فـترة عـذابهم في جهنم حسب حكمته البالغة.

(**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**)

كيف يهدم الظلم بناء المجتمع؟

[129] ونسـتخلص من ذلك : أن أحد الأسـباب الـتي تجعل الكفـــار بعضـــهم أوليـــاء بعض هو ابتغـــاء المتعة ، والســـبب الآخر هو الظلم ، حيث ان الظـــالم ســـيف الله ينتقم به وينتقم منه ، فاذا شاع الظلم في المجتمع وزالت قيم العدالة والحق ،

واستطاع القوي ظلم الضعيف ، يصبح المجتمع خليطا من الظالم والمظلـوم ، كل يظلم من تحته ، ويظلم من فوقه ، وهناك يقفز الى السلطة أكثر الناس ظلما ، والسبب هو الوضع الذي صنعه الناس بأعمالهم.

(**وَكَـذلِكَ نُـوَلِّي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضـاً بِما كـانُوا يَكْسِبُونَ**)

أي بأعمـالهم الـتي يكسـبونها ، ولقد تكـرر التعبـير بالكسب للدلالة على العمل في القـــرآن ، ربما لان كل عمل يقـوم به البشر يخلف أثـرا ظـاهرا أو خفيا عنـده ، فكأنه يضيف ذلك الأثر الى سائر أجزاء ذاته.

حب الدنيا رأس كل خطيئة :

[130] تلك كـانت عاقبة الظلم في الـدنيا. ان بعض الظـالمين يـولّي بعضـا. أما عاقبة الظلم في الآخـرة فانه الهلاك بعد الادانة والتوبيخ.

(**يا مَعْشَـرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَـأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا**)

ربما قصّ الآيـات بمعـنى بيانها واحـدة بعد اخـرى ، بطريقة تـدخل القلب ، وأهم بند في الـدعوة هو الإنـذار بالعاقبة.

(**قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا**)

ولكن السـؤال : لما ذا إذا لم يقبلـوا بالآيـات ، ولم يؤمنوا بربهم؟!

السـبب هو تعلقهم الشـديد بالـدنيا. لان حب الـدنيا رأس كل خطيئة.

(**وَغَرَّتْهُمُ الْحَيـاةُ الـدُّنْيا وَشَـهِدُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ**)

فلم يكن كفـــرهم من دون وعي منهم ، بل بســـبب اعتقاد راسخ بالفكرة المعاكسة لها.

ان تصور لقاء أي إنسان ربه ، وموقفه الضعيف امـام هيبته البالغة ، يكفيه عقلا ورصـــــانة وايمانا ، إذ أنّه يكبح شهوات الفـرد موقتا ، ويثـير فيه حبه لذاته ، وسـعيه وراء تحقيق مستقبله.

لا نهلك القرى بظلم :

[131] ودليل وعي الكفـار للحقيقة ، وجحــودهم بعد اليقين ، ان حكمة الله البالغة ورحمته الواســـعة الدائمة تأبيـان الظلم للعبـاد ، وأخـذهم بجريمة ارتكبوها من دون وعي منهم ، بل بغفلة وعدم انتباه ، أو بسبب يقين مضاد.

(**ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ**)

الله قـوي مقتـدر ، ولا يملك العبـاد دونه ملجأ ، فـان كـان يسـتخدم قوته وقدرته في إهلاك عبـاده دون ان يبلغ الــدعوة الحقّة الى أعمق أعمــاقهم. أفلا يكــون ظلمــا؟! ولماذا يظلم ربنا عبـاده وهو الـذي خلقهم ، وأسـبغ عليهم نعمه ظــاهرة وباطنــه؟ إذا حين يهلكهم فهم يسـتحقون ، واستحقاقهم دليل واضح على علمهم بالحقيقة ، وكفـرهم بها ، وشـــهادتهم على ذلك يـــوم القيامة ، دليل آخر على ذلك.

[132] وعدالة الله في الحياة ظاهرة المعالم ، ولكن من أبــرز أدلة هــذه العدالة هي : أن الله يعطي كل واحد من النــاس قــدرا من العلم والمــال والجــاه يتناسب مع مقدار عمله ، ومن هنا فانه سـوف يـثيب أو يعـذّب عبـاده يوم القيامة بأعمالهم ، وبقدر تلك الأعمال أيضا.

(**وَلِكُـلٍّ دَرَجـاتٌ مِمَّا عَمِلُـوا وَما رَبُّكَ بِغافِـلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**)

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَسْـتَخْلِفْ مِنْ بَعْــدِكُمْ ما يَشــاءُ كَما أَنْشَــأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَــوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ (134) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُـوا عَلى مَكـانَتِكُمْ إِنِّي عامِـلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

لمن عاقبة الدار؟

هدى من الآيات :

لله الأسـماء الحسـنى ، فهو الغـني ذو الرحمة ، ولأنّه غــني فهو قــادر على ان يفــني الخلق جميعا ، ثم يخلق مكانه ما يشاء.

وآية اخـرى على غنـاه سـبحانه : أنه جـاء بهـذا الخلق في مكان خلق آخر كان قبله.

ولكن برحمته التامة لا يفعل ذلك فهو ذو رحمة ، بيد أنه إذا لم يفعل ذلك الآن فليس ذلك دليلا على انه لن يفعل ذلك أبــدا ، إذ ســيأتي يــوم ينتهي أجل البشر فتأتيه عاقبته دون أن يستطيع مقاومتها.

والبشر تــــؤمّن له الحرية لفــــترة معينة وذلك دليل رحمة الله به ، ولكنه سـوف يسـلب منه هـذه الحرية بعد انقضاء اجله ، وذلك بسبب غنى ربه عنه ، ولا يســلب الله رحمته الا بسبب ظلمه لذاته.

بينات من الآيات :

الغني ذو الرحمة :

[133] لربنا سبحانه أحسن الأسـماء ، وأعلى المثل ، وأسماء الله منتشرة في الكون في آياته الـتي لا تحصى ، ومعرفة أسماء الله ومظاهرها وتجلياتها في الحياة تعطينا بصيرة ورؤية واضحة ، وتهدينا الى السبيل الأقوم.

والقرآن الحكيم يـذكر هـذه الأسـماء ، بعد أو قبل أن يذكر الآيات التي تدل عليها ، والبصـائر المسـتلهمة منها ، والسلوك المعين التي تستوجبها.

والواقع ان هذا المنهج القرآني يعطي البصائر والرؤى الحياتية ركـيزة عقلية ، كما يعطي الأفكـار أبعـادا واقعية ، ونتـائج سـلوكية ، وبالتـالي يجمع هـذا المنهج بين العقل والواقع والسلوك مما تتكامل به الشخصية البشرية.

وهنا يذكرنا القرآن باسمي (الغنى والرحمة).

(**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ**)

وعند البشر لا يجتمع الغنى والرحمة عـادة لأن الغـنى عند الإنسـان مصـدره الغـير ، فيخشى البشر من فقدانه فيبخل به ، بينما غـنى الله مصـدره القـدرة المطلقة على الخلق ، كما أن رحمته محـدودة بحكمته لا تـدعها تنفلت عن اطار العدالة.

(**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ**)

وهـذا دليل على غنـاه ورحمته معا ، فلو لا قدرته ، وبالتالي غناه عنكم لما كان قادرا على تعويضكم وتبديلكم ، ولـولا رحمته لفعل ذلك أول ما ظلمتم أنفسـكم ، وهـذا دليل قدرته ، وأيضا ان رحمة ربنا محدودة باطـار حكمته ، انه فعل ذلك حين كان من قبلكم

آخرون فذهب بهم وأتى بكم.

(**كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**)

وعند ما يتذكر البشر بهذه الحقيقة يرزق الرصانة في التفكير ، والواقعية في الرؤية ، والاستقامة في السلوك ، أما رصانة الفكر فلأنه يعلم ان القـدرة المهيمنة على هـذا الكون الرحيب غنية عنه لكنها رحيمة به ، فعليه الا تسـتبد به الخفة والتكــبر والغــرور ، واما واقعية الرؤية فعليه الا ينظر الى حقائق الحياة على انها ثابتة أبـدا ، اما اسـتقامة السلوك فلأنه يتمتع بالخوف والأمل ، الخوف من استبدال الله له بــــالآخرين ، والأمل في رحمته ، وبين الخــــوف والأمل يستقيم سلوك البشر.

التسليم أو العاقبة :

[134] وما دام البشر عــــاجزا عن توقيف مســــيرة الـزمن ، أو منع العاقبة السـوءى الـتي ينـذر بها ، وما دام عاجزا عن سلب قدرة الطرف الثاني واعجازه ، فعليه ان يسلم للحقيقة ولا يتكبر عنها.

(**إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

[135] وينـذر الله الظـالمين حين يقـول : ان للحرية الممنوحة لكم وللقدرات المخولة لكم حدودا تقف عندها.

(**قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ**)

اي بقدر قوتكم ومكنتكم.

(**إِنِّي عامِلٌ**)

فهناك خطان من العمل ينتهيان عند العاقبة.

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ**)
اي من سيسكن بالتالي في دار السعادة.
ولكن مجـــــرد التفكر في العاقبة يهـــــدي البشر الى الحقيقة. إذ معلوم لمن تكون العاقبة.
(**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)

وَجَعَلُــوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَــرْثِ وَالْأَنْعــامِ نَصِــيباً فَقـالُوا هـذا لِلَّهِ بِـزَعْمِهِمْ وَهـذا لِشُـرَكائِنا فَما كـانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِـلُ إِلى شُرَكائِهِمْ سـاءَ ما يَحْكُمُـونَ (136) وَكَـذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِــيرٍ مِنَ الْمُشْــرِكِينَ قَتْــلَ أَوْلادِهِمْ شُــرَكاؤُهُمْ لِيُـرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُـوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137) وَقالُوا هذِهِ أَنْعـامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعـامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعـامٌ لا يَـذْكُرُونَ اسْـمَ اللـهِ عَلَيْهَا افْتِـراءً عَلَيْـهِ سَـيَجْزِيهِمْ بِما كـانُوا يَفْتَـرُونَ (138) وَقالُوا ما فِي بُطُـونِ هـذِهِ الْأَنْعـامِ خالِصَـةٌ لِـذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ

---

136 [ذرأ] : الذرء الخلق على وجه الاختراع ، وأصله الظهور ومنه ملح ذراني لظهور بياضه ، والذرأة ظهور الشيب.
138 [حجر] : الحجر الحرام.

عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَــــةً فَهُمْ فِيــــهِ شُــــرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْـفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) قَـدْ خَسِـرَ الَّذِينَ قَتَلُـوا أَوْلادَهُمْ سَـفَهاً بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُـوا ما رَزَقَهُمُ اللـهُ افْتِـراءً عَلَى اللـهِ قَـدْ ضَـلُّوا وَما كـانُوا مُهْتَدِينَ (140)

المظاهرة التشريعية للشرك

هدى من الآيات :

لان الله حكيم عليم (بالاضـــافة الى انه غـــني رحيم) فهو لم يحــرم الطيبــات. بينما المشــركون حرمــوا على أنفسهم كثيرا من الطيبـات افـتراء على الله ، وفي البـدء ذكر الله : ان الشـــرك في حكم الكفر بالله العظيم ، لان من ينذر لله ولغير الله ، فان نذره لغير الله سيحبط نـذره لله ، وسيجعله في نصيب الآلهة الشريكة.

والشـرك هو الـذي دفع بالمشـركين الى قتل أولادهم افتراء على الله ، وهدف الطغاة والجبابرة الذين يشركون بهم من تشجيع النـاس على قتل الأولاد يتلخص في إهلاك الشعب ماديا ومعنويا.

والله سبحانه ترك المشركين في هذا الـوادي بسـبب أنهم افـــتروا على الله ســـبحانه بـــالرغم من قدرته على ردهم بالقهر والجبر ، ومنعهم من التسـلط على مقـدرات الشعب.

وهناك تشريعات باطلة أخرى كـانت نتيجتها عليهم ان حرموا الطيبات على

أنفسـهم ، ودفعهم الى ذلك افـتراؤهم على ربهم الـذي سيجزون عليه ، وكـذلك تشـريع المشـركين الباطل الـذي يميّز بين الذكور والإناث في الانتفاع من الطيبات ، أو قتل الأولاد ، أو يحرموا ما رزقهم الله كذبا عليه.

بينات من الآيات :

متى يكون الإنفاق لله شركا؟

[136] الشـرك والكفر توأمـان ، بيد ان الشـرك كفر مغلف ، يسـتهدف إرضـاء كل الأطـراف ، وهو نـاتج عن ضـعف الارادة ، وسـوء الحكم والتقـدير ، والشـرك حالة نفسية تحاول خداع فطرة الايمان بالله ، وإشباع شـهوات النفس في عملية تلفيقية مفضوحة.

(**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعـامِ نَصِـيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا**)

قـالوا : هـذا لله لارضـاء حسّ التـدين الطـبيعي في النفس ، ولخـداع المتـدينين ، ولان ما لله لا يعـارض ما لشركائهم ، فاذا كان يعارضهم فإنهم يسلبون حـتى ما لله لشركائهم.

انهم يبنـون الجوامع الفخمة لله بـزعمهم ، انهم يطبعون نسخا من القرآن الكريم ، انهم يقيمـون صـلوات الجمعة والأعياد ، حتى انهم يحجون لربهم.

ولكنهم في ذات الـوقت ، يجعلـون للشـركاء نصـيبا ، فهم يبنون القصور من أموال المحرومين ، ويبنون الـدول على حسـاب المستضـعفين ، ويكـنزون الـذهب والفضة ، ويـدعمون الطـاغوت ، ويشـيعون الإرهـاب في البلاد ، وبالتـالي يعطـون للشـركاء كل ما في الحيـاة من لبـاب ، ويدعون القشور لربهم ، والله لا يرضى بالقشور.

(**فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ**)

الحكم الـذي جعلـوه للطـاغوت ، لا يمكن ان يكـون حكما إلهيّا يسـكت عنه ربنا أو يرضى به ، والمـال الـذي جعلوه دولة بين الأغنياء منهم لا يمكن أن يكون برضا الله سبحانه ، بل انه تعالى يمقته ويرفضه.

(**وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ**)

الصلاة الـتي لا تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، والزكـاة التي تعمق الهـوة بين الفقـراء والأغنيـاء ، وتـدعم سـلطة الطاغوت لأنها تعطى له ، والحج الذي يتحـول الى سـفرة ســياحية ، أو مـــورد ما لي للجاهلية الجديـــدة ، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر اللـذان أصـبحا سـوطا على رقـاب المستضـعفين دون المســتكبرين ، انها جميعا من طقوس الطاغوت ، وليست من شعائر الله تعالى.

(**ساءَ ما يَحْكُمُونَ**)

موقف الشريعة من تحديد النسل :

[137] وهنا يطـــرح الســـؤال التـــالي : ما هـــدف الطـــاغوت ومن حوله من ملأ المســـتكبرين ، وحاشـــية السلاطين وجلاوزة الأنظمة المفسدين؟

ان هـــدفهم أولا : استضـــعاف الجمـــاهير ، وثانيا : تضـليلهم ، ومن الطـبيعي ان التضـليل يـأتي بهـدف إبقـاء واقع استثمارهم واستعبادهم ، وكمثل بارز لهذين الهدفين أنّ الشركاء الذين يتقاسمون السـلطة مع الله ـ في زعم هــؤلاء ـــ انهم يشــيعون بين الجمــاهير نوعا من الثقافة الجاهلية تشـــــــــــجعهم على قتل أولادهم ، فمن ناحية يضـللونهم عن فطـرتهم النقية في حب الأولاد ، وضـرورة الإبقـــاء عليهم ومن ناحية ثانية يهلكـــونهم بـــذلك ، إذ أن الجيل الــذي ينقطع نســله جيل أبــتر ، وبالتــالي أصــلح للاستثمار.

(**وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ**)

وكمثل لهــذا الواقع المشــين ثقافة الجاهلية الحديثة الــتي تشــجع على تحديد النسل ، وعلى الإجهــاض في الوقت الذي تزداد الهوة الطبقية في تلك المجتمعات التي تأخذ بهذه الفكرة ، وتصرف البلايين في الحاجات الكمالية التافهة دون ان يفكــروا في أن جــزء بســيطا من هــذه الأموال يكفي لاعاشة الأولاد الذين منع من ولادتهم ، ومن بركاتهم في الحياة.

علما بأن التفجّر السكاني وسيلة طبيعية للقضاء على الطبقات المستكبرة ، لان كل فم يحتاج الى خبز ســينفتح بالاحتجاج على الطبقيّة المقيتة.

لــذلك يكــون الهــدف من قتل الأولاد هلاك النــاس وتضليلهم.

(**لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ**)

ذلك ان الــدين الصــحيح ســلاح فعــال ضد الطغــاة ، فتضليل الناس عنه هدف أساس للطغيان.

والله قــادر على أن يحطم عــرش الطغــاة ، بقدرته الغيبية ، ولكنه لا يفعل ذلك ما دام الناس غير واعين ، ولا يفكرون في نجاة أنفسهم من الطغيان ، وذلك بالكف عن الثقافة المشركة التي تفتري على الله سبحانه.

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ**)

الخرافات إفراز للشرك :

[138] حين يتمثل المنهج الشــــركي في نظــــام اجتمــاعي يتــبين ضــلالته وانحرافه أكــثر فــأكثر ، وفي الجاهلية كانوا يحرمون طائفة من الطيبـات على النـاس ، الا من

يشاءون حسب أفكارهم ومزاعمهم.

(**وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ**)

اي موقوف لا يمكن الانتفاع بهما.

(**لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ**)

اي الا لمن تشاؤه أهواؤهم وخرافاتهم.

(**وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها**)

لا لشــيء الا بســبب منهجهم الفكــري الفاسد وأهم إفــراز لهــذا المنهج انهم لا يــذكرون اسم الله على بعض الانعام.

(**وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ**)

فيتقربون بتلك الـذبائح الى الأصـنام ، أو الى الجن أو الملائكة أو بعض أبناء النـاس ، وذلك حين كـانوا يزعمـون ان كل تلك آلهة يتقرب بها الإنسان الى ربه سبحانه. حيث قالوا : «**نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى**» [1]

(**سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

على الله ، ويزعمون : ان بعض الأشياء أو الأشـخاص أبواب الله دون أن يكونوا كذلك.

ويبقى سؤال : ما هي علاقة الشرك بهذه الخرافات؟

---

(1). الزمر / 3

والجـــواب : اولا : ان الشـــرك بالله يحـــوّر القلب ، ويحجب العقل ، ويعمي البصــيرة ، فـيرى البشر الأشـياء مقلوبة ، وقد يصل به الأمر الى اعتبـــار الخـــير شــــرا ، والنافع ضارا.

ثانيا : ان كثــيرا من المحرمــات الاعتباطية نابعة من الايمان بالشركاء ، إذ ان خشية الشركاء تحرم المشركون من كثير من الطيبات.

ثالثا : ان الواقع الاجتماعي الذي يفرزه نظام الشـرك يحــرم على الشـعب كثـيرا من الطيبـات بسـبب الطبقية المقيتة ، بل العنصرية التي تسوده.

[139] وكــــان من مظـــــاهر أحكـــــامهم الباطلة ، وتشريعاتهم السخيفة ، التفرقة بين الرجـال والنسـاء مما تأباه الفطرة السليمة.

(**وَقــالُوا ما فِي بُطُــونِ هــذِهِ الْأَنْعــامِ خالِصَــةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا**)

وفي الوقت الذي كانوا يعترفون بعلاقة الزوجية الـتي هي في واقعها التكامل بين الــذكر والأنــثى ذلك التكامل الذي يدعو الى المشاركة الكاملة في الحقـوق والخـيرات كما في المسؤوليات والواجبات ، في ذات الوقت كانوا لا يكفون عن خرافة التفرقة بين الذكور والأزواج.

(**وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ**)

أي ان كان الجنين ولدا ميتا فسوف يتقاسـمه الـذكور والإناث معا.

(**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**)

انهم ســينالون عقــابهم بســبب وصــفهم الباطل ، وحكمهم غير العادل ، حيث فرقوا بين الإناث والذكور في الانتفاع بالطيبات ، والله حكيم يحكم بالعدل ، وعليم يعلم

من يخالف العدل الالهي.

اعدام الطفولة البريئة :

[140] وأسوء من التفرقة الطبقية والعنصرية وحـتى التفرقة بين الرجل والمرأة ، أسـوء منها قتل الأولاد ، تلك العـــادة الجاهلية العريقة والمتجـــددة مع كل جاهلية ، وسببها النظرة الشاذة الى الحياة ، والجهل والافتراء على الله ، والضلالة عن الحق.

(**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ**)

واي سـفه أكـبر وأخطر من أن يقـوم الفـرد بإلحـاق الضرر والخسران بنفسه ، وأن يقتل أولاده ، وهذا السـفه الـذي يـدل على قلة الشـعور ، وعـدم معرفة ما يضر وما ينفع البشر ، انه مـــــدعوم بالجهل أيضا إذ أن العلم يزيد الشعور ، ويوقظ العقل في البشر.

(**وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِراءً عَلَى اللهِ**)

لان هؤلاء افتروا على الله وما اهتـدوا بـالمنهج الالهي الـــذي يوضح للبشر كيف يســـتفيد من نعم الله عليه ، وبالتـــالي لأنهم لم يجعلـــوا الحق محـــورا لهم ، ومقياسا لأعمالهم ، وبصيرة لفهم الحياة.

لــذلك حرمــوا على أنفســهم هــذه الفرصة الطيبة ، ولكن هل ان من يقتل أولاده هو الوحيد الـذي يضـيّع على نفسه فرصة الانتفاع بالحياة ، والاستفادة مما فيهـا. كلا .. فكل من لا ينتهج نهج الله انه يخسر ما رزقه من الطيبات ، فالـذي لا يـربي أبنـاءه حسب المنهج الالهي القـويم أفلا يحـرّم ما رزقه الله ، والـذي يسـرف في الاكل فيعـرض صحته للخطر ، أو يأكل المحرمات ، أو يشرب المسكرات ، أو يتعـاطى القمـار والزنا ، أو يظلم النـاس ، أو يكـذب ويغتاب وما أشبه. انه هو الآخر يضــيع على نفسه نعم الله عليه ، فهو الآخر مثل الذي يقتل أولاده سفها بغير علم.

(**قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ**)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَـأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشـاتٍ وَغَيْـرَ مَعْرُوشـاتٍ وَالنَّخْـلَ وَالـزَّرْعَ مُخْتَلِفـاً أُكُلُـهُ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَـرَ وَآتُـوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمانِيَـةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّـأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْـزِ اثْنَيْنِ قُـلْ آلـذَّكَرَيْنِ حَـرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْـتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِـلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَـرِ اثْنَيْنِ قُـلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ

---

141 [معروشات] : العـرش أصـله الرفع ، ومنه سـمي السـرير عرشا لارتفاعه ، والعرش السقف والملك ، وعرش الكـرم (العنب) رفع بعض أغصانها على بعض ، والعرش شبه الهودج يتخذ للمرأة.

عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُـهَداءَ إِذْ وَصَّـاكُمُ اللـهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرى عَلَى اللـهِ كَـذِباً لِيُضِـلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

كيف يحرم الشرك طيبات الحياة؟

هدى من الآيات :

الله ســـبحانه هو الـــذي أنعم على البشر ، نعما لا تحصى ، فهو أعلم بسـبل الانتفـاع بها ، وما يضر وما ينفع منها ، بينما الجاهلية تحــرم وتحلل حسب أهوائها دون أن تعرف طبيعة الأشياء.

فالله هو الذي أنشأ البسـاتين والحـدائق ، وجعل فيها مختلف أنـواع الشـجر والثمر ، ولـذلك فهو سـبحانه عليم بأحكامها التي منها أن يأكل البشر من ثمراتها دون انتظار ، وأن يعطي الفقراء منها يـوم الحصـاد ، والا يسـرف في الاكل أو في العطـاء ، بل يعتـدل في كافة التصـرفات في الثمرات.

كما أن ربنا الكريم الحكيم هو الـذي أنعم على البشر بالأنعــام ليتخذ منها الإنســان ما يحمله في مســيره ، وما يجلس عليه في بيته ، وحكم هـذه الانعـام هو الانتفـاع بها بما رزقه الله منها ، ولكن دون ان تصـــبح هـــذه الانعـــام وسائل لتحقيق مطامح شيطانية كالاعتداء والبطش.

والله ســبحانه رزقنا بــازواج الضــأن والمعز والبقر والإبل ، والبشر أخذ يحـرم هـذا ويحلل ذاك ، بينما الجميع رزق الله ، والله لم يوص بهذا ، انما المفـترون هم الـذين يضلون الناس بغير علم ، وانما يضلون الناس بسـبب أنهم ظالمون ، فالظلم هو المانع عن هداية الله.

بينات من الآيات :

الطيبات .. ما لك وما عليك :

[141] ملايين الانظمة الطبيعية ، والسـنن الاجتماعية تفاعلت حـتى أنشأ الله بها الجنـات حيث اخضـرت الأرض وأثمــرت بمختلف أنــواع الثمر ، فمن دون وجــود دوافع للبشر ركزها الله في غريزة الإنسان ، ومن دون صـلاحية التربة ، ووجـود مخـازن الميـاه ، وضـوء الشـمس لم يكن البشر ينــدفع نحو زراعة الأرض ، أو يقــدر عليها ، ولكن الله أوجد تلك الدوافع ، وهيء تلك الوسائل ، فهو إذا دون غيره فرش الأرض بسجادة خضراء من البساتين اليانعة.

(**وَهُــوَ الَّذِي أَنْشَــأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشــاتٍ وَغَيْــرَ مَعْرُوشاتٍ**)

فبعض الجنــان مرتفعة عن الأرض كجنــان النخيل ، وبعضها مفروضة عليها كجنان الزرع.

(**مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشـابِهاً وَغَيْـرَ مُتَشابِهٍ**)

بعض الثمـار تتشـابه مع بعضـها ، في اللـون والطعم والصورة ، وبعضها لا تتشابه ، والتشابه قد يكـون من جهة ، وعـدم التشـابه من جهة اخـرى ، فكل الثمـار ذات نكهة لذيــذة في الطعم ، ومتعة في المنظر والفائــدة ، ولكنها تتمـيز عن بعضـها في نـوع النكهة والمنظر والفائـدة. ان روائع الإبـداع تتجلّى في التشـابه ، وعـدم التشـابه ، فلو كانت الثمار

من نوع واحد ، أو كانت أنواعا متفاضــلة لما تجلت عظمة الخلقة كما تتجلى الآن ، وقد جاءت الثمار أنواعا مختلفة ، ولكنها جميعا ذات مستوي عال من ناحية الطعم والفائـدة كل بصورة مختلفة.

وبما ان الله سـبحانه ، هو الـذي أنعم علينا بالثمـار ، فانه يفصل لنا كيفية الانتفـــاع بها ، وبين الله هنا ثلاثة من أحكامها :

الاول : حين يقول :

(**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ**)

فـاذا نضـجت الثمـرة ، يكـون أوان الاسـتفادة منها ، وعلى البشر ألّا يحــرم نفسه من طيباتها بأوهــام باطلة ، بل بالعكس عليه ان ينتفع من الثمرات والانتفاع البسيط ـ كالأكل حين تثمر الشجرة ــ حق من حقـوق كل شـخص ، اما الانتفـاع الـدائم كما إذا أراد تخـزين الثمـار وبيعها ، أو الاستفادة منها مستقبلا ، فان حق الآخرين يتعلق بها.

وهذا هو الحكم الثاني :

(**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ**)

ففي ذلك اليوم ينتظر الفقراء حقوقهم من الزكـاة أو الصدقة أو غيرهما. كحق الحصاد ، بالرغم من أن حقوقهم تتعلق بها منذ نضــوج الثمر ، وربما تــدل الآيــات على أن الاكل يجــوز قبل إخــراج الزكـاة. إذ أن الزكـاة تتعلق بما يخزنه البشر لا بما ينتفع منه ـ والله العالم ـ.

بيد ان الانتفـاع بالطيبـات يجب أن يكـون في حــدود الحاجة دون الإسراف ، وهذا

هو الحكم الثالث الذي يبينه القرآن الحكيم هنا :

(**وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**)

ولأنه لا يحب المسرفين فسوف لا ينصرهم ولا يزيدهم من نعمه.

الأنعام وفوائدها :

[142] كما في الثمرات التي تنبت من الأرض ، فكذلك في الدواب التي ينتفع بها البشر طعاما وحملا وغير ذلك ، والله هو الذي أنعم على الإنسان بالقدرة على تسخير الدواب والانتفاع بها ، وجعل الانعام قسمين : قسم منها الانعام الكبيرة التي تحمل الأثقال من بلد الى بلد كالإبل ، وقسم منها الانعام الصغيرة كالشاة التي يستفاد عادة منها في الطعام.

(**وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً**)

الكبار والصغار.

(**كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**)

فلا تحرموا على أنفسكم الحيوانات كما كانت تفعله بعض المذاهب القديمة ، ولكن من جانب آخر لا تسرفوا في الاكل ، ولا تظلموا الانعام باعتبارها مسخرات بأيديكم ، فتقتلونها صبرا ، أو تمنعون عنها الماء والكلاء كسلا وما أشبه ، كما لا تتخذوا هذه النعم وسيلة للبطش والاعتداء على بعضكم البعض.

(**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)

وبالرغم من ان للشيطان خطوات متنوعة تقود البشر الى النار ، وكلها مشمولة

للآية وممنوعة ، الا أن دلالة السـياق تـدعونا الى افـتراض ان اخطر هـذه الخطـوات هي الامتنـاع عن الاسـتفادة من بعض الأنعام افتراء على الله.

[143] يفصّل ربنا أنواع النعم الكبيرة والصغيرة ليبين انها جميعا حلال لوحدة الملاك والفائدة والهـدف ، فلما ذا يحرم البعض دون الآخر ، هل لان الله قال ذلك ، أم اتباعا لخطوات الشيطان؟!

(**ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ**)

الذكر والأنثى.

(**وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ**)

ذكر الشاة والصخل وأنثاهما.

(**مَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ**)

من الجـنين ، ان هـذا التسـاؤل يزيد الإنسـان اهتماما ويسـتجلي فطرته حـتى يحس بعـدم الفـرق الحقيقي بين هذه الأنواع من نعم الله ، لذلك قال سبحانه :

(**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

اي لا تفرقـــوا بين الحقـــائق بأوهـــامكم ، بل بعلم تتراهنون عليه.

[144] وكما في الفــرش اي الانعــام الصــغيرة مثل الضــأن والمعز ، فكــذلك في الحمولة مثل الإبل والبقر لا يمكن التفريق بين ذكره وأنثاه الا بعلم.

(**وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ**)

الذكر والأنثى لكل واحد منها.
(**قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْـهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ**)
كلا .. لم يحرم الله أيّا منهما ، إذ لا أحد يشهد بصــدق هذه التحريمات.
(**أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا**)
وبالطبع لا يستطيع أحد أن يدعي هذه الشهادة.
(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرى عَلَى اللـهِ كَـذِباً لِيُضِـلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ**)
لان هؤلاء يحفـرون خطا منحرفا للنـاس ، ويجعلـونهم يظلمون أنفسهم ، ويظلمون النـاس آلاف المـرات ، وكل سـيئات الظلم تكـون على عـاتق ذلك الـذي افـترى على الله. مثلا : الذين يفلسفون الطبقية ، ويجعلونها مشروعا. كم يفــترون من الإثم؟! إذ أنهم يتســببون في ألــوف بل ملايين الجرائم ، أليس كذلك؟!
(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)
الـذين يفـترون على الله كـذبا ، ولـذلك فهم يضـلون السـبيل القــويم ، وهنا لا بد من التــذكر بفكــرة هي : أن السبب الذي يدعو فريقا من النـاس الى اخـتراع الشـرائع الباطلة هو اتبـــاع الشـــهوة في ظلم الآخـــرين ، كما ان السبب الذي يدعو الناس الى الالتفاف حــول هـذا الفريق هو الظلم أيضا ، والظلم الصــغير يولد الظلم الكبــير الى أن يضلّ الطريق رأسا.

قُـلْ لا أَجِـدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمـاً عَلى طـاعِمٍ يَطْعَمُـهُ إِلاَّ أَنْ يَكُـونَ مَيْتَـةً أَوْ دَمـاً مَسْـفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْـرِ اللـهِ بِـهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هـادُوا حَرَّمْنا كُـلَّ ذِي ظُفُـرٍ وَمِنَ الْبَقَـرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُـــــــحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَـــــطَ بِعَظْمٍ ذلِـــــكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصـادِقُونَ (146) فَـإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

---

146 [الحوايا] : المباعر ، ومفردها حاوية وهي ما يحــوي في البطن ما اجتمع واستدار.

الأفق الايجابي

في تشريعات التوحيد

هدى من الآيات :

في مواجهة الانغلاق الذي أصيب به البعض ، فحرمـوا على أنفسهم الطيبات الا قليلا ذكر القـرآن الحكيم هنا أنه ليس تلك المحرمـات الجاهلية موجـودة في الكتـاب ، إنما هي أشـياء معـدودة ذكـرت في الآية وهي الميتة والـدم والخنزير والفسق.

بيد أنه حـــرم الله على بـــني إســـرائيل أنواعا من الطيبــات ، وذلك مثل كل ذي نــاب أو مخلب ، وشــحوم البقر والغنم ، وذلك لأنهم بغـــوا على بعضـــهم البعض ، وكلما زاد بغي البشر ضاقت عليه النعم.

والله سبحانه رحيم ، ورحمته واسعة ، ولكنّه في ذات الوقت شديد العقاب ، لا يسـتطيع المجرمـون الفـرار من عقابه.

وتأتي هذه الآيات لتؤكد الفكرة السابقة وهي ضرورة الاستقامة على الخط السـليم دون زيـادة أو نقصـان. لأن الأحكام الشرعية مرتبطة بالمصالح الواقعية التي

لا تتغير.

بينات من الآيات :

دود الحرام :

[145] يزعم البعض أن الدّين معتقل حصين لطاقات البشر ، لا يدعها تنمو وتتكامل ، وأن كل شـيء في الـدين حرام الا ما استثناه الله ، والله سبحانه ينفي هذه الفكـرة الباطلة مرة بعد اخرى.

وفي هذه الآية يشرح الله سـبحانه أصل الحلية التامة الا في أشياء معيّنة ، وبذلك يشجع البشر على التمتع بنعم الله ، الا إذا سبّب ضررا بالغاء عليه.

(**قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً**)

اي خارجا من الجسم بانـدفاع ، اما الـدم المتبقي في ثنايا اللحم فانه معفو عنه.

(**أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ**)

بـالرغم من ان ظـاهره طيب ، ولكن واقعه رجس ، يولد أنواعا من المـــرض كما يطبع طاعمه ببعض الأخلاق الذميمة.

(**أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ**)

ان الذبيحة الـتي تهـدي للصـنم حـرام لأنها جـزء من واقع الشرك فلذلك هي فسق وحـرام ، ولكن مع كل ذلك فان هذه المحرمات تصبح حلالا في حالة الاضطرار إليها ، والاضـطرار يعـني : أن يصـيب الفـرد في حالة تركه لها ضـررا كبـيرا لا يتحمله ، فليس بضـرر ذلك الـذي يلحق الظالم حين يترك ظلمه أو يلحق المسرف والمتجاوز

حده حين يعود الى حده ونصـابه ، لان الضـرر انما يقـاس بمعيار الحق القائم على العقل والفطرة ، وتميـيز العـرف العام ، ولذلك فان معايير الظالمين والبغاة أو المتجاوزين بالسرف والترف لا تعتـبر معـايير كافية ، ولـذلك جـاء في تفاسير الصادقين عليهم السلام :

(إن البغـاة هم الخـارجون على امـام الأمة ، والعادون هم : العصاة)

ولا ريب أن هذا واحد من المصاديق لهـاتين الكلمـتين في حين تشـــمل الآية كل بـــاغ وعـــاد ، وبكلمة ان البغي والعـدوان في هـذه الآية ـ حسب ما يبـدو لي ـ مرتبط بالمعيار ، فاذا كان معيار الاضطرار سليما يجوز الاستفادة من هذا القانون والا فلا.

(**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْـرَ بـاغٍ وَلا عـادٍ فَـإِنَّ رَبَّكَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

مغفرته تتجلى في عدم أخذ من يأكل الميتة اضطرارا بـــالرغم من حرمته في الواقع ، ورحمته تتجلى في خلقه سائر الطيبات.

ملحقات المحرمات :

[146] مبدئيا لا يحـرم الله الطيبـات على البشر ، بل الخبـــائث ، وهي اســـتثناء وليست أصلا ، وبالتـــالي فهي معـــدودة كما عرفنا ، بيد ان ربنا قد حـــرم وفقا لحكمة معينة طائفة من الطيبـــات لاســـباب خارجية مثل تـــأديب المجتمعـــــات المائعة والظالمة ، مثلا : حـــــرم الله على اليهود كل ذي ظفر ، وهو الحيوان الذي يستخدم اظــافره ســلاحا لصــيده. مثل الســباع ، والطيــور ذات المخــالب (كالعقـاب) وقيل : ان هـذه الكلمة تشـمل الإبل والأنعـام لأنهما وأمثالهما ليست بمنفرج الأصابع.

(**وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**)

وشمل تحريم ربنا الاستثنائي على بني إسرائيل شحوم البقر والغنم ، الا تلك الشحوم المتراكمة على ظهورها ، أو الموجودة على مقاعدها ، أو تلك الشحوم المختلطة بعظم.

(**وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ**)

والسؤال : لماذا حرم الله كل تلك الطيبات عليهم؟

يجيب ربنا : ان بني إسرائيل ظلموا وبغى بعضهم على بعض ، فحرم الله عليهم بعضا من الطيبات ، ويبقى سؤال : لماذا يتسبب البغي في الحرمة؟

والجواب : ان السنن التي نسميها بالانظمة الطبيعية لا تختلف عن الأحكام التشريعة الا في شيء واحد هو أن تلك يجريها ربنا على الكون وعلى البشر قهرا ودون أي تغيير وتبديل ، بينما الأحكام الشرعية. يأمر بها الناس ، ويحذرهم من عاقبة تركها ، لذلك فان هاتين السنّتين الطبيعية والتشريعية تلتقيان في الخطوط العامة ، لأنهما تصدران من منبع واحد ، وبما أن النهاية الطبيعية للبغي في المجتمع هو انحسار النعم عنه وتضييق الخناق عن أبنائه ، فان ذات النهاية يحكم بها الله سبحانه على مجتمع البغي ، وذلك بتحريم طائفة من الطيبات عليه.

(**ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ**)

ذو الرحمة والبأس :

[147] ان كل واحد من البشر يتصور الله على شاكلته وحسب مشتهياته ، كما يتخذون ذات الصورة لسائر الحقائق ، والمذنبون من الناس يضخمون في أنفسهم صفة الرحمة والعفو لله دون أن يتذكروا صفات الغضب والبأس والعقاب له سبحانه ،

ولــذلك فهم يكــذبون من يحــذرهم الآخــرة ، ويوعــدهم العذاب.

(**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ**)

وتكـذيب رحمة الله مخـالف للفطـرة ، ولما نشـاهده في عالم الواقع ، ولذلك أكد الأنبياء هذه الصـفة الحسـنى لله ، ولكنهم أكدوا على الصفة الاخرى أيضا.

(**وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**)

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

الشرك بين التصور والتوهم

هدى من الآيات :

حين يكـــون معيـــار الحق والباطل عند البشر ذاته ، وليس الواقع والحقيقة ، يـــزعم أنّ كلما يفعله يطـــابق الحقيقة عند الله ، وان أعماله وأقواله تســتمد شــرعيّتها من الله عز وجل ، إذ ما دام يعتقد هو بها وان ما تعتقــده نفسه فهو صـــحيح. إذا فالله أيضا أمر به لـــذلك ينسب المشـــركون من أهل الكتــاب أو من غـــيرهم شـــركهم وتشـريعاتهم الى الله ، ولكن الله سـبحانه لم يصـدقهم إذ عـــذبهم ببأسه في الـــدنيا قبل الآخـــرة حـــتى ظهر لهم ولغـيرهم أنهم ليســوا على حق ، ويتســاءل القــرآن كيف يزعمــون أن أفكــارهم صـحيحة. هل علما بــذلك أم ظنا وتوهما؟!

الله لا أنا وأنت فالـــذي عنـــده الهـــدى ، وله الحجة البالغة على الهـدى ، وهو قـادره على هداية النـاس اليه ، أما هــؤلاء فــإنهم يكــذبون بــالحق ولا حجة لهم عليه ، ولا شهود صادقين ، ولذلك أمرهم القرآن بإحضار شهداءهم ، ولكنه نهى عن الشهادة لهم لأنهم.

أولا : يتمحورون حول ذواتهم وأهوائهم.
ثانيا : يكذبون سلفا وبلا تردد بكل العلامات التي تـدل على الحق لأنهم لا يهدفون بلوغ الحقيقة.
ثالثا : انهم يكفـرون بـالآخرة ويقصـرون حيـاتهم على الدنيا.
رابعا : وأخـــيرا إنهم لا يمـــيزون بين الله وبين خلقه سبحانه.

بينات من الآيات :

جذور الانحراف :

[148] ويـاتي هـذا الـدرس في بيـان الجـذور الخبيثة للتشريعات البشرية الباطلة في القضـايا الاجتماعية الـتي بســـببها يتبع البشر هـــواه ، ويعبد ذاته ، ويـــترك الحق ومسـئوليته ، ويتشـبث بتصـورات باطلة وأوهـام بعيـدة تستمد شرعيتها من الهـوى ، فيقـول بالحتميـات الباطلـة. مثلا : ان الليل والنهـار وحـوادث الحيـاة هي الـتي تجـبره على اتخـاذ مواقفه ، أو يقــول : ان الله أجــبره على ذلك لان الله هو خالق ما في الوجـود ، والقـاهر فـوق العبـاد ، فهو الــذي اضــطره على ذلك أو ما أشــبه ، أو يتشــبث بالخرافة الباطلة التي تقـول : ان الله فـوّض أمـور العبـاد الى أنفسهم ، فهم يقرّرون لها ما شاءت عقــولهم ، (وهنا يخلطون بين العقل والهوي خلطا متعمدا عجيبا).
وسـواء تشـبثوا بهـذا النـوع من التصـور أو ذاك فـان الهدف منه شيء واحد هو إعطاء الشرعية لعبادة أهوائهم ، والتمحور حـول ذواتهم ، واعتبـار افكـارهم وتشـريعاتهم مقدسة ، بل ومدعومة من قبل الله من فـــــــوق عرشه سبحانه ، وهذه آخر مرحلة من الضلالة عند البشر.
(**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شـاءَ اللـهُ ما أَشْـرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ**)

فالله كـان قـادرا على منعنا من الشـرك ، والتشـريع الباطل ، فلم يفعل فهو راض بما نفعله ، ويجيب القـــرآن الحكيم على ذلك :

أولا : ان هذا الفريق هو الذي يكذب بالحق لذلك فهم يتشابهون مع كل من يكذب بـالحق في التـاريخ علما بـأن أحد الطـرق لكشف حقيقة جماعة هو الكشف عن التيـار العام الذي يقعون فيه ويتسابقون معه ، فـإذا مصـدر هـذا الـزعم وسـببه هو انهم يكـذبون بالحقـائق ، وإذا عــرف الداعي النفسي الى فكرة ما افتضـحت طبيعتها وحقيقتها ، مثلا : إذا عـرفت ان زيـدا الـذي يتحـدث عن فكـرة انما يتحـدث عنها لأنه ينتمي الى حـزب كـذا عـرفت جـوانب كثيرة من الفكرة.

ثانيا : ان النهاية الـــتي جعلها الله لمثل هـــؤلاء هي العــذاب الشــديد. إذا فهم ليســوا بخــارجين عن دائــرة المسؤولية التي من أجل الهـروب منها تشـبثوا بمثل هـذه الأفكار الباطلة.

(**كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا**)

ثم ـ وبعد ان يشكك هـؤلاء بأفكـارهم ـ يطـرح عليهم هذا السؤال : هل هـذا علم أم ظن؟ ان مجـرد طـرح هـذا الســؤال يعــني جعل شــرعية الأفكــار مناطة بــالعلم لا بالمصلحة ، وبالتالي فضح جـذور الفكـرة ، وأنها نابعة من الهوى ، وبما انهم لم يدّعوا العلم لأنهم لا يعترفون بـالحق (بل بـذاتهم) حـتى يبحثـوا عن العلم الـذي يهـديهم اليه ، ولكن مع ذلك لا يمكنهم انكار شرعية العلم.

ثم يؤكد القرآن الحقيقة في أمر هـؤلاء ، ويقـول : ان اعتماد هؤلاء هو على التصور والوهم والتصـور (الظن) هو الكذب المتعمد ، والوهم هو الشك (الخرص).

(**قُــلْ هَــلْ عِنْــدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُــوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا**

تَخْرُصُونَ)

وهم لا يستطيعون انكار ذلـك. إذ انهم لو أنكـروه فقد فتحوا باب المباحثة البناءة ، والحوار الفاعل على أنفسهم ، وهو يضــرهم لأنه يعيد الشــرعية للحق والعلم لا للهــوى والظن.

لا للحتمية :

[149] لم يحتم الله على البشر الضـــلالة ، ولا رضي بها. إذ لم يجبرهم على ترك ضلالتهم ، بل وفّر لهم فرصة الهداية كاملة ، فأعطــاهم الحجة البالغة ، وبقي عليهم ان يقومـوا بـدورهم في اسـتيعاب الهداية ، كما ان الله قـادر على أن يجــبر النــاس على الهداية ، ولكنه لم يفعل ، كما لم يجـبر النـاس علي الشـرك .. فليس تركه للنـاس دليلا على رضاه سبحانه لأنه أتم الحجة عليهم.

(**قُــلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَــةُ فَلَــوْ شــاءَ لَهَــداكُمْ أَجْمَعِينَ**)

الاستشهاد :

[150] احدى الوسائل الفعالة لتمييز الحق عن الهوى ، والعلم عن الظن ، والصــدق عن الكــذب ، هي طـــرح الأفكار على عقول الناس ، واستشهادهم عليها ، ذلك لان الناس حـتى ولو كـانوا يتبعـون الهـوى والظن فـإنهم حين يقيّمون أفكار الآخـرين ، فليس من الضـروري القبـول بها أو التصديق ، ذلك لان مصالح النـاس مختلفة ، وأهـواءهم متفاوتة ، وبالتـالي كل حـزب بما لـديهم فرحـون. بيد أن شهادة الناس ليست دليلا على الحق ولو كـانت دليلا على بطلان الهــوى. فهي مفيــدة ســلبيا فقط (تنفي ولكنها لا تثبت).

(**قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ**)

أي اجمعــوا شــهداءكم ، لأنه بجمعهم تفــترق كلمتهم لأنها باطلة ، ولــذلك من وســائل كشف عصــابة الاجــرام جعلهم جميعا يشـــــهدون على الواقعة فـــــنرى كم أنهم يختلفون ، بل ويتناقضون مع بعضهم لأنهم ان اتفقـوا على مخالفة الحق فلن يتفقوا على نـوع الباطل ، لـذلك فصّـل القرآن وقال :

(**الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا**)

ولكن الاتفاق على الباطل لا يصبح دليلا عليه.

(**فَـإِنْ شَـهِدُوا فَلا تَشْـهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا**)

والقـرآن الحكيم يـبين هنا المزيد من جـذور الشـرك. حيث يبين ان السبب في عدم اتبــاع الحق لا تلفها الهـوى هو عدم الايمان بالآخرة هـذا أولا ، ثانيا : عـدم معرفة الله وخلط الله وخلط الله بخلقه.

(**وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**)

ومن يعدل الله بخلقه لا يعرف الله ولا خلق الله.

قُلْ تَعالَوْا أَتْـلُ ما حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوالِـدَيْنِ إِحْسـاناً وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُـوا الْفَواحِشَ ما ظَهَـرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُـوا النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

151 [إملاق] : الاملاق الإفلاس من المــــال ، ومنه الملق والتملق لأنه اجتهاد في تقرب المفلس للطمع في العطية.

هكذا يفسد الشرك

النظام الاجتماعي

هدى من الآيات :

بعد بيان المحرمات المعدودة التي ترتبط بالماديات ، جـــاء دور المحرمـــات الاجتماعية الأكـــثر أهمية والأكـــثر مصداقية والأكثر صعوبة ، وهي كالتالي :

أولا : الشرك بالله.

ثانيا : الإحســان الى الوالــدين ، اي حرمة إيــذائهم ، وحرمة إهمال حقوقهم.

ثالثا : حرمة إهمال حقوق الأولاد من الفقر.

رابعا : الفــواحش الــتي بينها الله في كتابه ، ســواء الخفية منها أو الظاهرة.

خامسا : قتل النفس المحرّمة.

هذه وصايا ربنا التي تنفعنا ، والتي يمكن لنا أن نعقلها ببساطة.

بينات من الآيات :

حرمات الله :

[151] الجاهلية بشــكلها القــديم والجديد ، الظــاهر والمغلف تحـاول تضـخيم جـوانب من الـدين على حسـاب جوانب اخرى هي الأهم والأصعب ، وهي المحتوى واللباب ، ورسالة الله تذكر الناس بـأن الـدين لا يبعّض ، وأن ذلك التضـخيم والمبالغة والاحتيـاط في غـير محله ، بل حـرام أساسا ، وفي الآيــات الســابقة رأينا كيف ان الله بيّن ان تحـريم الجاهلية للطيبـات من الـرزق ، باسم الـدين كـان باطلا ، بينما المحرمـات تلك كـانت محـدودة بل وجانبية ، أما المحرمات الكثيرة والاساسية التي تناساها الجـاهليون القشريون عمـدا ولخطورتها وأهميتها فهي الـتي تـذكر بها هـذه الآيـات ، فعلينا الاهتمـام بها ان كنا فعلا مؤمـنين ولا نخادع أنفسنا في الدين.

المحرمــــات الاساســـية هي الـــتي تنظم الحيـــاة الاجتماعية للإنســان ، ابتــداء من حيــاة الاســرة وحــتى السياسة ، ولكن كــــلّ الانظمة الاجتماعية في الإســـلام مصطبغة بالتوحيد ورفض الشرك بالله سبحانه ، لذلك بدء الله هويته به وقال :

(**قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْـرِكُوا بِهِ شَيْئاً**)

يجب ان نخلص العبــادة لله ســبحانه ، والّا نخضع أو نستسلم لشيء من دون الله ، والا نقبل ضـغطا أو زورا ، بل يكـون بنـاء حياتنا على الحرية المطلقة (إلا في حـدود القانون) والعزة والكرامة.

محتـوى التوحيد هو الحرية والحرية ممارسة وسـلوك وفعل يقـوم به الشـخص ذاته قبل ان تكـون حقا ، ونظاما وانفعالا. كلا .. فحريتي تبـدء حين أرفض الخضـوع لشـيء أنّى كان اسمه لاني اعتبر كل شيء خاضعا لله ، وانا أيضا خاضع لله

ولقانونه ، ولمن أمــــرني باتباعه ، وفيما وراءه لا شــــيء يمكن أن يخضــعني لا الــثروة ولا الســلطة ولا الإرهــاب الفكري أو التعذيب.

الشرك اولا ثم الروابط العائلية :

وإذا ساد في المجتمع نظام الشرك ، فـان القـانون لا يمكن ان يكـون الهيا لان كل بند من بنـود القـانون ينقض تحت ضغط الثروة أو السلطة أو الإرهاب الفكـري. لـذلك بـــدء الله النهي عن المحرمـــات الاجتماعيّة بـــالنهي عن الشـرك لأنه الشـرط المسـبق لتنفيذ سـائر المحرمات.

وبعد ان نتعهد بالتسليم لله وحده لا لشـيء آخر يـأتي دور بناء العلاقات الاجتماعية وأهمها العلاقة بين الأجيال ــ بين الجيل السـابق (الوالـدين) والجيل اللاحق (الأبنـاء) ــ العلاقة مع الوالدين يجب أن تكون علاقة الإحسان.

(**وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً**)

والإحسان هو : العطاء الفضل الذي يتجاوز الحق الى الخير ، وهو بالتـالي لا يعـني التسـليم المطلق (كما تعـني العبادة) كما لا يعني الطاعة للوالدين. إذ أن الطاعة تعـني بـــدورها الخضـــوع ، والمـــؤمن لا يخضع لغـــير الله ، نعم الطاعة بمعنى قبول عـرض منهما بالنسـبة الى عمل دون أن يكون ذلك فرضا من قبل الوالـدين أو تسـليما من قبل الأولاد ، هذه الطاعة مطروحة.

والمنطق المتخلف جعل التســــليم للوالــــدين واجبا شرعيا ، فكـرّس الـروح العشـائرية في النفـوس ، بينما لا نجد في الإسلام سوى الأمر بالإحسـان الى الوالـدين ، بل وجـدنا بـالعكس من ذلك تماما ، نهى الإسـلام عن الاتبـاع الأعمى للآباء ، وهذا ما يجرنا اليه المنطق المتخلف.

وكما يجب التسليم لله والإحسان الى الوالدين لا بد أن تكون علاقة الإحسان هي العلاقة السائدة بين أبناء المجتمع ، أما العلاقة بين الإنسان وبين أبنائه وعموما الذين هم أقل منه مستوي فهي علاقة المحافظة عليهم ، وألّا يزعم الأب ان أولاده منافسين له فيقتلهم خشية أن يتأثر وضعه الاقتصادي بهم.

(**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**)

الاملاق هو الفقر ، والجاهلية هي التي تجعل الاختلاف صراعا ، والصراع حادا الى درجة التناقض ، فتجعل النظرة الجاهلية ضيقة (والتي هي نظرة الشرك) الآباء وكأن بينهم وبين الأبناء صراعا على البقاء ، ولذلك كانوا يقتلون أولادهم قديما ، أو يجهضون أولادهم بزعم أنهم يزاحمونهم في نعم الحياة ، أو يمنعون النسل بهذه الحجة.

هذه النظرة الشركية هي التي أوحت الى الماركسية بتصور التناقض الحاد بين أبناء المجتمع ، كما أوحت الفرويدية بأن الابن الذكر ينازع أباه على أمه والأنثى تنازع أمها على أبيها.

بينما النظرة التوحيدية السماوية توحي الى الإنسان بحقيقة التكامل في الحياة ، وأن نعم الله ليس فقط تسع كل الناس من دون صراع حاد ، بل وأيضا أنها تزداد كلما ازدادت العناصر الطالبة لها ، وربما لذلك أشارت الآية الى ان الرزق سيتناوله الآباء قبل الأبناء في حالة تواجدهم مع بعضهم.

ما هي الفواحش؟

العلاقة الحسنة بين الآباء والأولاد تتكامل مع العلاقة السليمة بين الزوجين ، حيث يجب أن تكون علاقة البناء لا الهدم ، والزواج لا الفاحشة ، لذلك حرم الله الفواحش كلها.

(**وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ**)

قد تكون الفاحشة ظـاهرة كالزنا والشـذوذ ، والعـادة السـرية وما إليها ، وقد تكـون باطنة وهي الـتي لا تحقق أهداف الـزواج السـامية كالصـداقة مع النسـاء ، أو حـرف الغريـزة بما تخـدم أهـداف الشـيطان كالاكتفـاء بالصـور الجنسية أو بالافلام الخليعة عن العلاقة الجنسيّة السليمة.

وقد يكون من مصـاديق الفاحشة الباطنة عـدم إيجـاد جو التكامل في محيط البيت بما يخدم مصلحة الطرفين ، أو عــــدم أداء الحقـــــوق الواجبة من قبل أيّ واحد من الطـرفين كـالمهر والنفقة والتمكين ، أو أن تكـون نظـرة أحد الـزوجين متوجهة الى غـير زوجه من سـائر الـذكور والإناث.

وكـذلك قد تكـون من الفاحشة الباطنة أن يسـتهدف كل من الزوجين إشباع غرائزه دون أن يفكر في مصـلحة الطـرف الثـاني ، فلا يتبع غريزته في وقت هيجانها ، أو لا يفكر في تكامله ونمــوه وراحته بقــدر ما يفكر في نفسه فتكون قرارته ذاتية بحته.

هذه علاقة الزوجين ، أما علاقة الناس ببعضهم فيجب أن تكون تكاملية ولا تكـون حدية نابعة من نظـرة الشـرك التي توحي أبدا بالصراع الباطل.

(**وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ**)

فقتل النفس المحرمة مظهر من مظـــاهر الصـــراع الشـركي ، وحين يجب تصـفية أحد جسـديا ، كما إذا كـان قاتلا أو مفسدا في الأرض فانه يجب ذلك.

ان هـــذه المحرمـــات هي مما يـــذكّر بها الله ليفتح العقول بهـا. إذ أنها مرتكـزة في فطـرة البشر لـذلك عـبر القرآن عنها بالوصية التي هي خير ظاهرة للإنسان.

(**ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

وَلا تَقْرَبُـوا مـالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْـطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسـاً إِلاَّ وُسْـعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْـدِلُوا وَلَـوْ كـانَ ذا قُـرْبى وَبِعَهْـدِ اللَّـهِ أَوْفُـوا ذلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَـاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُــوا السُّــبُلَ فَتَفَــرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَــبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

---

152 [أشــدّه] : الأشد جمع شد ، والشد القــوة وهو اســتحكام قــوة الشباب اي حتى يبلغ قوى شبابه ، وهو انما يحصل بالبلوغ والرشد.

وهكذا ينظم التوحيد

الحياة الاجتماعية

هدى من الآيات :

بعد أن تحدث القـرآن عن ادانة منطق الشـرك الـذي يدعو الى الصراع والتناقض ، فحرم القرآن جانبا من آثـار هـذا المنطق الباطل ، بعدئذ نهى القـرآن عن آثـار هـذا المنطق في الواقع الاقتصادي للمجتمع ، حيث يسـعى كل فريق نحو ابتزاز الآخرين ، فحرم الله الاعتداء على أموال الآخـرين وبالـذات أكل أمـوال الضـعفاء كالأيتـام ، وأكل الأموال بطرق ملتوية كـالغش ونقص المكيـال والمـيزان. صحيح أن الفرد حين المعاملة يتـدخل ما له بـأموال غـيره من حيث لا يريد ـــ وهو ليس بحـرام ـــ لان الله لا يكلف الإنسان إلّا بقدر طاقته ، ولكن حرام أن يتعمد ذلك تعمـدا ، أو على الأقل يعمل بالتطفيف في الميزان.

ولـــذلك أيضا أوجب الله الاســتقامة على الطريق ، وعـــدم الانحـــراف عنه يمينا أو شـــمالا ، وذلك بقبـــول القيادات الباطلة ، أو الخضـوع للتيـارات المنحرفة ، وهـذا هو لب التقـــوى ، ومحتواها الحقيقي الـــذي لا يصل اليه الإنسان إلّا باجتهاد عظيم ، وجهاد

أعظم.

بينات من الآيات :

كيف نتصرف في مال اليتيم؟

[152] من المـيزات الهامة في التشـريعات القرآنية هي الواقعية ، فتـأتي واجبـات ومحرمـات القـرآن مطابقة لانحرافات الواقع الخارجي ومركزة عليها. مثلا : في بــاب الاقتصــاد لا يكتفي القــرآن ببيــان حق الملكية الخاصة ، وحرمة الاعتـداء على أمـوال النـاس ، بل ويهتم أبـدا بتلك الحلقات الأكثر عرضة للاعتداء ، فيركّز حديثه عليها ، ولذا يتوقّف المجتمع عن الاعتـداء في الحلقـات الأكـثر عرضة للاعتداء ويسرا ، فأنه بـالطبع لا يعتـدي على غـيره ، ومن هنا ذكر القــرآن الحكيم هنا مــال اليــتيم ، والنقص في المكيال والميزان ، أما مال اليتيم فلأنّ صـاحبه ضـعيف لا يقدر على المطالبة به ، ولأنه أيسر وأقرب للضـياع ، واما النقص في المكيال فلأنّه أسلوب شــائع وبعيد عن ملاحقة القانون لان من الصعب التعرف عليه.

(**وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)

اي من أجل تنميته ، أو المحافظة عليه ، وإلّا فلا يجوز أساسا وضع اليد على مــال اليــتيم لأنه لا يعــرف رضا صاحبه بذلك.

(**حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**)

فاذا بلغ أشده ، وبلغ سن الكمال وكـان رشـيدا فلا بد ان تعـاد اليه أمواله ، ولا يجـوز حـتى التصـرف بـالتي هي أحسن فيها ، كما جاء في آية أخرى.

«**وَابْتَلُـوا الْيَتـامى حَتَّى إِذا بَلَغُـوا النِّكـاحَ فَـإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ**

أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا» [1]

وقد يكون بلوغ النكاح وحده نهاية السماح بالتصرف في أموال اليتيم لأنه بعد ذلك سيصبح سفيها ، ومسئول عن أموال السفهاء من جهة اخرى.

(**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ**)

فيحرّم الغش في المكيال لأنه نوع خفي للاعتداء على ثروة المجتمع ، وعلاقة شركية وليست توحيدية بين أبناء المجتمع ، والوفاء بالكيل واحد من مصاديق احترام حقوق الآخرين أشار اليه القرآن لمعرفة سائر المصاديق مثل الغش والغبن ومماطلة المدينين ، واستعجال الدائن.

في المجتمع الاسلامي الذي تسود علاقاته نظرة توحيدية لا يقتصر الفرد في النظر الى نفسه ، بل الى الآخرين أيضا ، ويرى ان بلوغ الآخرين الى مآربهم جزء من أهدافه ، بل هو طريق لبلوغه هو الى مآربه.

(**لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها**)

الوفاء بالكيل وعدم بخس الميزان لا يعني ضرورة الدقة العقلية في ذلك مما يصعّب عمليّة التبادل التجاري ، بل يعني أن يكون هدف الفرد القسط ، ولا يتعمد التجاوز على حقوق الآخرين ، ومن هنا جاء في الآية الكريمة : أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها. أي حسب استطاعتها دون حرج أو عسر ، ذلك لأنّ المجتمع المسلم تنتشر فيه روح المسامحة والإحسان الى جانب الالتزام بالحقوق.

المسؤولية الاجتماعية :

وحين يلتزم سائر الإفراد بالحقوق تنتهي المشكلة ، ولكن إذا تعاسروا واختلفوا

---

(1) النساء / 6

فـان أبنـاء المجتمع يجب أن يصـبحوا قضـاة عـدولا ، ولا يحكمـوا ضد أو مع هـذا وذاك ، من دون دليل ثـابت حـتى ولو كـان الشـخص من اعــدائي أو من اقــاربي. لا بد ان يكون كلامي عدلا.

(**وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى**)

وإذا امتلك المجتمع روحا قضـائية عادلة حكم أبنـاؤه لصاحب الحق وضد الظالم انّى كان ، فانه يصبح ذا مناعة كافية عن انتشــار الظلم فيه ، وعن نمو الجريمة ، إذ أن الظالم لا يبدأ ظلمه بظلم كبير ، وكذلك المجرم لا يقترف جرائم كبيرة مرة واحدة ، انما يتدرج نحوها شـيئا فشـيئا ، فـاذا ظلم الشـخص مـرة فعارضه أقـرب رفاقه وأقاربه فســوف ينســحب لصــالح المظلــوم ، يتــأدب ، ويتخذ لمسـتقبله درسا لا ينسـاه ، وكـذلك المجـرم لو قـام في البــدء بجريمة صــغيرة في محيط معــارض له فســوف يتوقف عن الاستمرار في الجريمة.

(**وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا**)

هناك صلات طبيعية بين أبنـاء المجتمع كصـلة الآبـاء ، بالأبنـاء ، وقد سـبق الحـديث عنها في الـدرس السـابق ، وهنـاك صـلات حضـارية أساسـها التعـاون على الخـير ، والمصـالح المشـتركة وقد تحـدث عنها القـرآن في هـذا الدرس ، بيد أن شرط بقاء هذه الصلاة هو تحكيم النظـرة التوحيدية في العلاقـات ، وذكرها الله سـبحانه متمثلا في حرمة الحقـوق ، وعدالة القضـاء ، والآن ذكر الله سـبحانه العهد باعتباره الحبل المـتين الـذي يشـدّ المجتمع ببعضه ، ومن دون تقديسه واحترامه لا يثق المجتمع ببعضه ، فيختل التعــاون ، بل يســتحيل التعــاون ، إذ لا يمكن أن تعوّض القوانين المستوردة والضـابط الالكـتروني بالعهد ، حيث إن البشر قــادر على تجاوزها والالتفــاف حولها ، ولكنه لا يستطيع تجاوز ضميره ، والالتفاف حول وجدانه.

وقد جعل الله العهد بين النـــــــاس وثيقة بينه وبينهم مباشـرة فسـماه عهد الله حـتى يعطيه الضـمانة الايمانية لاجرائه.

ان هـــذه وصـــايا ربنا الاجتماعية الـــتي لو أمعنا فيها النظر لرأينا أنها حقائق واضحة كنا غـافلين عنها ، فـذكرنا ربنا بها :

(**ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)

الخطوط السياسية في المجتمع :

[153] في الآيـات السـابقة بيّن الله ضـرورات بنـاء المجتمع المتكامل ، وعلاقاته الداخلية بينما في هـذه الآية يـبين الله وجهة هـذا المجتمع العـام ، وتياراته السياسـية وعلاقاته العامة ، فيـأمر الله المسـلمين باتبـاع الصـراط المستقيم الذي لا ينحرف مع ظروف سياسية متغيرة.

(**وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَـاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**)

الجماعة السياسية تعيش كما الفـرد في المجتمع بين تيـارات مختلفة منشـؤها سـائر المجموعـات السياسـية المجاورة لنا ، وكما على الفـرد ان يلـتزم خط الاسـتقامة بين افـراد المجتمع كـذلك المجموعة السياسـية يجب أن تلتزم بالحق بين سائر المجموعات.

(**ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)

وحيث يكون الخط السياسي العام خطا صحيحا يكون من السـهل على أبنـاء هـذا المجتمع الالـتزام بالواجبـات الشرعية والتقوى عن المحرمـات ، بينما لو لم يكن الخط العـام كـذلك فـان مسـاعي الإفـراد في الالـتزام بالخط الاسلامي تكون قليلة الجدوى.

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَــى الْكِتــابَ تَمامــاً عَلَى الَّذِي أَحْسَــنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهـذا كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ مُبـارَكٌ فَـاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ (155) أَنْ تَقُولُـوا إِنَّما أُنْـزِلَ الْكِتــــــابُ عَلى طــــــائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْـدى مِنْهُمْ فَقَـدْ جـاءَكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُـدىً وَرَحْمَـةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَـذَّبَ بِآيــاتِ اللــهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُـوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

اتباع الكتاب شرط التوحيد

هدى من الآيات :

هناك خطان في الحياة. خط الشرك والضلالة ، وخط التوحيد والهـدى ، وفي الـدرس السـابق بين الله سـبحانه جانبا من مفارقــات هــذين الخطين ، وما فيهما من آثــار ســلوكية ، وفي هــذا الــدرس يــبين فكــرة خط الرســالة عموما. فيقول : ان الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى لكي يكون نعمة تامة للمحسنين ، ولكي يفصّل به شــرائع الحياة تفصيلا ، ولكي يهدي الناس الى الحقائق مباشـرة ، ولكي يوفر لهم الحياة الآمنة السعيدة ، وأخيرا لكي يـربّي فيهم التطلع الانســاني الأرفع الــذي يتجــاوز الــدّنيا الى الآخرة.

وكــذلك انــزل الله مثل ذلك الكتــاب عليكم ، فعليكم اتباعه ، وأن تتقوا الله باتبـاع مناهجه ظـاهرا وباطنا حـتى تتـوفر لكم حيـاة سـعيدة ، وهـذا الكتـاب فيه زيـادة على كتاب موسى ، فهو مبارك.

وانما انــــزل الله الكتــــاب أيضا لكي يتم الله حجته عليكم ، فلا تقولوا يوم القيامة

تبريرا لكفركم : ان الله أنزل كتابه على اليهود والنصـارى دوننا ، وأننا كنا غــافلين عما يدرســون من الكتــاب ، أو تقولوا : اننا سنكون أكثر التزاما بالرسالة لو أنـزلت فينا ، فهــذه رســالته بينة جــاءتكم من ربكم. فيها خصــائص الرسالات السماوية السـابقة من الهـدى والرحمة ، ولكن كم يكـون ظلم المخـالفين لأنفسـهم عظيما ، وانحـرافهم بعيدا لو تركوه.

بينات من الآيات :

أهداف رسالة موسى :

[154] أن لم تكن تلك الحقــائق كافية لكم فهــاكم حقيقة اخرى هي رسالة موسى ، كيف كانت؟

انها كــانت رســالة تامة للمحســنين ، حيث فتح لهم مجال العمل الأكـثر من أجل الله والانسـانية ذلك لان في كل مجتمع نوعــان من الرجــال (محســنين وظــالمين) والمحسن أنّى كـــان معترما ومقبـــولا اجتماعيا ، ولكنه بحاجة الى بــرامج لمضــاعفة إحســانه ولتنظيمه ، وجعله أكثر فاعلية وأبعد أثـرا ، تماما كالمجاهد الـذي ينـذر نفسه لله ولكنه بحاجة الى برامج ومناهج ليجعل عمله أكثر نفعا ، وأقـــــرب الى النتيجة ، والله بعث برســــالته التامة للمحسنين ، وهذا بذاته دليل على طبيعة الرسالة الحقة.

(**آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ**)

اي رســــالة تامة على من أحسن من النــــاس ، والمحســنين كما قلنا : هم فئة من النــاس يتجــاوزون ذواتهم الى الآخرين ، فلا يكتفـون بـأداء حقـوق النـاس بل يضيفون عليها شيئا من حقوقهم.

(**وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ**)

بــرامج الله ليست ذات بعد واحد يتصل مثلا بــالفرد دون المجتمع ، أو الاقتصــاد دون السياسة ، أو الماديــات دون المعنويات ، أو الآن دون المستقبل ، أو هــذه الطبقة دون تلك ، أو تهتم بـالعواطف دون العقــول ، وهكـذا. ان دليل صدق رسالات السـماء أنها تتحـدث عن كل شـيء ، ولكن بتكامل وتناسب وعدالة بين مختلف أبعاد الحياة البشرية.

(**وَهُدىً**)

والـــــبرامج الالهية تنتهي بالهداية لأنها حقة وواقعية ، فلو طبقها البشر لوصل الى الجــــذور الاساســـــية لها ، والأصول العامة التي ابتنيت عليها ، وبالتالي الى الحقـائق التي استهدفتها تلك البرامج.

ان الـــــبرامج الالهية تختلف في هـــــذه النقطة عن الــبرامج البشــرية وهي انك كلما طبقت الــبرامج الــتي وضــعها البشــر. كلما تعــرفت على نقــاط الضــعف فيها بعكس البرامج السماوية التي يقول عنها ربنا :

(**وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**) [1]

(**وَرَحْمَةً**)

وحين تطبق البرامج الالهية تتحقق اهـدافك وتطلعاتك بعكس الــبرامج البشــرية ، فلــذلك فهي نقمة والــبرامج السماوية رحمة.

ولكن الرســـالات الالهية لا تكتفي بتنمية الجـــوانب المادية لحياة البشر ، بل وتنمي أيضا تطلعاته الأسمى من عالم المادة (عالم الدنيا الزائلة) الا وهي التي تلامس

---

(1) العنكبوت / 69

حدود الغيب والآخرة.

(**لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**)

ان الهـدف من الرسـالات السـماوية هو تحقيق رفـاه البشرية الذي يفرغ الإنسان للآخرة.

أهداف رسالة الرسول :

[155] ولـــذات الاهـــداف انـــزل الله كتابه الأكمل والأخير على محمد (ص).

(**وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ**)

وبركته ونمـــــوه يتمثل في أنه أكمل من ســـــائر الرسالات.

(**فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

واجب البشرية امام القرآن اثنـان : الاتبـاع والتسـليم الظاهر ، والتسليم البـاطن (التقـوى) وإذا تحقق التسـليم ظاهرا وباطنا تأهل البشر لرحمة الله.

إتمام الحجة :

[156] من مظـــــاهر رحمة الله انه أتم حجته على عبـاده ، فرفع عنهم كل حجـاب يمكن أن يمنع عنهم نـور الهدى ، فحين عرف أن للعرب عصبية تحجبهم عن قبـول رسالة الله التي أنـزلت في غـيرهم من اليهـود والنصـارى بعث فيهم نبيا من أنفسـهم ، كما أنه لكي لا يـدّعي هـؤلاء أنهم كـانوا مفصـولين عن دائـرة التـأثير برسـالات بـني إسرائيل ، لذلك بعث فيهم رسالة خاصة بهم.

(**أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتـابُ عَلى طـائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ**

(**لَغافِلِينَ**)

فلم ننتبه للرســالة ، ومن الطــبيعي ان الغفلة عــذر عقلي ، أولا أقل أن رحمة الله أبت أن تعذب النـاس على ذنب اقترفوه غفلة.

[157] يـــــزعم البشر : انه متكامل ، وان ما به من نقص وعجز فإنما هو بأسـباب خارجة عن إرادته ، ولكي لا يزعم العرب هذا الـزعم ، ويتصـوروا انه لو أنـزل الكتـاب عليهم لكـانوا أفضل من اليهـود والنصـارى في تطبيقـه. انزل الله الكتاب عليهم وقال سبحانه :

(**أَوْ تَقُولُوا لَـوْ أَنَّا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا الْكِتـابُ لَكُنَّا أَهْـدى مِنْهُمْ**)

ويتحدى القـرآن الحكيم فيقـول : ها هو الكتـاب نـزل عليهم وفيه ثلاث مزايا.

الاولى : انه حجة واضـحة ، ودلالة بيّنة على الحقيقـة. كما المعالم تدل على الطريق ، وكما الـدخان يـدل وجـود النار ، والصوت على وجود صاحبه.

الثانية : انه إذا طبقه الفـرد هـداه الى الحقيقة ، كما إذا ســار الفــرد في الطريق حــتى وصل الى غايته ، أو اسـتدل بالـدخان فتحـرك حـتى رأي النـار ، ورأي صـاحب الصوت مباشرة.

القـرآن هـدى للمتقين ، فليس فقط يقـود الفـرد الى الحقيقة ، بل وأيضا يجعل الفرد يلامس الحقيقة.

الثالثة : وحين يجد الفـرد الحقيقة فـان جانبا اساسـيا من تطلعه يتحقق وهو عطشه نحو الحقيقــة. اما الجــانب الثاني فهو السعادة والفلاح ، وبالتـالي الاسـتفادة من نعم الله سـبحانه ورحمته ، ويلخص القــرآن هــذه المزايا وهو يتحداهم بالقول :

(**فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ**)

البينة كما المعـــالم في طريق الحقيقة ، والهـــدى الوصول الى الحقيقة ، والرحمة هي : نعم الله.

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْها**)

أعرف عن آيـات الله الـتي تتضـمن تلك المزايا الـتي فيها تطلع الإنسـان الأساسي في الحيـاة ، كما إذا عطش الفرد ولكنه حين وصل الى الماء كذب بأنه ماء ، واعـرض عنه ، ان فطـرة كل واحد منا تتعطش للحقيقة أكـثر مما يتعطش الكبد الحـار للمـاء البـارد ، وان حاجـات كل واحد منا الطبيعية تتطلب اشباعها وهذا التطلب وذاك التعطش قد يكون المراد من تعبير القرآن في بداية الآية.

(**أَوْ تَقُولُوا لَـوْ أَنَّا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا الْكِتـابُ لَكُنَّا أَهْـدى مِنْهُمْ**)

ولكن كم يكون ظلم الفرد لنفسه كبـيرا حين يخـالف فطرته وحاجاته لأجل عقــدة نفســية ، أو اســتكباره عن الحقيقة ، أو مراعاة ظروف اجتماعية أو ما أشبه؟!

(**سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُـوءَ الْعَـذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ**)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَـةُ أَوْ يَـأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَـأْتِيَ بَعْضُ آيـاتِ رَبِّكَ يَـوْمَ يَـأْتِي بَعْضُ آيـاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَـبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُـلِ انْتَظِـرُوا إِنَّا مُنْتَظِـرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْـتَ مِنْهُمْ فِي شَـيْءٍ إِنَّما أَمْـرُهُمْ إِلَى اللـهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كـانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جـاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثالِها وَمَنْ جـاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلا يُجْـزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (160)

عقبات في طريق التوحيد

هدى من الآيات :

في الـدرس الســابق ذكر القــرآن ، ان الكتـاب جـاء اســتجابة لحاجة ملحة ، أمّا الآن فيبــدو أن القــرآن يــبين العقبات التي تعترض طريق الاستجابة للرسالة الجديـدة ، وهي ـ في هذا الدرس ـ ثلاث :

الأولى : التردد وانتظار شيء خارق للعادة مثل هبوط الملائكة ، أو وجود بعض الآيات ، ويعظنا القـرآن أن نبـادر الى الاستجابة للحقيقـة. إذ ان انتظـار ذلك اليـوم الخـارق معناه. فوات الفرصة.

الثانية : هي المعطيات الطائفية ، والقـرآن يـبين : أن هذا الذي يختلف في الرسالة ليس من الدين في شيء.

الثالثة : وجود الذنوب المتراكمة ، ويقول القرآن : إنّ الحسـنة الواحـدة تنمو وكأنها عشر حسـنات ، أما السـيئة فأن جزاءها واحد فقط.

بينات من الآيات :

عقبات الايمان بالرسالة :

السبب الأول :

[158] لقد زود الله البشر بعقل وفطـــرة ومعـــايير قـــادرة على فهم الحقيقة بعد التـــذكر بها من قبل الله سبحانه ، ولكن عليه أن يبادر بالاقدام وتجاوز حاجز التردد والخوف والانتظـار ، ان هـذه هي الشـجاعة العلمية الـتي كـانت وراء اكتشـافات العلمـاء ، وهي الشـجاعة الايمانية التي كـانت وراء تضـحيات الصـالحين ، ويتسـاءل ربنا عن هؤلاء الذين لا يؤمنون.

(**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**)

هل ينتظرون هبـوط الملائكة كـأمر خـارق حـتى يثـير فيهم الحماس ويدفعهم نحو الايمان بالله.

(**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**)

عـبر آياته الكـبرى ، فالله سـبحانه لا ينتقل من مكـان لمكان لأنه لا يخل منه مكان سبحانه.

(**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ**)

حيث تتجسد الحقـــائق. مثل ان يكـــون النهي عن الإسـراف لأنه يـؤدي الى شـلل الاقتصـاد ، أو الظلم لأنه يؤدي الى الفساد والدمار ، أو الدكتاتورية التي تـؤدي الى التخلف والعجز أو الثـورة أو الأخلاق السـيئة فانها تـؤدي الى المـرض والفرقة ، فلا يطبق الإنسـان هـذه النصـائح بانتظار تلك العواقب التي حذر عنها ، وحين تأتي تلك

العواقب فما ذا ينفع قبول تلك التحذيرات.

(**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً**)

ان لم يصدق المريض قول الدكتور وهو يحذره من سوء حالته بسبب الارهاق ، وانتظر الارهاق ذاته فما ذا ينفعه؟! أو صدقه ولكنه لم يفعل بنصيحته؟!

كذلك حين ينظر الفرد فلا يؤمن حتى تبدو آثار كفره ، فهناك يؤمن فما ينفعه الايمان.

(**قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**)

نحن ننتظر ونحن مؤمنون ، اما أنتم فتنظرون على كفركم ، والزمن يعمل لصالحنا دونكم.

الإنسان يجب أن يتوكل على الله ، ويثّق نعمه عليه ، فيتحرك بكل قوة نحو ما يهتدي اليه دون ان ينتظر شيئا.

السبب الثاني :

[159] والنظر الى الدين باعتباره مادة للعصبيات العرقية والقومية ، أو الجدليات الفارغة أحد أسباب الخطأ في فهم الدين ، وبالتالي في الايمان به والقرآن يصرّح بأنه ليس ذاك الدين الذي يتخذ مادة للخلاف هو دين الله.

(**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**)

والله هو الحاكم في عباده ، وكثير من الخلافات المذهبية لا يمكن أن تحلها

الجدليات ، بل يجب أن تتحوّل الى يــوم القيامة والى الله والمستقبل.

(**إِنَّما أَمْــرُهُمْ إِلَى اللــهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كــانُوا يَفْعَلُونَ**)

السبب الثالث :

[160] يشجع القرآن البشر الى المبادرة نحو الايمان بالله ســبحانه ، فيعــدهم بــأن يجــازيهم بالحســنة عشر أمثالها. بينما لا يجازيهم بالسيئة الا مثلها.

(**مَنْ جـاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثالِها وَمَنْ جـاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

ولكن كم يكـون الظلم للنفس كبـيرا حـتى يـرد على ربه هــذه النعمة الكبــيرة فلا يعمل بتلك الحســنة الــتي تحتوي عشر أمثالها.

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَمـاً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفـاً وَما كـانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (161) قُـلْ إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيـايَ وَمَمـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّـهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُـوَ رَبُّ كُـلِّ شَـيْءٍ وَلا تَكْسِـبُ كُـلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَـزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ

---

161 [حنيفا] : مائلا عن الباطل الى الدين الحق.

162 [ونسكي] : النسك العبادة ، ورجل ناسك ، ومنه النسـيكة الذبيحة ، والمنسك الموضع التي تـذبح فيه النسـائك ، فالنسك كل ما تقـرب به الى الله تعالى الّا أنّ الغالب عليه امر الذبح.

164 [ولا تزروا] : ولا تحملوا.

[وازرة] : نفس حاملة.

[وزر] : الـوزر الثقل بـوزر الجبل ويعـبر بـذلك عن الإثم كما يعـبر عنه بالثقل.

بِما كُنْتُمْ فِيـــهِ تَخْتَلِفُــونَ (164) وَهُــوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَــعَ بَعْضَــكُمْ فَــوْقَ بَعْضٍ دَرَجــاتٍ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي ما آتـاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقـابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

الركائز الأساسية لملة التوحيد

هدى من الآيات :

لكي يشجع ربنا عبـاده على الايمـان بالكتـاب. ضـرب لهم مثلا برسـوله الـذي هـداه الى الصـراط المسـتقيم ، والذي يتطلع اليه الجميع ، ذلك الـدين القـويم الـذي يمثل جـــوهر القيم وذات الاســـتقامة على نهج إبـــراهيم (ع) وشريعته وخطه (خط التوحيد ونفي الشركاء) ويتمثل خط التوحيد عند إبـــــراهيم (ع) وفي دين محمد عليهما وآلهما صــــلوات اللـــه. يتمثل في توجيه الحيـــاة كلها في خط التوحيد. سواء كانت الصـلاة والنسك (العبـادات) أو أمـور المعيشة في الحياة والممـات ، وان ينفي الشـركاء ، وأن يسـلم لله رب العـالمين دون أن يعـير انتباها الى سـائر الناس وهذا معنى الحنيف ، وإذا انحرف البشر عن عبـادة الله فـإلى أين يتجه ، هل يسـتبدل الله الـذي هو رب كل شـيء بغـيره ويكتسب إثمـا؟! إنه إن يكتسب إثما فانما يكتسـبه على نفسه ، ولا يحمل أحـدا أثقالـه. إذا فالبشر مسـئول عن عمله ، وغـدا سـيلاقي جـزاء عمله ، ويـرى الحقائق واضحة.

أما الطبقـــات الاجتماعية فلا تـــدل على ان الطبقة الأعلى رب صغير ، وعلى أبناء الطبقة الأدنى اطـاعتهم .. كلا. انما هذه الطبقات هي من صنع الله ، وهـدفها اختبـار البشر ، وهي زائلة ، والله سريع العقاب ، ولكنه قد يمهل البشر لأنه غفور رحيم.

بينات من الآيات :

ملة إبراهيم :

[161] من الفوائد الاساسية لبعث الرسل في صورة أشــخاص أنهم يصــبحون قــدوة حيّة للآخــرين ، والبشر بطبيعته يتأثر بالقدوة أكـثر من تـأثره بـالفكرة المجـردة ، وقد كان الأنبيـاء عليهم السـلام يـدعون النـاس بسـلوكهم المستقيم ، وأخلاقهم الحسنة ، كما كانوا يدعون بـأقوالهم ، ولقد دعوا اتباعهم الى مثل ذلك كما جاء في الحديث.

(كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم)

وحين يكــون الشــخص مســتقيما في فكــره يكــون مستقيما في سلوكه ، والسلوك المسـتقيم ينعكس ايجابيا في الفعل ، فيصـنع واقعا قائما بذاته ، ويـؤثر بـالطبع ذلك الواقع في الحيـاة ، ولنضــرب مثلا صــغيرا : إذا أصــبحت مستقيما فما ذا أفعل؟

أولا : لا أكــذب ولا أخــون الوعد أو العهد أو الامانة ، لتزداد ثقة الناس بي ، وأصـبح قطبا لاهتمـامهم ، ومركـزا لقيادتهم.

ثانيا : تســـتقيم آرائي وترشد ، فـــأكون موضـــعا لاستشارة الناس ، ومركزا لقيادتهم.

ثالثا : أكـون شجاعا مقـداما لا أخشى أحـدا ، فـأكون موكلا للمستضعفين وملجأ لهم.

رابعا : أســتقيم في تربية أبنــائي ، وتهمية امــوالي ، وتهذيب زملائي و.. فأكون مثلا للقوّة.

ترى كم تخلّف الاستقامة من أثر في الواقع الخارجي فتخلق تغيـيرا فيه ، هكـذا تصـبح اسـتقامة الأنبيـاء ، ومن أبــرز البينــات على صــدق دعــوتهم ، وكــذلك العلمــاء والمصلحين.

(**قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

والاسـتقامة ليست طبيعية في البشر ، بل انها بحاجة الى منـــــــــاهج عملية متكاملة ، انك بحاجة الى خريطة واضــحة حين تريد المشي في طــرق الغابة ، اما طــرق الحياة فهي أكثر تعقيدا من طـرق الغابة فـأين هي بـرامج الاستقامة؟ انما هي في الدين القويم.

(**دِيناً قِيَماً**)

اي دينا علا كلّه استقامة ، والدين القيم لم يكن بــدعا في التاريخ ، بل كان خطا اجتماعيا متمثلا في نهج إبراهيم (ع).

(**مِلَّةَ إِبْراهِيمَ**)

وإبراهيم (ع) كان متحديا لانحرافات الناس.

(**حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

عشرات الأفكار رفضها إبراهيم حـتى أصـبح موحّـدا ، ومئات الأنواع من الضـغوط تحـداها حـتى تحـرر منها ولم يرضخ لوجهتها ، ومئات القيود كسرها وحطمها حتى أصبح حــرا طليقا ، تحــدى قيد الاســرة فــرفض كلام أبيه آزر (عمه) الـذي امـره بـالكفر ، تحـدى قيد المجتمع وقاومه ، وتحدى السلطة واستهزء بها ، وتحدى حب الأولاد فأراد

ان يذبح ابنه استجابة لأمر الله ، وهكذا أصبح حنيفا حــرا ، ولم يكن مشركا بالله أحدا من خلقه أو شيئا من نعمه.

معنى التوحيد :

[162] ومن ابرز تجليات الاستقامة في حياة الرسول وحدة وجهته في أبعاد حياته.

(**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

فلم تكن صــلاته وذبائحه لغــير الله حسب ما كــانت عليه الجاهلية ، أو صــلاته لله عــبر عبادته للأصــنام. كلا .. ولم تكن حياته لقيصر ومماته لله ، فاقتصــاده وسياســته ، وأخلاقه واجتماعه ، وتربيته وبنـــاء بيته ، وحـــتى حركاته وسكناته كلها كانت لله ، وباتجاه مرضــاته ، ولتحقيق قيمه ســبحانه ، وفي خطّه كما كــان مماته لله ، فكــان يختــار الشهادة في الله إذا دعت الضرورة الرسالية ذلك.

[163] وعاد القرآن وكرر ان معــنى التوحيد هو كسر القيود ، وقطع الحبال التي تربط بأي مركز آخر.

(**لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**)

لقد امر الله نبيه مثلما أمرنا بالّا نركع لايّ ضــغط انّى كان نوعه ، وأن نسلم لمناهج الله.

[164] والســـؤال لمـــاذا التوحيد ، ولمـــاذا إخلاص العبودية لله؟

والجــواب أولا : لان الله هو رب كل شــيء ، فعبــادة الأشياء التي هي خاضــعة لســلطة الله دون ربها ليست إلّا غباء.

(**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**)
والنظـام القـائم في الكـون انما هو بتـدبير الله وهو الذي يجريه ، فعلينا ان نخضع لذلك النظام.
ثانيا : ان الارتبـاط بغـير الله من خلقه لا يرفع عـني وزرا ولا مسئولية ، فلا يمكن ان أغمض عيني وأقلّد آبـائي أو مجتمعي ، أو الأسـماء اللامعة في الثقافة ، لاني بهـذه العملية لا أسـتطيع أن ارفع عن عنقي المسـؤولية ، أو أن أضع وزري على عاتق من اتبعه. كلا .. أنا مسئول ، وذنبي يتبعني شئت أم أبيت.
(**وَلا تَكْسِـبُ كُـلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها وَلا تَـزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**)
ثالثا : الله هو المقياس الحق لتقييم الفكرة السـليمة عن نقيضـتها الباطلة ، أو لتقـييم السـلوك السـليم عن المنحـرف ، وليس مقيـاس الحق والباطل أكثرية الآراء أو القوة أو الشهرة أو القرابة.
(**ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيـهِ تَخْتَلِفُونَ**)
[165] رابعا : ان الله هو الـــذي جعل طائفة من النـــاس بعد طائفة ، وجيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قـــرن ، فليست أسـبقيّة هـؤلاء دليلا على أنهم أقـرب الى الله زلفى ، بل كلهم عند ربهم سـواء ، ولـذا لا يجـوز أن يتخذ بعضـهم بعضا أربابا ، فيعبد الخلفـاء من كـان قبلهم. كلا .. كما ان الله هو الذي أنعم على بعض الناس بنعم أكثر من غـيرهم أو بنعم مختلفة عن نعم الآخـرين ، وهـذا لا يـدل على أنه سبحانه أقرب الى هؤلاء أو أولئك ، بل ان الهدف من ذلك هو مجـرد اختبـارهم في النعم ، فيمتحن الغـني بثروته والفقـير بفاقته ، والعـالم بعلمه ، والجميل بما لديه من جمال.
وهكـذا ينسف القـرآن أصـول الشـرك من النفـوس حيث يحترم الفرد السابقين ،

فقد يعبدهم مبالغة في احترامهم ، وقد ينبهر بهم وينجذب إليهم فيختار عبادتهم لهذا السبب.

(**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ**)

فبعضكم يخلف بعضا ، ويأتي مكانه.

(**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

والله سبحانه إذا أراد ان يعـاقب أحـدا فهو سـريع في عقابه ، ولكنه لا يريد أن يعـــاقب أحـــدا لأنه يغفر ذنبه أو يـؤخره لعله يتـوب ، من هنا فعلينا ألا نعتمد أبـدا على أن الله لم يعـــذبنا بشـــركنا بـــاحترام آبائنا الى حد الشـــرك والطاعة والعبادة لهم ، أو حب المال والجمـال والسـلطة الى درجة الانجـذاب إليهما وعبادتهما ، كلا ان الله إذا أراد أن يعاقب فهو سريع لا يعطيك فرصة للفرار.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ روى العيّاشي باسـناده عن أبي بصـير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال «من قـرأ سـورة الأعـراف في كل شـهر كـان يـوم القيامة من الـذين لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون ، فـان قرأها في كل يـوم جمعة كـان ممن لا يحاسب يوم القيامة»

2 ـ قال ابو عبد الله «اما إنّ فيها ايّا محكمة فلا تدعو قراءتها وتلاوتها ، والقيـام بها ، فانها تشـهد يـوم القيامة لمن قرأها عند ربه» [1]

---

(1) مجمع البيان المجلد 2 ص 393

الإطار العام

هـذه السـورة تبحث موضـوع الإنسـان ، ففي البداية تــبين قصة الخطيئة الاولى وغريــزة حب الســلطة وحب الخلـود ، وكيف يغـوي الشـيطان البشر فينـدم ، ويتعـدى على حقيقته الـتي لا يسـترها الا لبـاس التقـوى ، وأن من عوامل الخطيئة التقليد وتقديس الآباء ، والـزعم بـان الله يأمر بذلك ، بينما الله لا يأمر بالفحشاء ، بل يأمر بالقسط ، والتوجه مخلصا الى الله عند كل مسـجد والـتزين ، وان يتمتع بالخيرات دون إسراف ، وأن من الحرام : الفواحش ، والبغي ، والشــرك ، والتقــوّل على الله بــدون علم أو كتاب منير (9).

والإنسـان يهتـدي برسـالات السـماء ، أما من يكـذب ويستكبر ، أو يفـتري على الله فانه يعـذب عـذابا شـديدا ، حيث تلعن كل أمة أختها بسبب الطاعة لها ، أما في الجنة فهنـاك القلـوب الصـافية ، وهـذا التقسـيم للنـاس انما هو بمقياس الهداية والضلالة ، والعلاقة بينهما هي الـتي تظهر عند الله ، حيث يستنجد الكفار بأهل الجنة ،

فيذكرونهم بأيام صدهم عن سبيل الله في الدنيا ، وبينهما أهل الأعـراف من قـادة المتقين حيث يعرفـونهم جميعا ، ويوبّخون أولئك الذين اتخذوا الدين لهـوا ولعبا ، وانتظـروا نهاية الأمر (34).

وعلاقة الإنســـان بالله هي طلب المزيد من رحمته ، لأنه رب العالمين ، وعلاقته بالحيـاة وبالنـاس هي الإصـلاح وعدم الإفساد.

وكما أرسل الله الريـــاح بشـــرا بين يـــدي رحمته ، فكذلك أنزل رسالاته هـدى ورحمة ، وقصة نـوح مع قومه تـدل كيف أن رسل الله يريـدون هداية النـاس وإنـذارهم ورحمتهم بالتالي ، ولكنهم يعاندون ويستكبرون فيهلكون (53).

وكذلك هود دعا الى التقوى فكذبوه وسـفهوه ، ولكنه ذكرهم بـرب العـالمين (وصـاحب الرحمة المكتملة لهم) ، وذكـــرهم كيف اســتخلفهم الله في الأرض ، فتمســـكوا بضــلالة آبــائهم فاســتمهلهم الله قليلا ، وبعدئذ قطع الله دابرهم (65).

أما صالح رسول الله الى ثمود فقد زود بناقة معجـزة ، وذكرهم باسـتخلافهم ، ونعم الرفـاه والعمـارة عنـدهم ، ولكن حالة الاستكبار واسـتغلال المستضـعفين منعتهم من الاهتداء ، فعقروا الناقة ، واهلكهم الله (73).

وانحرف الإنسـان في قـوم لـوط بالشـذوذ الجنسي ، فـأمطر الله عليهم بعد نصـيحة نـبيهم مطر السـوء ، أما مـــدين فقد نصـــحهم رســـولهم شـــعيب بـــترك الفســـاد الاقتصـادي والإصـلاح ، وعـدم الصد عن سـبيل الله الـذي اتبعه فريق منهم ، ولكن الاســتكبار منعهم ، ودعــاهم الى محاولة إخـــراج شـــعيب ، وتوكل المؤمنـــون على الله ، فأخذت الرجفة الظالمين وأصبحوا حديثا يروي ، ولم يأس عليهم رسولهم الناصح (80).

ويأخذ الله كل قوم يرسل إليهم نبيا بالبأساء والضراء ، ولكنه يبدّلهم بالحسنة

السيئة ، ثم إذا لم تنفعهم الحسنة أو السيئة يأخـذهم بغته ، وان الايمان والتقوى يفتحا بركات السماء عليهم ، ولكن هل يـأمن أهل القـرى بـأس الله ومكـره؟! ان عليهم ان ينظروا كيف يهلك الله قوما ، ويستخلفهم بقـوم آخـرين (94).

كذلك جاء موسى بالآيـات لملأ فرعـون الـذين ذكـروا بها ، وانتهت حيـاتهم الفاسـدة ، وذكـرهم موسى بـالحق ، وطـالبهم بتحرير بـني إسـرائيل ، فطـالبوه بآية (**فَـأَلْقى عَصـاهُ فَـإِذا هِيَ ثُعْبـانٌ مُبِينٌ**) ، وأراهم يـده البيضـاء ، ولكنهم رموه بالسـحر واتهمـوه بتهديد الأمن ، وسـجنوه ، وجمعوا السـحرة ، وأغـروهم بالسـلطة والمـال فسـحروا أعين الناس ، ولكن عصا موسى ابتلعت سـحرهم ، فـآمن السـحرة وانقلبـوا صـاغرين ، وعـذّب فرعـون السـحرة المؤمنين فصـبروا ، وطـالب الملأ فرعـون بعقـاب موسى فتوعد فرعون موسى ، ولكن قـوم موسى اسـتعانوا بالله وصــبروا انتظــارا لوراثة الأرض ، فأخذ الله آل فرعــون بالسنين والمصائب ، ولكنهم نسبوا الحسـنة الى أنفسـهم والسـيئة الى موسى ، واسـتكبروا عن الايمـان وتظـاهروا بالايمان عند السـيئة ، وكفـروا عند الحسـنة ، فـانتقم الله منهم فـــأغرقهم ، وأورث الله الأرض الـــذين كـــانوا يستضعفون ، ودمر فرعون وقومه (101).

ويستمر السياق القرآني في بيان الطرح البشري بين فريقي المهتـدين والضـالين الى الآية (156) حيث يحـدثنا عن مجمل قصص موسى مع قومه.

ويحـدثنا السـياق عن الرسـالة الجديـدة الـتي جـاءت محررة للبشـرية من أغلالها النفسـية والثقافية وذلك على يد النبي الأميّ المبشر به في الكتب السابقة ، والـتي هي رسالة جميع البشر (157).

ويعـود السـياق الى امة موسى وأقسـامها واخطائها ومنها : عدم تناهيهم عن المنكر في قصة السـبت ، وكيف مسخوا قردة ، وكيف تركوا الدين بالرغم من أن

بعضـهم ظل متمسـكا بالكتـاب ، وكيف أمـرهم الله بأخذ الكتاب بقوة وذلك بعد ان نتق الجبل فوقهم (159).

ولكن السـياق يعـود بنا الى العهد الانسـاني الاول ، حيث أخذ ربنا من بـني آدم عند ما كـانوا في ظهر أبيهم ميثاقا باتباع الهدى ، وكيف أن بعضهم يشرك الآن بسـبب شـرك آبـائهم وأن بعضـهم ينقض هـذا العهد عهد العلم والمعرفة ، حيث يخالف ميثاق المعرفة (172).

لـذلك يختـار الله اليهـود تـارة والعـرب تـارة ، حسب ظروف فترة الاختيار ، ويبين مدى الجريمة عند من يكذب بالـدين ، وكيف أن ربنا قد قـدّر لهم جهنم مصـيرا ، لأنهم لم يستفيدوا من مداركهم (177).

ويـبين الله أسـماءه الحسـنى ، وكيف أن طائفة يلحـدون في أسـمائه سـبحانه ، وأنّ الله سيسـتدرج المكذبين ويملي لهم حسب خطه حكيمة لأنهم لم يتفكروا ليعرفوا أن رسولهم ليس بمجنون ، ولم يتفكـروا ليعرفـوا ما في السموات والأرض من آثـار التـدبير والتقـدير ، وانه عسى قد يكون أجلهم قد اقترب ، وأنه ان لم يؤمنوا بهـذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون (180).

والله يضل ومن يضلله الله فلا هـادي له وأن السـاعة علمها عند الله ، واما الرسـول فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا (186).

ويبين السياق : كيف أن الله قدّر حياة البشر ، وخلقه بوحدانية المتعالية عن الشـركاء ، ولكن المـربين أفسـدوا ضـميره وأشـركوا فيه ، بينما الله هو ولي البشر ، ووليّ الصالحين منهم بالذات ، بينما الشركاء لا يستطيعون نصر البشر ، والشركاء لا يملكون السمع (189).

وعلى الرســـول ان يأخذ العفو ، ويـــأمر بـــالفطرة والعقل ، ويبتعد عن الجهل ، وعلى البشر أن يتقــوى بالله على شيطانه ، وان يتذكر ربه حتى يمسح نفسه آثار مس الشيطان ويبصر الحقائق ، وإذا لم يكن الإنسان متقيّا فان الشيطان يمـده في الغيّ والعمه مثلا نـرى يطـالبون أبـدا بآية لم ينزلها الله دون أن ينتبهــوا الى ان الرســول مقيد بـالوحي ، وان القـرآن بصـائر ، وعلى الإنسـان نفسه ان يتبصر الحقائق ، وان يسـتمع الى القـرآن ، وان يـذكر ربه تضرعا وخفية ، وان يتجنب الغفلة ، ولا يستكبر عن عبادة ربه ، ويسبحه ويسجد له ، ذلك هو برنامج بنـاء الشخصـية المؤمنة والإنســان المتكامل الـــذي تتناوله موضـــوعات سورة الأعراف (199).

سورة الاعراف مكية وهي مائتان وست آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَـدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْـذِرَ بِـهِ وَذِكْـرى لِلْمُـؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُـوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4) فَما كانَ دَعْـواهُمْ إِذْ جـاءَهُمْ بَأْسُـنا إِلاَّ أَنْ قـالُوا إِنَّا كُنَّا ظـالِمِينَ (5) فَلَنَسْـئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِـلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـئَلَنَّ الْمُرْسَـلِينَ (6) فَلَنَقُصَّـنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غـائِبِينَ (7) وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُـهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُـهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

الرسالة الميزان الحق

هدى من الآيات :

(ألم ص) هـذا كتـاب أنزله الله على قلب الرسـول الذي ينبغي ان يتسع له ولا يضيق به ، ولا يتردد في قبوله وادائه ، وإنـذار النـاس به حـتى يؤمنـوا فـاذا آمنـوا فـان الكتاب سيكون ذكرى لهم ..

وعلى الناس اتباع قيم الكتاب ، والذين يجسدون هـذا الكتـاب ، أما غـيرهم الـذين يتخـذون من دونهم أوليـاء لا على أساس القيم فحرام اتبـاعهم ، لأنهم سـوف يقـودون البشر الى الهلاك ، فكم من قرية أهلكها الله فاذا بعـذاب الله يأتيها ليلا ، أو عند فـترة القيلولة صـباحا ولم يـدعوا شيئا ، وانما اعترفوا بذنبهم ، وأنهم ظلموا أنفسهم.

والله سـبحانه يحاسب الـذين أرسل إليهم الكتـاب ، كما يحاسب الذين أرسـلهم لتبليغ الرسـالة ، ثم يـبين الله لهم الحقائق لأنه سبحانه كان شـاهدا عليها ولم يكن غائبا عنها ، ثم بعد الحساب الدقيق يوزن ايمان واعمـال العبـاد ، فمن كـانت موازينه ثقيلة فانه من أهل الجنة والفلاح ، بعكس ذلك الذي كانت موازينه خفيفة أنه قد

خسر نفسه ، وضـــيع الفرصة عليها ، والســـبب أنه حين جاءته الآيات الكريمة لم يسـتمع إليها حـتى يهتـدي بها ولا يظلم نفسه ..

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[1] (**المص**)

هذه هي فواتح السور التي قيل عنها أشياء كثـيرة قد يكـون أغلبها صـحيحا ، باعتبـار القـرآن الكـريم ذو أبعـاد مختلفة ، بيد أن من الممكن ان تكون هذه الأحـرف رمـزا تــدل على ذاتها دون اي شـــيء وراءها ، كما ســبق وأن تحـدثنا عنه في سـورتي البقـرة وآل عمـران ، وعلى هـذا الأساس تكون الكلمة التالية لها خبرا لها.

ربانية الكتاب :

[2] ولم يكن القــرآن من تــأليف محمد (صــلّى الله عليه وآلـه) ولا من نبوغه ، بل هو كتـاب أنزله الله ، وأحد أبسط الأدلة على ذلك أن صدر الرسـول يكـاد يضـيق به ، ولــذلك أمر الله رسـوله بـأن يتسع قلبه الشــريف لهـذه الرسالة.

(**كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ**)

الرسالة بحاجة الى سـعة الصـدر حـتى يتحمل الفـرد ثقل الحقـائق الـتي فيها وو حـتى يتحمل جهد العمل بها ، وصعوبات تبليغها ، وسعة الصدر تأتي من الايمان بالغيب ، بالمســتقبل البعيد ، بالآفـاق الواسـعة ، ومن التوكل على الله ، والثقة بالقــدرات الــتي أودعها في كيــان البشر ، والامكانيات التي سخرت له ، وبالتالي فـان سـعة الصـدر نابعة من الخروج عن زنزانة الذات ، والانطلاق في رحاب الله من أجل خدمة البشرية جميعا.

زنزانة الحياة :

ان الشهوات ، والآمال والطموحات الخاصة ، والجهل بالمستقبل ، والانحسـار ضـمن اللحظة الحاضـرة كل تلك جدران معتقل البشر التي تضيق عليه رحاب الكون.

(**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ**) [1]

وعلى من يريد حمل رســـالة الله ان يتمتع بســـعة الصدر بهذا المفهوم الواسع للكلمة ، والهدف من الكتـاب هو : إنذار غير المؤمنين ، وتذكرة المؤمنين حـتى يـزدادوا ايمانا.

(**لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**)

[3] لقد أنزل الله الكتاب لكي لا يتبع الإنسـان سـوى القيم الســـماوية ، والـــذين يجســـدون تلك القيم ، ولا يخضعون لهذا أو ذاك باي أسماء مخترعة ..

(**اتَّبِعُـوا ما أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُـوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ**)

اي لا تتركوا اتباع القرآن باتباع الأولياء الغرباء ..

(**قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ**)

إذ البشر قلما يســتطيع التحــرر من جاذبية الأشــياء والأشـخاص ، والتحليق في سـماء القيم ، وإذا تمت هـذه الحرية فإنما عن طريق التذكّر بالله وباليوم الآخر.

---

(1) الأنعام / 125.

[4] وحين يتبع الإنسان اولياء من دون الله فأنه هالك ، ويأتيه عذاب الله على غفلة منه دون ان يسـتطيع له ردا ..

(**وَكَمْ مِنْ قَرْيَـةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُـنا بَياتـاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ**)

أي ليلا أو في منتصف النهار حين يستريحون الى نوم القيلولة ، أو بتعبير آخر ليلا أو نهارا.

[5] ولم تكن حجتهم إذ ذاك الا الاعتراف بظلمهم.

(**فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جـاءَهُمْ بَأْسُـنا إِلَّا أَنْ قـالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ**)

لقد كـان ظلمهم بـوعي ، وبعد إتمـام الحجة عليهم ، لـذلك اعـترفوا به حين الهلاك ولم يـدّعوا ــ حـتى مجـرد الادعاء ـ بغير ذلك.

[6] ولم تنته العقوبة بالنسبة لهؤلاء بالهلاك الدنيوي ، إذ جاء بعدئذ دور الحساب الأخروي.

(**فَلَنَسْـــئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِـــلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـــئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**)

اي نسأل المبلغين للرسالة كيف بلّغوا وبماذا أجيبـوا؟ ونسأل الناس لماذا لم يجيبوا بعد إتمام الحجة عليهم؟

[7] ولكن هـذا السـؤال ليس عن جهل أو عن غيبة ، بل لمجرد المحاسبة ، ولكي يعترف الظالمون بجريمتهم ، فان الله سوف ينبئهم عن كافة تفاصيل حياتهم بعلم ، لان الله لم يكن غائبا حين اكتسابهم للأعمال ..

(**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ**)

[8] وبعد المحاسبة يأتي دور الجـزاء العـادل ، لان ما يوزن به الأعمال حق ودقيق ، وليس فيه أدنى نقص.
(**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)
لأنهم أصـــابوا الفلاح المـــادي والمعنـــوي بالجنة والرضـوان ، وقد انتهت صـعوبات الحيـاة ومخاوفها بحيـاة رغيدة آمنة.
[9] ولكن الخســـارة كل الخســـارة هي أن يكتشف الفرد خفة موازينه ، إذ لا يملك البشر سوى فرصة واحدة للعمل هي أيام عمله المعـدودة في الـدنيا ، فـاذا خسـرها فما ذا يبقى له هناك؟
(**وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُـــهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِـــرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ**)
انهم ظلمـوا الآيـات فلم يسـمعوها ، ولا عملـوا بها ، فاذا بهم يخسرون كل ما يملكون.

وَلَقَــدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعــايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَــوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قالَ ما مَنَعَـكَ أَلاَّ تَسْـجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَــهُ مِنْ طِينٍ (12) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَــكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّــاغِرِينَ (13) قـالَ أَنْظِـرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَــرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْــــدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

---

13 [الصــاغرين] : الصــاغر الــذليل بصــغر القــدر ، وصــاغر إذا رضي بالضيم.

18 [مذءوما] : الذم والذيم أشدّ العيب.

[مـدحورا] : الـدحر الـدفع على وجه الهـوان والاذلال ، يقـال دحـره إذا دفعه بقوة وقسوة.

شاكِرِينَ (17) قالَ اخْـرُجْ مِنْها مَـذْؤُماً مَـدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

جذور الانحراف في حياة البشر

هدى من الآيات :

في هــذا الــدرس يبــدو ان القــرآن الحكيم يــذكرنا بالموضـوع الاساسي في هـذا السـورة حيث تـبين طبيعة الإنســان ، وأســباب انحرافه ، لقد خلق الله الإنســان. وجعل له الأرض مكانا ومحلا للـــرزق ، ولكن رد فعله لم يكن الشكر ، ولكن لماذا لم يشكر؟

ان هــذا يعــود الى قصة الخطيئة الاولى ، حيث خلق الله آدم وجعله في أحسن صورة وتقويم (وأعطـاه الـروح ، والعلم ، والارادة) وأمر الملائكة بالســـــجود له ، فلم يسجد إبليس له لأنه خلق من نـار بينما خلق آدم من طين ، وهكذا تكبر إبليس فطرد من السماء واخرج صاغرا ، بيد أن إبليس طلب المهلة ، فأعطاه الله ما طلب ، فاســتغل إبليس مهلته في إغــواء البشر عن الصــراط المســتقيم ، واقسم انه ســيأتيهم من قــدامهم ومن خلفهم ، ومن قبل إيمانهم وشمائلهم ، ليحرفهم عن الشكر لله ، لذلك اخرج ربنا إبليس كما أخر الـذين يتبعونه ، وأوعـدهم النـار ، وأن يملأ بهم جهنم جميعا.

هكذا كانت جـذور الانحـراف عند الإنسـان ، اما المثل الحي لهـذا الانحــراف فســوف يحــدثنا عنه القــرآن في الدرس القادم.

بينات من الآيات :

بين النعمة والجريمة :

[10] من نعم الله على الإنســان تمكينه في الأرض ، وتــذليل الأرض وتســخيرها له ، وجعل الله فيها معــايش البشر ، وما به تستمر حياتهم.

(**وَلَقَــــــدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ**)

بيد ان البشر لا يفكر في أســـــباب النعم وعواملها ، لذلك لا يشكر عادة من أنعم بها عليه.

(**قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ**)

[11] من اين تنشأ عادة الجريمة؟

في قصة آدم وإبليس توضيح لهذا السـؤال ، لقد خلق الله البشر وصـــوّر خلقه جـــوهرا وصـــورة وهيئة ، وربما المـــراد من الصـــورة هي ما أودع الله عند الإنســـان من صـــفات وأخلاق ، ومن غرائز وفطـــرة ، وبالتـــالي العقل والارادة كما قال سبحانه :

(**وَنَفَخْتُ فِيــهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُــوا لَــهُ ســاجِدِينَ**) الحجر / 29

وقال سبحانه :

(**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ**) التين / 130

وقال :

(**فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**) 64 / غافر

وبعدئذ امر الله الملائكة بالسـجود لآدم ، وربما كـان السـجود رمـزا لكرامة العلم والارادة عند البشر ، ورمـزا لتسـخير الحيلة له بفضل العلم والارادة ، بيد أن الهـدف من بيـان قصة إبليس هنا ، يختلف عن هـدف ذلك في سورة البقرة ، حيث كان الهدف هناك ـ حسب الظـاهر ـ هو : بيان تسخير الحياة للإنسان بفضل العلم ، أما الهدف منها هنا فهو : بيان واقعة الخطيئة كيف؟ ولماذا وقعت؟

(**وَلَقَـدْ خَلَقْنـاكُمْ ثُمَّ صَـوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**)

لماذا عصى إبليس؟

ولقد جـاء في الأحـاديث أن التعبـير القـرآني الـذي اسـتخدم ضـمير الجمع هنا دليل على واقعة الـذر ، حيث خلق الله البشر جميعا بصورة (ذر) في صلب آدم ، ولذلك جاءت كلمة (ثم) للدلالة على الترتيب.

[12] ولكن ما هي الصـفة الـتي كـانت في إبليس ، فمنعته عن السجود بعد ما جاء الأمر الصريح؟

(**قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**)

اسـتخدم القـرآن التعبـير بكلمة (ألّا) بـدل (أن) ربما للاشارة الى ان صـفة المنع لم تكن آنية أو محـدودة بهـذا العمل ، بل كـانت مرتبطة بالطاعة على العمـوم ، أي ما منعك عن الطاعة الا تسجد.

(**قالَ أَنَا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ**)

لقد كـــان جـــواب إبليس واضـــحا ، لقد كـــان ســـبب عصيانه العنصرية ، والزعم بـأن عنصـره أفضل من عنصر آدم ، وعموما هناك مقياسان للإنسان ، اما مقياس الذات ، واما مقياس العمل الصالح ، فاذا كان مقيـاس الشـخص هو ذاته ، فانه ســوف لا يقف عند حد في جريمته ، لأنه لا يـرى شـيئا أقـدس من ذاته أو أعلى من نفسه ، ومن هنا فان جذر كل المشاكل البشرية ، هو : تقوقع الإنسـان في ذاته ، واعتقـاده بـأن ذاته هي المقيـاس ، وما الاقليمية ، والقومية ، والعشـــائرية ، وكل الحـــواجز الذاتية ما هي سوى آثار لهذه العنصرية المقيتة.

[13] ولكن مقياس الحق هو : مقياس العمل الصالح ، لا فـرق بين عامله من يكـون؟ ومن اي عنصـر؟ لـذلك أخرج الله إبليس من جنته.

(**قالَ فَاهْبِطْ مِنْها**)

اي من الســماء أو من الجنة ، وتـدل كلمة الهبـوط على الهبـوط من مكـان أعلى ، ومن الطـبيعي ان يكـون هبـــوط إبليس ليس ماديا فحسب ، بل ومعنويا أيضا ، ولذلك عاد القرآن واستخدم كلمة الإخراج أيضا.

(**فَما يَكُـونُ لَـكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَـاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**)

وهكـذا كـانت الخطيئة الاولى بسـبب الاعتمـاد على العنصر ، والذي تجسد في صورة التكـبر عن الحق ، ومن ثم كان الجزاء الهوان.

من حقائق الجزاء :

[14] وعلى الإنسان ان يعرف حقيقة هامة جدا هي : أن الجـزاء لا يكـون دائما بعد العمل مباشـرة ، بل على العكس حيث يتـأخر الجـزاء عن العمل ، وهـذا إبليس قد طلب المهلة من ربنا فأعطاه إياها.

(**قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)
[15] (**قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**)
وأهمية فهم هـذه الحقيقة تـأتي من أن البشر بسـبب محدودية الرؤية ، وضـيق الأفق يـزعم أنه لا يجـازى على أعماله بمجـرد تـأخر الجـزاء ، بل حـتى حين يأتيه الجـزاء ينسى أنه جاءه نتيجة عمله ، ولذلك لا يرتـدع بالعقـاب ولا ينـــدفع الى الثـــواب ، وانما يســتفيد من الجـــزاء الـــذين يعدمون المسافة الزمنية بين العمل والجزاء ، ويتصـورون أنفســـهم منذ لحظة القيـــام بالعمل وكـــأنهم في لحظة الجزاء ، فـالزارع الـذي يتصـور وقت الحصـاد ، والطـالب الذي يتخيل قاعة الامتحانات ، والجندي الذي تتراقص في مخيلته لحظـات الانتصـار ، والمـؤمن الـذي يظن أنه ملاق ربه يكون عملهم أتقن وأبقى ، بينما المجـرم الـذي ينسى قاعة المحكمة ، والفـاجر الـذي يكفر بـالآخرة ، والفاسق الـذي يتناسى المـوت يكـون أجـرء على الله ، وأوغل في الخطيئة.
[16] والهالك يســـــحب من حوله الى الهلاك ، كما النـاجي يريد لمن حوله النجـاة مثله ، وإبليس حين أمـره الله بالسجود تكـبر فأخرجه ، وهكـذا أضـمر حقـدا مركـزا ضد أبناء آدم الذي بسببه طرد من السماء.
(**قـــالَ فَبِما أَغْـــوَيْتَنِي لَأَقْعُـــدَنَّ لَهُمْ صِـــراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**)
انه يقعد لنا ، اي يرصــدنا ويمكر بنا ، ومكـــره يتجسد في محاولة سلب نعمة الاستقامة منا.
[17] ويسعى إبليس بكل وسيلة ممكنة لكي يضللنا.
(**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْـــدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ**)

قد تكون هذه الجهـات رمـزا لاحاطة الشـيطان بأبنـاء آدم من كل مكــان ، حــتى يتحسس البشر بمــدى الخطر الذي يهـدده ، فلا يكـون في الحيـاة مهملا ، فـارغ البـال ، ضعيف العزيمة ، بل يكون جديا ذا فعالية كبيرة.

وقد تكــون رمــزا لأســاليب الشــيطان ، حيث يخــدع البشر بالمســتقبل القــادم من بين يديه حينا ، حيث يمنيه غـرورا ، ويـزين له أشـياء يعـده بها ، وقد يضـله بتصـوير الماضي بطريقة تدفعه الى الأعمـال السـيئة ، أو بسـيرة الآبـاء ، أو بفلسـفة التـاريخ أو .. بمن حوله من النـاس ، بأولاده وزملائه ، أو بأعدائه والمنافسين له.

المهم : ان يعرف البشر أنه لو لم يتصل بالله سبحانه ، ويستعد استعدادا كاملا ، لأحاط به مكر الشيطان واراده وأهلكه ، فلا يصبح شاكرا لأنعم الله وجميل فضله.

(**وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ**)

وهــذا في الواقع أســلوب حيث يســتخدمه إبليس ، حيث يربط النعم بنفسه ، أو بالأوليـــــــاء من دون الله ، والذين هم أدوات له وليس بالله سبحانه.

[18] والله أعطى البشر العلم والارادة ، وحـذره من الشيطان ، وبذلك كلفه مسـئولية الـدفاع عن نفسه ، ضد هجمات إبليس.

(**قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً**)

اي انه بعيد معنويا وماديا حيث انه يذم ويطرد.

(**لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ**)

أي بالتأكيد ان من يتبعك من البشر ســـــيكون مكانه جهنم مع إبليس.

وَيا آدَمُ اسْــــكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُــــكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْـوَسَ لَهُمَا الشَّـيْطانُ لِيُبْـدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقـالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِـدِينَ (20) وَقاسَــــمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِــــحِينَ (21) فَــــدَلاَّهُما بِغُــرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّــجَرَةَ بَـــدَتْ لَهُما سَــوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِــفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّـجَرَةِ وَأَقُـلْ لَكُما إِنَّ

---

20 [ليبدي] : الإبداء الإظهار ، وهو جعل الشيء على صــفة ما يصح أن يدرك وضدّه الإخفاء ، وكل شيء أزيل عنه الساتر فقد أبدي.
[وري] : المواراة جعل الشيء وراء ما يستره ومثله المسـاترة وضـدها المكاشفة.
[سواتهما] : عوراتها.

الشَّــيْطانَ لَكُما عَــدُوٌّ مُبِينٌ (22) قــالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَــنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِــرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُــونَنَّ مِنَ الْخاسِـرِينَ (23) قـالَ اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتـاعٌ إِلى حِينٍ (24) قـالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25)

الغرور الشيطاني سبب الهبوط

هدى من الآيات :

كـانت قصة إبليس وعنصـريته ، وتكـبره وخروجه من السماء ، ووعده أنه سوف يغوي أبناء آدم ، وبالتالي كانت قصة الخطيئة الاساسي هي موضــوع الــدرس الســابق ، والآن جــاء دور آدم وأبنائه كيف أنهم انخــدعوا بــإبليس ، وكيف ينبغي تجنبه؟

أسكن الله آدم وزوجه الجنة ، وسـمح لهم بتنـاول كل الطيبـات باسـتثناء شـجرة واحـدة ، والـتي انما نهيا عنها بسبب حكمة ، بيد ان الشـيطان وسـوس لهما ليظهر ذلك العيب الـذي سـتره الله ، وخـدعهما بـأن الله لم ينه عن هذه الشجرة الا لكي لا يصبحا ملكين خالدين ، وبذلك اثار فيهما حب الرئاسة وحب البقاء.

وحلف لهما بأنه ينصـحهما ، ولكن ذلك كـان غـرورا ، فلما طعما من الشـجرة ظهـرت العـورات الخفية لهما ، وإذا بهما يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وهنـاك ناداهما الله ربهما ، وقـال : أو لم أنهكما عن الشـجرة وحـذرتكما من عـدو كما الشـيطان ، وبخلاف الشـيطان الـذي ازداد تكبرا ، فإن آدم وزوجه ندما على عملهما

واعترفا وقـالا : (**إِنْ لَمْ تَغْفِـرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُـونَنَّ مِنَ الْخاسِـرِينَ**) ، ولكن الـذنب كـان له أثـره السـلبي حيث أهبطا وذريتهما الى الأرض ، ليكون بعضـهم لبعض عـدوا ، ولتكون لهم فيها فرصة محدودة.

طبيعة العجز البشري :

[19] يبدو أن الجنة الـتي سـكن فيها آدم وزوجه مثل حي لنعمة الحياة المرهفة التي يوفرها الله سبحانه للبشر إذا اتبع مناهجه ، حيث إن مناهج الله ليست سببا للشــقاء ، بل سببا للسعادة والفلاح ، والله لم يحرم الطيبـات ، بل حرم بعضا مما أوجبته حكمته سبحانه ، كما أبـاح لأبينا آدم وزوجه أكل ما شـاء ولكن حـرّم عليهما شـجرة واحـدة ، والــتي لو اقتربا منها لأصــبحا ظــالمين حيث إنها كــانت تضرهما.

(**وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**)

[20] قبل أن يواجه الإنســان التحــديات والشــهوات يزعم أنه قـادر على مواجهة الضـغوط والمشـكلات ، وأنه صـالح ، ولكن الضـعف والعجز كامنـان في طبيعة البشر ، ويظهر ان في الامتحـان ، وعلى البشر أن يسـتعد للقيـام بعد السـقوط ، والتوبة بعد الـذنب ، وألّا يغـتر بنفسه ، ولا تأخذه العزة بالإثم.

(**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّـيْطانُ لِيُبْـدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما**)

والوسيلة الـتي اسـتخدمها الشـيطان هي الوسوسة ، وحسب الظاهر فان الوسوسة هي : التشـويش على رؤية الإنســان وعمله وفطرته ، وذلك عن طريق اثــارة الغرائز التي تصبح حاجزا بين العقل والحقائق.

واستخدم إبليس اسلوبين آخرين :

أولا : تفسير الحقائق وتحويرها تفسيرا باطلا.
ثانيا : الكـــذب والحلف عليه ، اما التفســـير الباطل فحين كذب.
(**وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ**)

جذر الخطأ :

لقد أثــار إبليس صــفتين في آدم موجودتــان في كل أبنائه ، أولهما : حب الملك والعـــــزة والرفعة ، والثانية : حب الخلــود والبقــاء والاســتمرار وهاتــان الصــفتان هما تعبـيران عن حب الـذات والعنصـرية المقيتة الـتي كـانت الســبب في إغــواء إبليس ، بيد أن إبليس أظهر الســبب صراحة ، وعلينا ان نسعى من أجل مراقبة هـذه الصـفات التي ينفذ من خلالها الشيطان الى قلوبنا ويفسد أعمالنا.

ومن الملاحظ ان نقص المــواد الغذائية ، أو فقـــدان المسكن والملبس وما أشـبه لم يكن سـبب معصـية آدم ، انما هو حب الخلـــــود والملك ، وهكـــــذا في أبنائه فلو اســتطاع البشر مقاومة هــذا الحب لتخلص من كثــير من المعاصي.

[21] ولم يكتف إبليس بتفسـير النص الالهي تفسـيرا خاطئا لهما واثارة الغرائز عندهما ، بل كـذب عليهما كـذبا صريحا ومؤكدا بالقسم.
(**وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ**)

وأصل المقاسمة : ان تكـون من طـرفين كأية صـيغة أخــرى من دون المفاعلة ، بيد أن إبليس قد يكــون حلف حلفا مكررا كان يعارض حلف الطرف الآخر.

[22] وكل ذلك التفسير والكذب والحلف كان غــرورا ، اي تركيزا للنظر في

جانب واحد فقط ، وترك الجوانب الثانية مهملة ، حيث إن أصل الغـــرور هو الثـــوب حـــتى لا يتـــبين كل جوانبه ، والشـــــــيطان ينفذ الى قلب البشر من خلال الغر حيث يسـعى الى تأكيد جـانب واحد فقط من الحقـائق وتـرك سائر الجوانب.

(**فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ**)

وأخـــيرا طعما شــيئا من الشــجرة ، فظهــرت لهما عوراتهما فـاذا بهـذا يـرى عـورة الثـاني فاسـتحيا ، فأخـذا يجعلان أوراق الشــجر على بعضــها عسى ان تصـبح على هيئة اللبـاس فيـواري عوراتهما ، وبـالطبع فـان أبنـاء آدم حين يتبعون الشيطان تظهر نقائصـهم ، وضـعف إرادتهم ، وقلة مقاومتهم للشيطان.

(**فَلَمَّا ذاقَا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُما سَـوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**)

وهنا انتهت مرحلة الامتحـــان ، فناداهما ربهما وقـــال لهما : الم أنهكما عن هـــذه الشـــجرة ، وهكــذا يســتيقظ الضمير بعد ارتكاب الجريمة.

(**وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّـــجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ**)

[23] وعاد الرشد الى آدم وزوجه كما يعود الى ابنائه العـــاديين بعد الجريمة ، وهـــذه من مـــيزات البشر على إبليس الـــذي لم يعـــترف بالخطيئة ، اما التوبة وإصـــلاح الفاسد من أبرز وأعظم الصفات الحسنة لو استغلت.

(**قـــالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَـــنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِـــرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

[24] وخسر البشر بـــذلك فرصة البقـــاء في الجنة ، وهبطـــوا الى دار الـــدنيا بســـبب حب الخلـــود والرفعة ، وانتشرت بينهم الخلافات ، والصراعات الاجتماعية الدائمة

والمقيتة وكل ذلك وليد هـذه النفسـية المذنبة ، ولكن الله أنعم عليهم ببعض الاسـتقرار على الأرض ، وببعض المتـاع والتمتع المؤقت ..

(**قـــالَ اهْبِطُـــوا بَعْضُـــكُمْ لِبَعْضٍ عَـــدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ**)

[25] هنا دار الحياة والممات ، ومن ثم البعث.

(**قـــــالَ فِيها تَحْيَـــــوْنَ وَفِيها تَمُوتُـــــونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ**)

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما

---

27 [قبيلة] : القبيل الجماعة من قبائل شتى ، فاذا كانوا من أب وأم واحد فهم قبيلة.
29 [بالقسط] : العدل.

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَـقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ اللَّـهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

كيف يواري لباس التقوى

سوأة الإنسان؟

هدى من الآيات :

كما نزع إبليس لباس أبينا آدم حتى بدت له سـوءاته ، كذلك يسعى من أجل أن ينزع لباس التقوى منا نحن أبناء آدم ، ذلك اللباس الذي يـواري سـوءات البشر ، وعلينا ان نتذكر هذه الحقائق : ان الشيطان أقوى منا في الخــداع ، لأنه يرانا دون أن نــراه ، ولكنه لا يســتطيع ان يســيطر الا على الكفار ، لان الايمان يقاوم إغراء الشيطان.

أما الكفـار فـإنهم يخـدعون من خلال مجموعة أفكـار خرافية مثل : اتبــاع الآبــاء ، والاعتقــاد بــأنّ كل ما يعمله الآباء فهو دين ومـأمور من قبل الله سـبحانه ، بينما ربنا لا يأمر بالفحشـاء ، وهـؤلاء يقولـون ما لا علم لهم به ، وانما اتباعا لأهـوائهم ، ولا يتـذكر هـؤلاء أن أبـاهم آدم قد خدعه الشيطان ، فكيف بسائر الناس؟!

إذ المقياس ليس ما يقوله الآبـاء ، بل ما يـأمر به الله سبحانه الذي أمر بالقسط.

بينات من الآيات :

لباس التقوى :

[26] لقد انـزل الله لبـني آدم لباسا يـواري عوراته ، وأعطاه ريشا وزينة يتجمل بها ، بيد أن لباس التقوى الذي يـواري سـوءات البشر المعنوية خـير له ، وعليها لا يكتفي بلباس البدن وحده.

(**يا بَنِي آدَمَ قَـــدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباســـاً يُـــوارِي سَوْآتِكُمْ**)

وربما اســـــتخدم القـــــرآن كلمة (أنزلنا عليكم) لان البركات كلها من السماء.

(**وَرِيشاً**)

اي زينة ومتاعا.

(**وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ**)

من لبـاس البـدن بـالرغم من ضـرورة الاهتمـام بهـذا وذاك معا.

(**ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ**)

اي هــذه حجة من حجج الله ، وآية تــدل على عظمة الله ، وهذه الحقيقة يجب أن يستوعبها الناس.

(**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**)

ان معرفة حاجة البـدن الى اللبـاس قد لا تحتـاج الى تعمق بقدر فقه حاجة الروح اليه ..

[27] ومـرة اخـرى يـذكر الله البشر بـأنهم أبنـاء آدم الـــذي فتنة الشـــيطان وأخرجه من الجنة ، وعليهم أن يتحذّروا من فتنة الشيطان.

(**يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّـــيْطانُ كَما أَخْــرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**)

والشيطان كما نزع لباس أبوينا فانه يسعى ليـنزع عنا لباس التقوى.

(**يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما**)

وكذلك حين يفتن البشر يرى الواحد سـلبياته وضـعفه وعجزه ، فيكون أول من ينـدم ويـوبخ نفسه ، والشـيطان يملك وسـيلة ضد البشر هي المكر والخـداع ، فـاذا تسـلح الإنسان باليقظة والحذر استطاع ان يقاوم كيد الشيطان.

(**إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**)

بين ولاية الله وسلطان الشيطان :

ولكن ليس للشـــيطان ســـلطان على البشر ، لأن البشر يملك الارادة والعقل والضـــمير ، ولكن الكفـــار يفقـــدون إرادتهم في مقاومة الشـــيطان ، فيصـــبح وليهم بسوء اختيارهم.

(**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**)

اما المؤمنـــون فالله وليهم وهم أحـــرار من قيـــود الشيطان قال تعالى :

(**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَـوْلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَأَنَّ الْكـافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ**) 11 / محمد

ان الذي يتبع شهوة الثروة ويخضع لسلطان الطاغوت ، ويستسـلم لارادة رئيس العشـيرة ، ويخـوض مع تيـارات المجتمع حيث خاضت ، انه يفقد أرادته ويصـــبح ذرة في مهب الرياح الشيطانية.

[28] وعلامة فقد الارادة ، أن هـــــــذه الفئة لا تملك حرية التفكـــير وتتعـــرض لأســـوإ اســـتعمار واســـتعباد وهو فقدان الاستقلال الفكري والثقافي الذي هو مقدمة لسائر أنواع الاستغلال والاستثمار.

(**وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا**)

زاعمين أن ذلك يكفي شـــرعية للعمل ، وأســـوء من هـــذا أنّهم كـــانوا يزعمـــون أن أفكـــار الآبـــاء تمتلك قداسة سماوية.

(**وَاللهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ**)

تلك التي يوافقها الفرد بعقله ، وكلما يأمر به الآباء أو الأحبار أو الســلاطين ، ولكن العقل كـــان يعارضه فهو بعيد عن القداسة وعن الله.

(**أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

[29] العدالة فطـــرة كامنة في البشر وطمـــوح كبـــير وإذا لم يهو أحد القيـــــام بالقسط بنفسه فلا ريب أنه يحبه للآخـــــرين ويطالبه منهم ، والله لا يمكن أن يــــأمر بغـــــير القسط ، والعالم كله يشهد له بالعدالة في كل شيء.

(**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**)

وأمر الله بـــألّا يعبد الا هو ، وحـــتى في المواضع الـــتي يعبد من دون الله شـــركاء ، يجب رفض الشـــركاء وعبـــادة الله الواحد القهار.

(**وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**)

أنّى كان ميعاد السجود علينا ان نسجد لله لا للشركاء ، رمزا لخلوص عبادتنا

ووحدة اتجاهنا ، ودعائنا كذلك يجب أن يكون خالصا لله.

(**وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)

فلا يتجــزأ الــدين ليؤخذ منه جـانب العبـادات وتـترك المعاملات الاقتصادية ، أو القضايا السياسية أو ما أشــبهن ، وليس هناك تمييز بين أبناء آدم حتى يعبد بعضهم بعضا ، أو يترك بعضهم جانبا من الدين إرضاء للبعض الآخر.

(**كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**)

سواسية كأسنان المشط.

[30] نعم هناك اختلاف واحد بين أبناء آدم يعـترف به الإسـلام هو : اختلافهم من حيث الايمـان والعمل الصـالح (أو بتعبير آخر اختلاف الارادة والسلوك).

(**فَرِيقاً هَدى**)

اي هداهم الله فاستجابوا للهداية.

(**وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ**)

وكتبت عليهم الضلالة بسبب توجههم الى غير الله.

(**إِنَّهُمُ اتَّخَـذُوا الشَّــياطِينَ أَوْلِيــاءَ مِنْ دُونِ اللــهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**)

حينما يهبط البشر الى هذا الدرك لا يرجى له الشـفاء ويصـبح ممن حقت عليه الضـلالة ، حيث يتخذ الشـيطان ، الذي هو عدو وليا وقائـدا له ، ويكفر بالله خالقه وراحمه ، والانكى من ذلك أنه يحسب نفسه مهتــــــــديا ، وهو في الضلال البعيد.

يا بَنِي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا خالِصَـةً يَـوْمَ الْقِيامَـةِ كَـذلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَـواحِشَ ما ظَهَـرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللـهِ ما لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطاناً وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

---

33 [البغي] : الاستطالة على الناس ، وحّده طلب الـترؤس بـالقهر من غير حقّ.

تشريعات الرسالة تكامل وواقعية

هدى من الآيات :

في الدرس السابق ، أمر القرآن بإخلاص الـدين لله ، ومعنــاه أن تكــون وجهة البشر نحو الله في كل جــوانب الحياة ، وأن تكون برامج الله سائدة على كل أبعاد الحياة ، وفي هــذا الــدرس يضــرب القــرآن لنا مثلا واقعيا حيث يأمرنا بـالتزين عند كل مسـجد فالمسـجد عبـادة ، والزينة حياة كما يأمرنا بالأكل والشرب ضمن حـدود التقـوى ، ثم تساءل القرآن عمن حـرم زينة الله ، وطيبـات رزقه الـتي هي خالصة للمؤمـنين في يـوم القيامـة؟ ثم نهى القــرآن عن مجموعة شــــؤون حياتية كــــالفواحش والإثم والبغي فــــالفواحش والإثم مثلا للســـلوك الشخصي المنهي عنه والبغي مثلا للسلوك الاجتماعي المنهي عنه.

كما نهى مرة اخرى عن الشـرك. الـذي من مظـاهره الخضـوع للسـلطان الظـالم ، ونهى عن القـول بغـير علم مثلا لتوجيه القــرآن في الثقافة ، هــذا هو الــدين وخلوصه يعني الا يتبع الفرد شريعة ومنهاجا من غير الدين.

بينات من الآيات :

كيف نعرف طبيعة الديانات ..؟

[31] بــالنظر الى جــانب واحد من مـــذهب أو دين نستطيع ان نعـرف طبيعته معرفة تامة ، فـاذا نظـرت الى مســجد المســلمين فانك تســتطيع ان تعــرف الصــيغة التكاملية للإســلام ، فالمســجد محل عبــادة يعــرج منه المؤمنــون الى الله ، ومقــام حــرب بين الهــوى والعقل ، وبين الباطل والحق ، ولكنه في نفس الـــوقت مكـــان للتعـارف والتعـاون والاجتمـاع ، وكلما يقـرب الإفـراد الى بعضـهم يسـتحب أو يجب وجـوده في المسـجد كالطهـارة والنظافة والزينة ، حيث أمر الله بـــأن يتخذ المؤمنـــون أفضل زينتهم الى المسـاجد ، حـتى يكـون مظهر المجتمع جذابا ، ويقرب مظاهر الإفراد بعضهم الى بعض.

(**يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**)

وكما أنـــزل الله لبـــني آدم لباسا وريشا ، وكما أنعم على أبوينا باللباس كذلك أمر بالاستفادة من نعمة الزينة ، ولكن ليس في التفـــاخر ولا في مجـــالس اللهو ، وإنما للتعارف وللتعاون في المحافل الدينية وكما ينبغي الانتفاع باللبـاس كـذلك ينبغي أن يسـتفيد المـؤمن من نعم الأكل والشرب ولكن في حدود العدالة التي تحافظ على تعـادل المجتمع ، كما تحافظ على سـلامة الجسد الـذي يفسـده الإسراف في الطعام.

(**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**)

إن حرمة الإسراف ، وضـرورة تنظيم الاكل والشـرب مظهر آخر من مظاهر التكاملية في الإسلام.

(**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**)

الإسـراف قد يكـون بتجـاوز حـدود الشـريعة ، فالـذي يأكل لحم الخنزير ، ويشرب الخمـرة فهو مسـرف لا يحبه الله ، إذ ما دام الحلال واسعا. فلا حاجة الى الحرام ، وقد تتجاوز حـدود العـرف العـام فتبـني بيتا بمليـون دينـار في الوقت الـذي يكفيك نصـفه ، وقد تشـتري سـيارة بعشـرة آلاف دينـار بينما تكفيك سـيارة بـألفين ، وحـدود السـرف ترتبط بـــالظروف الاجتماعية ، بل وحـــتى الظـــروف الشخصـية ، فـالفقير الـذي لا يملك سـوى بضـعة دنـانير فيصرفها في شراء العطور ، ويهمل عائلته جـائعين يعتـبر مســرفا ، بينما لو فعل الغــني مثل ذلك لم يكن كــذلك ، والــدول الفقــيرة الــتي تقلد الــدول الكــبرى في بنــاء المطارات الضخمة ، أو المباني الرياضية الكبيرة ، أو بنـاء سفارات فخمة تعتبر مسـرفة ، بينما قد لا يعتـبر مثل ذلك إسرافا للدول الغنية.

هل حرّم الله الزينة؟

[32] لم يحــرّم الإســلام الزينة على المؤمــنين ، بل اعتبرها خالصة لهم يـوم القيامة ، فكيف يحرّمها الله على المؤمنين في الدنيا؟

(**قُــلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللــهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبــادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

فالزينة مخلوقة للمؤمـــنين في الـــدنيا ولكنها غـــير خالصة من شوائب المصائب ، أما في الاخرة فهي خالصة لهم ..

(**كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

بالعلم والمعرفة يعرف المؤمن ان الاستفادة من نعم الله لا ينقص الايمــان ، وإنما ظلم النــاس ، أو الخضــوع للظلم ، أو السكوت على ظلم الظـالمين هو الحـرام وهو الأصـعب مسـئولية وواجبا ، ومن اسـتطاع ان يحقق هـذا الواجب ، ويؤدي هذه

المســـؤولية فقد اقتحم العقبة وفـــاز ، ولكن من دونها لا ينتفع له التخشن في المأكل وترك الزينة.

تحريم الفواحش جوهر الدين :

[33] ركّز القـــــرآن على حرمة الفـــــواحش والبغي والشـــرك وهي جـــوهر الـــدين وأثقل مســئولية ، وهــذه المحرمات الثلاث تتصل بثلاث أبعاد من حياة الفرد هي :

الأول : العلاقات الجنسية : حيث حرم ربنا الفــواحش ، ومن أبرز مظاهرها الشذوذ الجنسي الذي يهدم الأســرة ، ويفسد العلاقـــات الاجتماعية ، وســيئ التربية وهكـــذا ، وليست الفواحش الظاهرة كالزنا هي المحرمة فقط ، بل الباطنة أيضا منهي عنها مثل : مصـــادقة النســـاء ، وربما تشـمل الفـواحش الباطنة تلك الأسـباب الـتي تـؤدي إليها مثل الخلاعة ، ووضع العقبات أمام الزواج.

(**قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَـرَ مِنْها وَما بَطَنَ**)

الثـاني : السـلوكيات الشخصـية الـتي حـرم ربنا فيها الإثم وهو كل حرام مثل شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، والمحـــرم من اللحـــوم خصوصا ما لم يـــذكر اسم الله عليه.

الثـالث : ظلم النـاس وتجـاوز حقـوقهم سـواء كـانت الحقـوق المالية كحرمة السـرقة ، والرشـوة ، والضـرائب المجحفة ، والغش ، وأخذ المــال من دون عمل مناســب. أو كـــــــــانت حقوقا اجتماعية مثل حرمة الغيب والتهمة والنميمة وما الى ذلك ، إن كل ذلك ظلم وحرام ..

(**وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِ**)

وربما يكـون كلمة (بغـير الحـق) تفسـير للبغي ، وأنّ كل تجاوز للحق يعتبر بغيا

وظلما حراما.

وبعد هذه المحرمات يأتي دور المحرّم الخطير!؟ وهو المرتبط بالسياسة حيث يحـرم الخضـوع لسـلطان غـير سلطان الله ، أو اتبـاع شـخص أو جهـاز لم يـأذن به الله ، وبالتـالي يجب التمـرد على هـذه الانظمة الـتي تحكم الشـعوب بأسـماء غـير اسم الله ، أو تـدّعي أنها تمثل سلطان الله كذبا وزورا وهذا هو الشرك.

(**وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ**)

في سلطانه وسيادته القانونية والسياسية.

(**ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً**)

فاذا أنزل الله سلطانا بجواز اتباع أحد عبر ادلة عقلية واضحة لا يرتاب فيها الشخص ، آنئذ فقط يجـوز أن يخضع الفرد له وذلك الشخص مثل الرسول (ص) والائمة الهداة (ع) ، والعلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

أما ان يتخذ الفرد شخصا قائده وامامه ، أو يتخذ حزبا يقلده ويتبع برامجه بصورة عشـوائية ، فـذلك امر لا يجـوز أبدا.

وإذا كـانت الولاية لله ، ولمن أنـزل الله فيه سـلطانا يجب ان تكـون الثقافة السـائدة على هـذا المجتمع ثقافة حقّة ، لان الثقافة هي الخلفية الرصـينة لهـذه الولاية ، وذلك لا يكـون إلّا بعد سـكوت الجاهل ، وعـدم إشـاعة الأفكار الباطلة ، فاذا سـكت من لا يعلم بحث النـاس عن العلم الصحيح ، ووصلوا اليه عبر قنواته السليمة.

(**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

أما إذا شاع الافـتراء على الله ، فقـال كل واحد كلاما ونسبه الى الله ، فان طريق

الحق يضيع بين طرق الضـلال ، وكلمة علم واحـدة تختلط بـألف كلمة جهل ، ولا سـبيل آنئذ للإنسـان للوصـول الى الحقيقة.

هذه هي المحرمات التي لو واجهت الفرد المسـلم أو المجتمع المسلم في تنفيذها لبقي جزء منها غـير مطبق ، إلّا من عصمه الله لأنها صـعبة للغاية ، أما إذا تجنب الفـرد جانبا من الطيبات ، وتصور أنه زاهد ، أو اعتـبر الـدين كله مجـرد الابتعـاد عن بعض اللذائذ ، فـان ذلك خـداع ذاتي لا أكثر.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34) يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ

ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كـانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْـلٍ فَـذُوقُوا الْعَـذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

عاقبة الذين يفترون

على الله الكذب

هدى من الآيات :

بيانا وتوضيحا للدروس السابقة ، جاء هذا الدرس ليذكرنا بأن حياة البشر محدودة بأجله ، وأن اجله لا يتأخر ولا يتقدم ، فليس بامكانه أن يطلب المهلة ولو لوقت قصير ، وأن الفرصة الوحيدة هي الحاضر ، حيث جاءت الرسل تقص آيات الله ، فعلينا أن نتقي الله ، ونصلح العمل حتى لا تضرّنا العاقبة ، بينما التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها ينتهي بالنار الخالدة ، ولكن لماذا التكذيب؟ أو ليس ذلك ظلما يظلم به البشر نفسه وبلا سبب ، حيث يكتب عليه القانون ما ينبغي له ، وآنئذ لا يجد له ملجأ يلجأ اليه ، أما أولئك الشركاء الذين كان يتوعدهم الله ، فإنهم يغيبون عنه ولا يجد لهم أثرا ، وهناك يقول الله لهم : ألحقوا بأسلافكم من الكفار ، أولئك الذين يستقبلونكم باللعنة ، ويقول المتأخرون : يا رب؟ عذّب هؤلاء الذين أضلونا عذابا مضاعفا ، لأنهم كانوا السبب في وقوعنا في العذاب ، بيد أن الله يقول : وأنتم بدوركم سينالكم العذاب المضاعف لأنكم فعلتم الذنب ، ولأنكم اتبعتم السابقين من دون سلطان ، بيد أن للسابقين كلمة أيضا ، حيث يقولون للآخرين :

ماذا انتفعنا باتّباعكم لنا؟!

بينات من الآيات :

بين الأجل والعمل :

[34] ان يعرف البشر أن عقاب أعماله ليست عاجلة ولكنها مؤجلة لــوقت محــدد ، إن ذاك يعطيه مزيــدا من الكبح الــذاتي ، وينمي وجدانه الــرادع ويربيه ، ولكن قد يــزعم البشر أنه ما دام العقــاب مؤجل فمن الممكن ان نستفيد من تأخير العقاب مرة بعد اخـرى ، حـتى نتـوب أو نعمل صالحا فـيرتفع العقـاب رأسا ، ولكن القـرآن يسـفه هذا الزعم : بأن لكل أمة أجلا حدده الله ، وبالرغم من ان هـذا الأجل مجهـول إلّا أنه معلـوم عند الله ، وإذا بلغ أجله فلن يتبـدل ، فعلينا إذا انتظـار ذلك الأجل في كل لحظة ، ولا مفر منه ولا تــأخير فيه ، وليس لــدينا قــدرة على مقاومته إلا بالعمل الصالح الذي يجعل الأجل في صالحنا.

(**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**)

أي وقت تســتنفذ الأمة خلاله كل إمكانــات التــذكر والايمان.

(**فَــإِذا جــاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْــتَأْخِرُونَ ســاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**)

وكم يكـون خطـيرا هـذا الأجل إذا جـاء دون أن يعمل الإنسان صالحا.

[35] ولذلك فعلينا أن نسـتعد للأجل المحـدد الـذي لا يتغير ، والاستعداد لا يتم إلا بالاستجابة لرسالات الله.

(**يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَــأْتِيَنَّكُمْ رُسُــلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّــونَ عَلَيْكُمْ آياتِي**)

فعليكم الاستجابة لهذه الرسالة ، التي تفصّل لكم كل شيء تفصيلا.

(**فَمَنِ اتَّقى وَأَصْـــلَحَ فَلا خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

لا خــوف عليهم بسـبب أعمــالهم الصــالحة ، فهم لا يخشون بلوغ الأجل ونهاية الفرصة ، كما الطالب المجد لا يخشى الامتحان ، وكما الـبريء لا يخشى المحاكمة ، وهم لا يحزنـون على ماضـيهم الـذي اسـتغلوه بالعمل الصـالح. استعدادا لهـذا اليـوم ، وربما تكـون التقـوى هي : الجـانب النفسي والإصلاح هو : الجانب العملي.

[36] بيد أن الخوف والحزن من نصيب الكفار الـذين يكـذبون بالآيـات بعد وضـوحها ، فهي علائم صـريحة على الحقيقة التي لا يصدّقون بها استكبارا ، واستجابة لأهوائهم ، وعقدهم النفسية.

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها**)

إن جزاء هؤلاء هو الاقتران بالنار ، والتلاحم مع عذابها دون أن يجدوا خلاصا.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

وخلود هؤلاء في النار يعتبر الجزاء المناسب لعنــادهم الــذي لا رجــاء في إصــلاحه ، ولاســتكبارهم الــذي جعل قلـوبهم في صـندوق حديـدي لا ينفذ إليه النـور والهـواء ، بالرغم من قوة ضياء النور أو زيادة دفع الهواء.

[37] إذا كم يكـــون ظلم البشر لنفسه كبـــيرا حين يجعل نفسه في هــذا المــأزق الخطــير ، ويســتكبر عن الحقيقة.

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِآياتِهِ**)

إن البشر حين يستكبر ويتطـاول على الحقيقة يخـدع نفسه والآخـرين بصـنع بـديل للحقيقة ، فهو من جهة يكفر بالحقيقة والآيات والعلائم الواضحة التي تدل عليها ،

ومن جهة ثانية يخلق لنفسه أفكـــارا وينســـبها الى الله كبديلة عن الحقائق ، وجـزاء هـؤلاء هو : أن تلك الحقـائق التي كفروا بها ستحيط بهم وتنتقم منهم.

(**أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ**)

إن نصــيب المؤمــنين العــاملين بالكتــاب هو تحقق المكتسـبات الرسـالية الحسـنة لهم ، أما نصـيب الكفـار الرافضــين للكتــاب فهو تحقق العقوبـات الــتي ينــذر بها الكتاب ..

(**حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُـلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قـالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

أي تلك الأفكــار ، وأولئك الشــركاء الــذين كــانوا يجســدون تلك الأفكـار في الواقع العملي ، أين هم الآن؟ وقد كنتم تعتمــدون عليهم ، وتزعمــون بــأنهم يشــكلون البديل المناسب عن الحقيقة ، وعن آيات الله!

(**قـالُوا ضَـلُّوا عَنَّا وَشَـهِدُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ**)

كـافرين بالحقيقة ، وبالتــالي شــهدوا على أنفســهم بأنهم يستحقون العذاب.

حوار التابع والمتبوع :

[38] لأن هــؤلاء كــانوا مســتكبرين ، لــذلك كــانوا يفتخـرون بأنسـابهم وبعشـيرتهم ، وبالسـابقين من آبـائهم وكـبرائهم ، وحين اجتمعـوا في النـار ببعضـهم ، كـان بين التابعين والمتبوعين منهم حوار نافع لنا.

(**قـالَ ادْخُلُـوا فِي أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها**)

بــــــــالرغم من أن الأمم اللاحقة تعتمد على الأمم السابقة في الدنيا ، لكنها في

الاخرة ولوضوح الحقائق عندهم جميعا يلعن بعضـهم بعضا ..

(**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً**)

أي اجتمعوا إلى بعضهم ، وأدرك بعضهم بعض.

(**قالَتْ أُخْراهُمْ**)

أي تلك الأمم المتأخر.

(**لِأُولاهُمْ ، رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِـعْفاً مِنَ النَّارِ**)

لأنهم أضـلوا وسـنوا سـنة سـيئة ، فسـرنا عليها فهم يستحقون ضعفا من العذاب.

(**قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ**)

لأولئك بسـبب أسـبقيتهم بـالكفر ، لأنهم سـنّوا تلك العادات السيئة ، وروجـوا لتلك الأفكـار الباطلة ، وكل من يدعو الى فكرة باطلة فله عذاب من يعمل بها.

أما أنتم فعليكم ضـــعف من العــــذاب ، لأنكم اتبعتّم أولئك من دون سـلطان من الله أنــزل عليكم ، فالــذي يعمل السيئة بسبب شهواته عليه من العذاب بقدرها ، أما من يعملها تقليدا لغيره فعليه بالاضافة الى عـذابها عـذاب التقليد الباطل ، لأنه يحـرم شـرعا أن تتبع أحـدا من دون الله ، فـان اتباعك له شـرك وضـلالة بذاته ، إنه كفـران بنعمة الحرية ، وتحطيم لكرامة الله عليك.

(**وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ**)

[39] والسـابقون أجـابوا أتبـاعهم بـأنهم لم يزيـدوهم باتّباعهم شيئا ، فما الذي انتفع به فرعون من اتباع ملـوك مصر له ، وما الذي انتفع به هتلر من اتباع حكام

لبلاد الإسلامية له ولأساليبه؟ لا شيء.

(**وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كـانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**)

إن العــذاب الــذي يذوقه الكفــار انما هو بســبب ما اكتسبوه من أعمال ، لا بسبب هذا الشخص أو ذاك.

إِنَّ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْـتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهــادٌ وَمِنْ فَـوْقِهِمْ غَــواشٍ وَكَــذلِكَ نَجْــزِي الظّالِمِينَ (41) وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّــالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهــذا وَما كُنَّا

---

40 [سم] : الثقب.
[الخياط] : الإبرة.
41 [مهاد] : الوطاء الذي يفترش.
[غواش] : الغواش جمع غاشية وهو كلّ ما يغشاك أي يسترك.
42 [غــل] : الفعل الحقد الــذي ينفذ بلطفه الى صــميم القلب ، ومنه الغلول وهو الوصول بالحيلة الى دقيق الخيانة.

لِنَهْتَـدِيَ لَـوْ لا أَنْ هَـدانَا اللـهُ لَقَـدْ جـاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنا بِـــالْحَقِّ وَنُـــودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

عاقبة المكذبين والمستكبرين

هدى من الآيات :

في الدرس السابق. ذكّرنا القرآن بسفاهة الاستكبار ، وفي هذا الدرس يبيّن لنا جزاء الاستكبار ، الذي هو في الواقع متصل بطبيعة الاستكبار.

التكذيب بالآيات ، والاستكبار عنها معناه الخلود الى الأرض ، والاعتقال في السجون المادية ، ولذلك لا يعرج المستكبر في سماء التقرب الى الله ، ولا يحلّق في أجواء المعرفة والكمال ، وكأن أبواب السماء مغلقة في وجهه ، أما الجنة في الآخرة فإنها مغلقة دونهم ويستحيل عليهم دخولها ، كما يستحيل ولوج الجمل بضخامته في ثقب المخيط.

إن ذلك جزاء المجرمين بسبب جريمتهم التي ارتكبوها ، أما منزل هؤلاء في جهنم فأرضها من نار ، وسقفها من لهيب ودخان ، وهذا جزاء من يظلم نفسه.

وفي الطرف الثاني : المؤمنون الذين يعملون الصالحات حسب طاقتهم ووسعهم

يـدخلون الجنة ويخلـدون فيهـا. وأبـرز نعمة يسـبغها الله عليهم هي نعمة الراحة النفسـية ، والصـفاء بين بعضـهم ، حيث يـنزع الله ما في صـدورهم من غـلّ وحسد ونفـاق ، أما النعمة الثانية فهي : الأنهـار الـتي تجـري من تحتهم ، والنعمة الثالثة هي : رضـــاهم وتحقيق طموحـــاتهم ، وشكرهم لربهم وشكر الله لهم ، حيث ينـاديهم بـأن الجنة إنما هي ميراث اكتسبوه بأعمالهم.

بينات من الآيات :

كيف يخسر المستكبرون

[40] (**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا**)

الـذين كـذبوا بآيـات الله زاعمين ان التكـذيب. يخـدم ذواتهم ، ويشبع إحساسهم بالعلوّ والعظمة خسروا مـرتين : مـرة حين سـدّوا على أنفسـهم بسـبب التكـذيب أبـواب الرحمة ، وآفـاق العلم ، ورحـاب الحيـاة ، إذ أن التكـذيب كـان معتقلا حصـينا سـجنوا أنفسـهم بين جدرانه الضـخمة المرتفعة ، والشـرط الأول للاتصـال بالحيـاة هو معرفتها ، وبعد المعرفة يسهل تسخير الحياة لأهداف البشر ، والذي لا يعترف بالمعرفة ، ويكذب بآيات الحقيقة ، بل لا يعترف بـأن هنـاك واقعا عليه أن يوفق نفسه واعماله حسـبه ، كيف يتسـنى له تسـخير الحيـاة؟! من منا يكفر بالحيـاة ، ويهـدم على نفسه السـلالم الـتي لا بد أن يتسـلقها ، والخسـارة الثانية انهم يخسـرون مكـانهم في الجنة ، ويدخلون النار.

ان التعبـير القـرآني يسـمو الى منتهى اللطف والدقة حيث يقول :

(**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ**)

ثم ان البشر يســــمو بمعنوياته وبدعائه وبإيمانه وبإرادته وبرؤيته البعيدة ، وكل

ذلك مسلوب ممن يكذب بآيـات الله ، لأنه لا يعـترف بالله ولا يريد الايمان به.

إن أبــواب الســماء مفتوحة أمــام أعمــال المؤمــنين ودعواتهم ، بعكس الكفار.

ويأتي القرآن ليبيّن الخسارة الثانية فيقول :

(**وَلا يَــدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَــلُ فِي سَــمِّ الْخِياطِ**)

ولأنه مســتحيل أن يــدخل الجمل بضــخامته في ثقب المخيط لصغره ، فإن دخول الجنة هو الآخر غير واقع.

(**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**)

فليس ذلك فقط بســبب كفــرهم واســتكبارهم ، بل وأيضا بســبب إجــرامهم العملي ، وبقــدرة الله أيضا وقبل كل شيء.

[41] محل هــؤلاء النــار ، حيث يســتقرون في جهنم وفوقهم ظلل من اللهيب والدخان ، تغشاهم وتسترهم.

(**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**)

بظلمهم وبقدر ذلك الظلم.

وحسبما يبدو لي : إن الجمل الاعتراضـية في القـرآن كالتي سوف تـأتي في الآية التالية وهي (**لا نُكَلِّفُ نَفْســاً إِلَّا وُسْــــــعَها)** إنها والجمل النهائية مثل آخر الآيــــــتين الأخـيرتين وما أشـبه هي إشـارات الى الفطـرة البشـرية التي يهـدي إليها العقل ، ويـذكّر بها الـوحي ، وتبـنى عليها شــــرائع الســــماء جميعا ، فالجريمة والظلم قبيحــــان وجزاؤهما يجب أن يكـون شـديدا ، والمسـتكبر المكـذب بآيات الله. مجرم ظالم ، وهذه

الإشارات تشكل القيم الأساسية في القرآن الحكيم.

عاقبة المؤمنين

[42] تلك كانت عاقبة المكـذبين الظـالمين ، فما هي عاقبة المؤمنين الصالحين؟

أولا : هؤلاء لا يكلفون فـوق طـاقتهم ، فليس الايمـان أو الواجبات شيئا شاقا حسبما يوهم الشيطان للبشر ، بل هو عمل ميسور.

ثانيا : ان مصـير الايمـان والصـلاح الجنة والرضـوان ، وصـاحب الايمـان والصـلاح هو صـاحب الجنة والرضـوان ، ذلك حق لا ريب فيه.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسـاً إِلَّا وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

[43] ثالثا : أن الايمـــان بالله هو مثل للخـــروج من معتقل الـــذات الى رحـــاب الحقيقة ، ومن نتائجه الاولية الواقعية في الرؤية ، وأن يـرى الشـخص نفسه ، ويـرى الآخـرين معه ، فلا تضـيق نفسه بما أنعم الله عليهم ، ولا ينـــافق معهم ، ولا يســـلب منهم نعم الله أو يحب ذلك ويعلم أن فضل الله على أيّ أحد يتناسب وطيبة نفسه ، ومقـدار عمله ، وحكم الله في الحيـاة ، فـاذا لمـاذا الحقد والحسد؟ ولمـاذا الفسق والـتزوير والنفـاق؟ هـذه الصـفة تنعكس في الآخرة على شكل مؤانسة وصفاء بين قلـوب المؤمنين.

(**وَنَزَعْنا ما فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ**)

الرضا من نعم الله على المؤمـــنين في الجنة ، فهم كما رضوا في الدنيا بما قسم الله عليهم وأسلموا لربهم ، راضون في الآخرة لأنهم رأوا عاقبة عملهم الصالح.

(**وَقــالُوا الْحَمْــدُ لِلَّهِ الَّذِي هَــدانا لِهــذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ**)

إذا فهي نعمة كــبري لا يبلغها الفــرد بذاته ، بل بالله سبحانه ، ومن هنا يسـتوجب المزيد من الشـكر ، والمزيد من الحمد والرضا.

(**لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ**)

كـانوا يؤمنـون بهـذا الحق في الـدنيا إيمانا غيبيا ، وها هم يرونه عين اليقين أمــــامهم ، وكما ان المؤمــــنين يشــكرون ربهم ، فــان الله يشــكرهم ويشــعرهم بــأن أعمــالهم الصــالحة هي الــتي أوجبت لهم هــذا الفضل العظيم ، وبهــذا يــزدادون إحساسا بالرضا والاعــتزاز ، إذ فرق بين أن تحصل على نعمة صدفة أو تخطط لها وتتعب نفسك ، فتصل إليها بجهدك.

(**وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ**)

العظيمة الواسعة النعم.

(**أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

فأعمـالكم الصـالحة هي الـتي جعلتكم تملكـون هـذه الجنان إرثا حلالا.

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)

---

46 [الأعراف] : الأمكنة المرتفعة ، والعرفاء من الناس أعلاهم منزلة ، والعريف الشرطي.

جزاء الظالمين

الذين يصدّون عن سبيل الله

هدى من الآيات :

في صـورة حـوار يجـري مسـتقبلا بين أصـحاب الجنة وأصـحاب النـار ، يجسد القـرآن الحكيم حقـائق الحاضر ، وأبرزها أن ما يقوله الله حق ، وأن لعنة الله على أولئك الذين يظلمون أنفسهم فلا يسـتجيبون للحق ، بل يصـدّون الناس عن سبيل الحق ، ويحرفون السبيل ليضـلوا النـاس وهم يكفرون بالآخرة.

بين الجنة والنــار مرتفع من الأرض أشــبه ما يكــون بسور يقف عليه أئمة الصـلاح ، الـذين يعرفـون المؤمـنين والكافرين بسـيماهم ، وينـادون أصـحاب الجنة ويسـلّمون عليهم. ويــأذنون لهم بــدخول الجنة ، وقد اســتجيبت كل طلباتهم ، فلا يطمعون في شيء آخر.

بينما لا ينظرون إلى أهل النار ، إذا صـرفت أبصـارهم تلقاء جهنم فزعوا من هول جهنم ، وخافوا ان يصبحوا من أهل النار من شدة فزعهم ، وقـالوا : (**رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَـعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**).

إن هذا الدرس يتابع فكرة الدروس السابقة التي هي تصـوير للحقـائق ، لعل البشر يخـرج من قوقعة ذاته إلى رحاب الحقيقة.

بينات من الآيات :

كيف نتذكر الحقيقة

[44] لكي يتغلب البشر على مشــكلة النســيان في ذاته ، ويتمكن من تذكر الحقائق الـتي يهتـدي إليها بعقله ، ويحيط بها علمه ، وبالتـــالي لكي يشـــاهد بأحاسيسه وببصـيرته الحقـائق القادمة ، فعليه أن يتسـلح بالتصـور ، وتجسّد الحقائق إمامه يقرّب بالخيال واقعيـات المسـتقبل التي لا يعلم بها إلّا رمزا.

مثلا : الجنـدي الـذي يتـدرب في المعسـكر ، والـذي يعلم انه سـوف يخـوض في المسـتقبل معركة المصـير ، وأنه لو تدرب جيدا فسـوف يتغلب فيها وإلا فلا. على هـذا الجندي أن يتصور أبـدا سـاحة المعركة ، ومـدى المكسب فيها عند الانتصار ، ومـدى الضـرر عند خسـارتها ، وكـذلك البـاحث في مكتبه ، والعامل في مصـنعه ، والمـدير في دائرته ، كل أولئك لو فكـــروا في مســتقبل أعمـــالهم ، وتذكروا ذلك المستقبل إذا لعملوا أفضل وأفضل.

والقرآن الحكيم يصوّر لنا المستقبل في صـورة حـوار بين المؤمنين والكافرين ، وهذا الحوار يتم بشـكل منـاداة فاذا بالقشور السميكة التي تحيط بقلوبنا تتفتت بفعل هذا الصوت المخترق.

(**وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَـدْنا ما وَعَـدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَـلْ وَجَـدْتُمْ ما وَعَـدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قـالُوا نَعَمْ فَـأَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَـةُ اللـهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**) فما دام كلام الله حقا ، ووعـده صـدقا ، فلما ذا التكذيب به؟! ولماذا الامتناع عن

الاستجابة له وفيه منافعـه؟! إن ذلك ظلم عظيم ، ورحمة الله تتمثل في جنته ، وتوفيقه بعيد عن الظالم ..

وسوف نتحدث إنشـاء الله عن المـؤذن الـذي نتصـور أنه هو صاحب الأعراف الآتي ذكره.

ظلم النفس والمجتمع :

[45] الظالم لا يبقى في حدود ظلمه لنفســه. بل أنه سوف يظلم الناس أيضا ، وسوف يدعو الناس الى منهجه الباطل ، ويقف عقبة امـام توجّه النـاس الى الله ، بل ولا يدع الناس يعملون الخير.

(**الَّذِينَ يَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَيَبْغُونَها عِوَجـاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ**)

[46] (**وَبَيْنَهُما حِجابٌ**)

وبين أهل الجنة والنار حجاب ، والحجـاب في الآخـرة تعبير عن الحجـاب في الـدنيا بين المـؤمن والكـافر ، ذلك هو الفــرق بين فــريقي المؤمــنين والكــافرين ، واختلاف جبهتيهما ، حيث إن المؤمن الـذي لا يـؤمن بهـذا الحجـاب يشك في إيمانه.

وبـالرغم من اختلاط النـاس ببعضـهم في الـدنيا فهم في الآخرة مختلفون جدا ، وبين الجنة والنار أعراف ، وهو مرتفع من الأرض يفصل بين المـــــوقعين ؛ ويجلس عليه رجـــال معيّنـــون أهم مــيزة فيهم هي : معــرفتهم التامة بالناس.

(**وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ**)

ويبـــدو أن هـــذه الفئة هم القـــدوات والأئمة الـــذين يميّـزون بين الحق والباطل ، وصــفات أهلهما ، وبالتــالي يعرفون كلا منهما ، هذه الفئة هم القادة المؤمنين في

الـدنيا ، وفي الآخـرة قـادة النـاس جميعا ، فهم يميّـزون هنـاك كما في الـدنيا بين الطـائفتين ، وهـؤلاء يعطـون للمؤمنين الاشارة الخضراء لدخول الجنة.

(**وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ**)

وحين يـدخل المؤمنـون الجنة ، تملأ الجنة كل طموحهم وتطلعهم.

(**لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ**)

[47] ويبقى هـؤلاء الائمة متـوجهين في الأكـثر إلى أهل الجنة ، وإذا تـوجهت نظـراتهم إلى أهل النـار مـرة واحدة أفزعتهم النار بما فيها من أنـواع العـذاب ، وطلبـوا من ربهم نجاتهم منها.

(**وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قـالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51) وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ

شُـفَعاءَ فَيَشْـفَعُوا لَنا أَوْ نُـرَدُّ فَنَعْمَـلَ غَيْـرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ قَـدْ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كـانُوا يَفْتَرُونَ (53)

هكذا ينسى الله

الذين اتخذوا دينهم لعبا

هدى من الآيات :

في جو النـداء الصـارخ ومع الحـوار السـاخن يـذكّرنا السياق القـرآني بـذات الحقـائق الـتي يـذهل عنها النـاس وهم يصـارعون المشـاكل اليومية ، أولئك النـاس الـذين يعتمدون على العشيرة والحزب والزملاء.

ولذلك فهم يستكبرون عن الحقـائق ولكن عند الله لا يغني كل ذلك عنهم شيئا ، وقد يستصـغر البشر المؤمـنين لقلة عددهم وضعف عدتهم ، ويحلفون بالله أنهم منبوذون عنده ، ولكن الله يدخل هؤلاء الجنة ، وهنـاك يطفق أولئك المستكبرون المعتمدون على كثرة العدد والعدة بالسـؤال من المؤمنين أن يعطـوهم الفـائض من مـائهم ، والفتـات من نعم الله عليهم ولكن هيهات.

إن الكفـار الـذين حرّمـوا على أنفسـهم نعمة الـدّين ، واتخــذوه أداة للتســلية ، واســتهانوا به ، وانبهــروا بعاجل الدنيا. إنهم حرموا على أنفسهم بذلك نعم الآخرة

أيضا ، إن الله ينساهم هناك كما نسوا الآخرة ، وكما أنكروا آيات الله الدّالة على الحقائق.

والله لم يقصّر في هداية الناس حتّى يحتجّوا عليه يوم القيامة ، بل جاءهم بكتاب مفصّل ومبين في كافة حقوق الحياة ، خلفيّته العلم والمعرفة ، وهدفه التوجيه والهداية ، ونهايته السعادة والرحمة ، بينما الكفار ينتظرون تطبيق آيات الكتاب عمليا حتى يؤمنوا به ، وآنئذ لا ينفع الايمان.

بينات من الآيات :

التصور أجنحة الحقيقة :

[48] في يوم القيامة حين ينشغل الجميع بأنفسهم ، يتفرغ أصحاب الأعراف وهم أئمة المتقين لمحاسبة الناس واسترجاع ذكريات الماضي.

(**وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ**)

أي ملامحهم التي تتأثر بالعذاب ، وتمسخ عن الانسانية الى صور مفزعة.

(**قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ**)

أي ما الذي أفادتكم الجماعة التي اعتمدتم عليها ، وزعمتم انها ستنفعكم في أوقات العسر والشدة فأين هم الآن!

(**وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**)

أي أين ذلك الغرور الذي جعلكم تستكبرون به ، أين القوة وأين الشباب وأين المال وأين الصحة؟ وبالتالي أين تلك الماديات الزائفة التي غرّتكم ، وجعلتكم تتطاولون على الحقيقة ، وتحسبون أنفسكم فوق الحق ، وأعلى من القيم؟!

إننا إذ نتصور ذلك اليوم ، وتلك الساعة التي يخـاطب أصحاب الأعراف واحـدا منا إذا كـان مسـتكبرا ــ لا سـمح الله ــ لنعـود ونـرتّب أوراقنا من جديد ، ونتسـاءل عما إذا كنا في ذلك اليوم غير قادرين على التوبة ، أو على العودة إلى الحيـاة للتوبة ، فما دمنا نملك فرصة الحيـاة إذا دعنا نتـوب الى ربنا ، ونصـلح أنفسـنا ونتقـرب الى أصـحاب الأعـراف الـذين مثلهم بيننا مثل الأنبيـاء بين أقـوامهم ، يعرفون ملامح المؤمنين وملامح الكفـار ، ويتضـرعون الى الله لإصـلاح النـاس بعد صـلاح أنفسـهم ، نتقـرب إليهم ونستمع الى نصـائحهم الـتي تشـبه نصـائح الطـبيب الـذي يكشف المـرض ، ويعـرف ملامح المـريض لعل ذلك يـؤثر في مصـيرنا ، ومـرة أخـرى ، أقـول : دعنا نتصـور ذلك الموقف الرهيب ، فان التصور أجنحة الحقيقة التي تجعلك تلامس الواقع المستقبلي ، وترى الغيب البعيد.

[49] وينظر أصـــحاب الأعـــراف الى أهل الجنة ، ويسألون أهل النار.

(**أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ**)

وحلفتم زورا وكــــــذبا ، وتماديا في غـــــــروركم واستكباركم.

(**لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ**)

هذه رحمة الله تغمرهم ، ثم يخاطبون المؤمنين :

(**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**)

فعلى الإنسان ألّا يزعم أن تأكيده وحلفه يغيّر الحقيقة ، بل يفضحه أكـثر فـأكثر ، فهنـاك يسـتبد به الخـوف على مستقبله والحزن على ماضيه.

[50] ويكـون مصـير الكـافر بالحقيقة الاسـتجداء من المؤمنين ، الذين كان إيمانهم

بها سببا لحصولهم على الجنة ، وتسخيرهم إياه لنعمه.

(**وَنـادي أَصْـحابُ النَّارِ أَصْـحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُـوا عَلَيْنا مِنَ الْمــاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللــهُ قــالُوا إِنَّ اللــهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ**)

[51] الكافرون لم يتحركوا عبر المنهج المرســوم بل واسـتهزءوا به أيضا ، فبـدل أن يزرعـوا أحرقـوا وبـدل أن يبنوا هدموا وبدل أن يسيروا على الطريق أحرقـوا معالمه كل ذلك جعلهم يعضون أناملهم حين الحصاد ، ويفترشـون الأرض ويلتحفون السماء ويضلون الطريق.

الدين منهج حياة :

[52] الدين منهج حياة يهـديك الى العمل الصـالح في الــدنيا الــذي يتجسد في الآخــرة نعيما مقيما ، إنه أرض خصـبة تزرعها وتأخذ نتاجها حين حصـادها ، ومعـالم على الدرب تعمل على هداها حتى تبلغ غايتك.

ومن الناس من يتخذ الدين لهوا يعمل به دون هدف ، أو حــتى لعبا يضــعه حسب مشــتهياته ، فانه آنئذ لا ينتفع بالدين، وهو بالتالي لا يحصد نتائجه.

(**الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً**)

أما قيــادة هــؤلاء فهي بيد أهل الــدنيا ، لأن الــدنيا قد استعبدتهم.

(**وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**)

إن هؤلاء ينسـون مسـتقبلهم ويختصـرون حيـاتهم في حدود الحاضر.

(**فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا**)

من ينسى يوم الحصاد ينساه النـاس في ذلك اليـوم ، لأنه قبلئذ كلما قـالوا له : ازرع لم يســمع ، وجحد بآيــات الله.

(**وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ**)

قيمة العقل :

[53] قيمة العقل الاساسية انه يرشدك الى الحقـائق المستقبلية ، ويجعلك تتجنب المشـكلات والصـعوبات قبل وقوعها ، والرشـيد حقا هو : الـذي يتنبأ بالمسـتقبل ، بينما الغبي حقّا هو : الذي لا يعـترف إلا بـالواقع الحاضر ، فـاذا قيل : إن هــذا الجــدار يريد أن ينقض ، اتكأ عليه وقــال : انني لم أهدم الجدار ، وحين ينهـدم الجـدار سـأقوم عنه ، ولكن إذا أنهدم الجدار هل يبقى له اختيار؟ كلا ..

كذلك المؤمنـون والكفـار ، أولئك يعقلـون المسـتقبل ويتنــبئون به ، ويعملــون وفق الرشـاد الـذي يهـديهم اليه العقل ، بينما هـؤلاء ينتظـرون وقـوع الحقـائق وحضـورها عندهم ، وهذا ما يسميه القــرآن بالتأويل ، أي عاقبة الأمر وما يــؤول اليه ، وبعد التأويل وحضــور المســتقبل لا ينفع العلم به شيئا ، إذ آنئذ حتى الحمار يراه!!

(**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُـهُ يَقُـولُ الَّذِينَ نَسُـوهُ مِنْ قَبْـلُ قَـدْ جـاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنا بِـالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْـرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**)

إن انتظـار الشـفيع ، أو العـودة الى الماضي هو نـوع من الغبــاء أيضا ، إذ كيف يبــني الله الحكيم الجــزاء على أساس عمل الآخرين ، وليس على أساس عمل الشــخص ذاته مباشرة أو غير مباشرة؟! وكيف يعود الماضي؟!

إن للإنسان فرصة واحدة فقط هي مدة عمره ، فـاذا انقضى أجله ، ولم يستفد من الفرصة ضـاعت عليه نفسه والى الأبد.

(**قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**)

إن نفسك مقسّـــمة على ســـاعات عمـــرك ، فكلما ضيعت ساعة أكل الندم جزء من نفسك.

أما الباطل الذي لا يستمد وجوده وشرعيته من الحق والواقع ، فانه يضل كما الســـــراب في الصـــــحراء ، إن تصـــوراتك تعتمد على وجـــودك فـــاذا خســـرت نفسك فهل تنفع تصوراتك وخيالاتك؟ فالسعي مردود ، والجهد خائب ، وهذا وذاك في ضلال مبين.

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)

---

54 [حثيثا] : الحثيث السير السريع.

55 [تضــرعا وخفيــه] : التضــرع التــذلل وهو إظهــار الــذل ، والخفية الإخفاء.

بالدعاء

يستنزل المحسنون بركات الله

هدى من الآيات :

في الـــدروس الســـابقة تـــذكرة بمصـــير المؤمـــنين والكافرين ، وحان الآن وقت توجيه القلوب الى الله الـذي لو عرفه البشر لصـلحت سـريرته وعلانيته ، ومعرفة الله تتم بآياته المنتشرة في السماء والأرض ، فهو الـذي أبـدع الســـماوات والأرض ، وكلما توسع العلم في الســـماء أو تعمق في الأرض ، كلما ازداد معرفة بالله وبعظمته ، لقد خلق الله الخلق في ســتة أيــام علامة لقدرته وســيطرته التامة والمســتمرة على الخلق ، والــدليل على ذلك : ان الله يدبر أمور الكون ، وهو الذي يجعل الليل يغشي النهار ويلاحقه باســتمرار ، وهو الــذي يســخّر الشــمس والقمر والنجـــــوم فيأمرها ويجبرها على الطاعة ، ذلك لأنه خلق الخلق في البدء وأجرى أموره بصفة مستمرة ، لذلك فهو واسع المقدرة ، مبارك تنمو خلائقه وهو رب العالمين.

وعلى العبـاد ان يتوجهـوا إلى ربهم بالـدعاء والتـذلل بـــروح متواضـعة ، ذلك لأن الله يحب المتــذللين له ، ولا يحب المعتدين الـذين بسـبب تكـبرهم على ربهم ، وعـدم تربية

أنفسهم بالدعاء يعتدون على الناس.

وبسبب معرفة الله ، والتذلل له تنمو عند البشر روح الإصلاح ، ومن دونهما تفسد سريرته وتجنح نحو الإفساد ، والله أصـلح الكـون بخلقه الصـالح وبهـداه ، وإذا الـتزم الإنسـان الـدعاء ، وخشي غضب الله ، وطمع في رحمته كان صالحا ومحسنا.

بينات من الآيات :

من هو الرب وما هو دور الزمن؟

[54] من هو رب البشر الـذي يتوكل عليه ويسـتلهم منه هداه ومنهجه؟ أنه ليست هـذه الأصـنام الحجرية ، ولا تلك الأصـنام البشـرية ، الـذي خلق السـماوات والأرض ، وكـانت خلقته متدرجة للخلائق ، لـذلك فهو ربّ يـربّي الأشياء كما يربّي الأشخاص.

(**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**)

ربما تكون الأيام الستة رمـزا لسـتة مراحل مـرت بها الخليقة ، أو اشارة الى فترة من الزمن ممتدة ومتدرجة ، وبالتالي إشارة الى دخول عنصر الزمن في ذات الأشياء ، أو تكون توجيها الى نقص الأشـياء أو تطورها نحو الكمـال وفق سـنة الله سـبحانه وبـأمره ، إلّا أنّ الفكـرة الـتي نسـتوحيها من الأيـام السـتة في الخليقة هي : أنها بحاجة الى تربية الله وحسن توجيهه ، والذي ربي الخلائق أحـرى به بأن يتّخذ ربا للبشر.

(**ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ**)

فبعد ان خلق الخلق لم ينته اشـرافه على الكـون ، كما يصنع أحدنا الساعة ويكوّنها فتتحرك من دون أشـراف له عليها ، كلا .. إن ربنا اسـتوى على عـرش السـلطان والتدبير ، وأخذ يجري تلك السنن التي وضعها في الخلائق بعلمه وقدرته.

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً)
فالليل لا يغشى النهـــار بصـــورة طبيعية ، بل الله هو الذي يجعله يغشي النهار ويلاحقه بإصرار.
(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ)
ذلك الأمر المتجسد كل يوم وكل ساعة ولحظة.
(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)
الخلق الأول والأمر المتجسد.
(تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ)
الله مبـارك لأن رحمته مسـتمرة ومتنامية ، ومبـارك لأن خلقه في تكامل ، ومبـــارك لأنه رب العـــالمين ، فهو الذي يعطيه القدرة والتطور والرحمة.

الدعاء مصنع الإنسان :

[55] ولكن أيّ رب ندعو؟ الله أم الأصنام؟
(ادْعُوا رَبَّكُمْ)
انه ربكم غـير تلك الآيـات المخلوقة ، وليكن دعـاؤكم من أجل خـروجكم من غلظة الأنانيّة الى رقّة الضـراعة ، ومن فقر الاستكبار وذل المعصـية الى غـنى العبـادة وعـزّ الطاعة.
إن الإنسان يولد ـ كما زبر الحديد ـ فيحتاج الى صـقل ، والدعاء هو : ذلك

المبرد الذي يصقل النفس الانسانية ، لأن الدعاء يولّد في القلب إحساسا بـــالنقص ، وثقة بإمكـــان التغلب عليه ، والدعاء يعرّف الفـرد بمـواطن ضـعفه وضـرورة جبرانها ، والدعاء يجعلك واقعيا تعترف بجـدواك ، لـذلك فهو أفضل وسيلة لكبح شهوة الاعتداء على الآخرين والبطش بهم.

(**تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**)

التضرع لكي يكون الـدعاء واقعيا ، ولاصـلاح الـذات ، ولعلاج داء الاسـتكبار ومـرض الفخر والعـزة بـالإثم ، اما الخفية فلأجل ألا يصـبح الـدعاء ريـاء ، وبالتـالي تكريسا لمرض التكبر والفخر.

(**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**)

الذين بسـبب عـدم تضـرعهم لله وخضـوعهم لعظمته يجنحون نحو الاعتداء على الآخرين ، وبدل إصلاح أنفسـهم بالطريقة السـليمة فهم يحـاولن تعـويض نواقصـهم عن طريق الظلم واغتصـاب حقـوق الآخـرين ، أو يحـاولون تعويض شعورهم بالنقص بالاستكبار على هذا أو ذاك.

(**إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) :

[56] الاحساس بالمحبة للحيـاة ، وبضـرورة إصـلاحها هو الشـــعور المنبعث من الخضـــوع لله ، والـــدعاء اليه تضـرعا وخفية ، وبالتـالي فانه انعكـاس ايجـابي للايمـان بربوبية الله سـبحانه ، ومحاولة تقليد هـذه العلاقة (علاقة الربوبيـــة) فيما يتصل بتعامل البشر مع الحيـــاة ، فكما ان الله يـرحم العبـاد ، ويخلق الأشـياء ويسـخرها ، ويتسـلط عليها من أجل اجــراء الســنن الاخــيرة عليها ، ومن أجل تكميلها وإنزال بركته عليها ، كـذلك عليه ان يتقمص صـفة الخلق والبناء والإصلاح لا صفة

الاستهلاك والهدم والإفساد.

(**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها**)

والسؤال هو : كيف ننمّي في أنفسنا صفة الإصلاح؟

الجواب : عن طريق دعاء الله ، والمزيد من التقــرب الى الله.

(**وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً**)

خوفا من عذابه وسلب نعمه ، وطمعا في المزيد.

(**إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)

الــذين دأبهم ليس فقط إصــلاح الحيــاة ، بل إصــلاح النــاس أيضا ، والعطــاء من أنفســهم لهم ، إن الخــوف والطمع من الله يخلق في البشر صــــفة الإحســـان الى بعضهم أكثر فأكثر.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى

---

57 [أقلت] : الإقلال حمل الشيء بأسره حتى يقل في طاقة الحامل له بقوة جسمه.

58 [نكدا] : النكد العسير الممتنع من إعطاء الخير على وجه البخل.

رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْـذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُـوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ (63)
فَكَـذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنـاهُ وَالَّذِينَ مَعَـهُ فِي الْفُلْـكِ وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

الإنسان بين سنن الطبيعة

وبصائر التاريخ

هدى من الآيات :

لكي نفهم علاقة الربوبية التي تسـود بيننا وبين خالقنا ، تلك العلاقة التي تعني ان الله يتـابع نعمه علينا ، ويبـارك لنا ، ويكمّل حياتنا ، لكي نفهم تلك العلاقة ونسـتفيد منها علميا وعمليا لا بدّ أن نلقي نظـرة على الطبيعة ، ونظـرة الى التاريخ ، فمن الطبيعة نستوحي التطور المـادي الـذي يباركه الله ، وفي التـاريخ نتبصر آثـار التكامل الاجتمـاعي والمعنوي.

للنظر الى المطر ، كيف يرسل الله الريـاح مبشـرات بالربيع والرخاء ، ولتحمل السـحاب المليئة بالمـاء وتسـاق من قبل الله الى بلد ميت ، فـاذا بالمـاء يحـيي الأرض ويخـرج نبـات كل شـيء ، وهكـذا كما في الربيع عند ما يحـيي الله الأرض ويبعث فيها الحيـاة ، كـذلك في يـوم القيامة يخـرج الله المـوتى ، والقضـية بحاجة الى تـذكر وتفهم.

بيد أن إنـزال المطر لا يعـني الحيـاة ، بل يجب أن تكون الأرض مستعدة لتقبل

النعمة والاستجابة لها ، فـالأرض الطيبة تخـرج نباتها بـإذن الله ، أما الأرض الخبيثة فـان نباتها يخــرج نكـدا ، كـذلك آيـات الله الـتي أنــزلت على الرسل بحاجة الى أرضــية مناسبة لدى الإنسان حتى يستفيد منها ، تلك الارضـية هي أرضية الشكر والاستجابة ، وإلّا فلا تنفع وهذا أعظم درس نسـتفيده ، من النظر الى التـاريخ ، فلقد أرسل الله نوحا الى قومه ، حيث دعــاهم الى عبــادة الله ، وحــذّرهم من عذابه العظيم ، بيد أن قومه اتهمـوه بالضـلالة ، فنفى عن نفسه الضــلالة وبيّن لهم أنه رســول من ربّ الســماوات والأرض ، وأنه جاء لينصحهم لأنه يعـرف من دونهم تعـاليم السماء ، وكيفيّة الاســتفادة منها ، ثم بيّن لهم أنه لا عجب في أن يــرحم الله عبــاده ، لأنه ربّهم الــذي يــنزل عليهم بركاته دائما ، ويزيد لهم التكامل والتطــور ، وأن رســالة الله تهــــدف الاســــتفادة من الإنــــذار لكل البشر معنويا بالتقوى ، وماديا بالرحمة.

بيد أن تكذيب الناس لنوح ورسـالته سـبّب غضب الله لهم ، لأنهم كـــانوا قوما عمين عمـــوا عن الحق وضــــلوا فأضلوا.

بينات من الآيات :

الادارة الحكيمة والقدرة المهيمنة :

[57] القـــرآن الحكيم يلفت نظر البشر الى الطبيعة الزاخـــرة بالحيويّة والجيشــــان ، وانطلاقا من الحقــــائق الظاهرة المشهورة يبلغوا الحقائق الغيبية المعقولة.

الحقيقة المشــــهورة هي أن الريــــاح الــــتي تبشر بالمواسم الخيرة وتحمل السحاب الثقـال ، فيسـوقها الله الى البلد الميت ليـنزل منها المـاء ويخــرج به الثمــرات ، هذه الحقيقة المشهورة تكشف لنا أمرين :

الأول : أن وراء الطبيعة إرادة حكيمة تسيرها.

الثاني : أن تلك القدرة المهيمنة على الكون هي التي تخرج الموتى من الأرض وتبعثهم للحساب.

(**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**)

فالريـــاح لا تـــأتي عفويا ، بل يرســـلها الله إرســـالا ، والـــدليل هو هدفية الظـــواهر ، فالريـــاح تهـــدف البشـــارة برحمة قادمة ، والبشـــــارة هـــــدف لا يمكن تحقيقه عبثا ، ومن دون خطة حكيمة وفعل منظم.

(**حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَـحاباً ثِقـالاً سُـقْناهُ لِبَلَـدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ**)

إن كل ذلك يتم بإرادة الله وحسن تدبيره ، ولولا ذلك لم تكن الصدفة قـادرة على تحقيق هـذه الأهـداف ، إذ أن الهدف هو البشارة بالرحمة ، وإحياء البلد الميت ، وإخراج الثمرات ، ولا يمكن تحقيق ذلك بمجرد تحـرك السـحاب ، بل بمجموعة عوامل متفاعلة ومتزامنة كـأن تكـون الأرض مستعدة ، والطقس مناسبا ، والأمن مسـتتبا ، وأن يكـون مقدار المطر كافيا ، غير ناقص ولا زائد عن الحد ، وهكـذا حـتى يحـيى الأرض ويخـرج النبـات ، وذلك يـدلّ على أن هنـــاك هـــدفا وراء الســـحاب يجريه الله ســـبحانه بعلمه وقدرته.

وإذا تبصـــرنا قـــدرة الله في الطبيعة آمنا بـــأن هـــذه القدرة المطلقة الحكيمة هي التي تخرج الموتى للحساب ، فلا تبقى عقبة في طريق إيماننا بالبعث والنشور.

(**كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى**)

ولكن لا يمكننا أن نفهم حقائق الكـون من دون تـذكر وتبصر وربط للحقائق ببعضها.

(**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)

فالتـــــذكر يربط الحقـــــائق ، ويســــــتنتج من خلاله المعلومات ، ويلقي بالمسؤوليات والواجبات.

بين البصيرة والاستنباط :

[58] حين يــزود الإنســان بســلاح البصــيرة النافــذة ويتــذكر يســتنبط الحقــائق المختلفة ، أو بــالأحرى الأبعــاد المختلفة من الظــاهرة الواحــدة ، فمن ظــاهرة الســحاب والمطر وإحياء الأرض يتوصل إلى أن نبات الأرض مختلف بــالرغم من أن المــاء الــذي ينزله الله على الأرض واحد ، مما يــدل على أن اســتجابة الأرض للمــاء شــرط أساسي لحياة الأرض ، كــذلك اســتجابة البشر لرســالة الله شــرط لانتفاعه بها.

(**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِــإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً**)

أي عسيرا وبخيلا.

(**كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**)

فالذين لا يشكرون النعمة ولا يقــدرونها حق قــدرها لا ينتفعون بالآيات ، كما أن الأرض الخبيثة لا تنتفع بالمواسم الخيرة ، وفي القصص التالية عبر كافية لهذه الحقيقة.

لماذا نوح بالذات؟

[59] لأن الله رب العالمين ورب الإنسان الــذي يحب للبشرية التكامل والرقي ، فقد أرسل نوحا الى قومه ولم يرسل غيره ، لأنه منهم وأثره في تطورهم أبلغ ، ولم يدع نوح قومه الى نفسه بل الى ربهم الله الذي لا إله غيره.

(**لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

[60] أما الملأ الذين كانوا يستثمرون الجماهير ويتسلطون قهرا عليهم فقد قاوموا رسالة الله.

(**قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

إنهم وقفوا عقبة إمام انتشار نور الهداية بين الناس ، فاتهموا نوحا بالضلالة ، وزعموا أنهم يرون ذلك رؤية ظاهرة.

[61] ونفى نوح وجود أيّ نوع من الضلالة عنده ، وبيّن لهم انه رسول أرسل إليهم من قبل الرب الذي ينزل بركاته على العالمين.

(**قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

[62] وينبغي أن يستجيب الجميع لنوح لعدة أسباب :

أولا : لأنه مبلغ لرسالات الرب ، ومن الطبيعي أن تكون تلك الرسالات ذات محتوى تكاملي للبشر ، لأنها صادرة من ربهم الذي يطوّرهم الى الأفضل.

ثانيا : لأنه ناصح يعمل في سبيل رشدهم.

ثالثا وأخيرا : لأنه أعلم منهم ، وعلمه مستلهم من الله ، ويرتبط بتعاليم الله وشرائعه.

(**أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

[63] وليس بعيدا أن يبعث الله رسولا لعدة أسباب هي :

أولا : لان الله رب النـاس الـذي يـنزل بركاته المادية المشهودة عليهم في كل لحظة.

ثانيا : لأن البشر بحاجة الى تــذكرة حــتى يهتــدوا ويكتملوا ، والرب يوفر كلما يحتاج البشر إليه.

ثالثا : لأن الله لا يعذب الناس حتى يبعث سلفا رسولا إليهم ، فينـذرهم ، ويـوفر لهم فرصة التقـوى والحـذر من العذاب ، ولكي يـوفر لهم بالتـالي فرصة الرحمة والرخـاء والحياة السعيدة.

(**أَوَعَجِبْتُمْ**)

ولا عجب مما تقتضـيه سـنن الحيـاة وفطـرة البشر ، ومن ذلك ..

(**أَنْ جــاءَكُمْ ذِكْــرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُــلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

[64] ولكن مع كل ذلك البيان كذب قوم نوح برسـالة الله ، وجاءت العاقبة المناسبة للمؤمنين حيث أنجاهم الله ، والكــافرين أغــرقهم الله لأنهم لم يســتفيدوا من نعمة البصيرة.

(**فَكَــذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنــاهُ وَالَّذِينَ مَعَــهُ فِي الْفُلْــكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ**)

هكذا تتجلى صـفة الربوبية في قصة نـوح وقومه ، إن الله يبعث رسـالته رحمة بالنـاس وتكميلا لنواقصـهم ، بيد انهم يرفضون الانتفاع بها ، كما الأرض الخبيثة لا تسـتجيب للسماء حين تبعث إليها السحاب الثقال.

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُـوداً قـالَ يا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُـونَ (65) قـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ إِنَّا لَنَـراكَ فِي سَـفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكـاذِبِينَ (66) قـالَ يا قَـوْمِ لَيْسَ بِي سَـفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُـولٌ مِنْ رَبِّ الْعـالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِـحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جـاءَكُمْ ذِكْـرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُـلٍ مِنْكُمْ لِيُنْـذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْـدِ قَـوْمِ نُـوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (69) قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كـانَ يَعْبُـدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا

---

66 [سفاهة] : السفاهة خفة الحلم ، وثوب سفيه إذا كان خفيفا.

69 [آلاء] الآلاء النعم.

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَـــــبٌ أَتُجـــادِلُونَنِي فِي أَسْـــماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِـرِينَ (71) فَأَنْجَيْنـاهُ وَالَّذِينَ مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِـرَ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

---

71 [رجس] : الرجس العذاب.

الإنسان بين رسالات الرب

والأسماء التافهة

هدى من الآيات :

تتكـرر قصة نـوح بين هـود رسـول الله وقومه عـاد ، حيث أمــرهم بتقــوى الله ، ولكنهم اتهمــوه بالسـفاهة ، وكادوا يكذّبونه ، فنفى هـود عن نفسه السـفاهة ، وقـال : إنه رسول من الله الذي ينزل بركاته على العالمين ، وبيّن أنّ ذلك لم يكن بعيدا عن سنن الله ، وعن حكمة العقـول ، إذ ان الله أنـــزل بركاته المادية على عــــاد ، وجعلهم الـوارثين للأرض بعد قـوم نـوح وزادهم من نعمه ، فكـان عليهم أن يعـترفوا بنعم الله ويتـذكروا أن الـرب الـرحيم الـــذي أنعم بها عليها هو الـــذي أرسل رســالته المباركة بواسطته.

لكن عـادا كـذبوا هـودا وتحـدّوه ونـازلوه واسـتعجلوا العذاب ، بيد أن هودا كان يرى في تكذيبهم رجسا وغضــبا ، لأنهم خضـعوا لمجموعة أصـنام لا رصـيد لها من الواقع ، بل هي حروف بلا معـاني وبلا سـلطان من الله عليها ، ثم استجاب هود لتحديهم وطلب منهم الانتظار.

وقد أنجــاه الله والــذين معه برحمة منه وأنهى مدينة عاد ومن بها ممن يكذب بآيات

الله لأنهم كفروا بالله.

وهذا مثل آخر لنعم الله التي تتجلّى بها صفة الربوبية ، فلو اســـتجاب لها البشر لانتفع بها ، وإلّا فانها ســـوف تتبدل الى نقمة عليهم.

بينات من الآيات :

افتراءات الملأ :

[65] أرسل الله الى عاد واحدا منهم وهو أخوهم هود الذي دعـاهم الى الله الـذي لا ملجأ لهم إلّا اليه ، وأمـرهم أن يحذروا منه ويتقوه.

(**وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُـدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ**)

[66] وهنا وقف جماعة من قومه يعارضـوه ، وهـؤلاء هم الملأ الذين اختاروا الكفر بوعي وإصرار ، واتهموا هودا بالسفاهة لأنه تحدى حضارتهم ، وواجه قوتهم الـتي كـانوا مغرورين بها ، زاعمين أن منهجهم في الحياة منهج سـليم ، بـدليل أنهم قد بلغـوا عن طريقه الى هـذه الحضـارة ، وهـذه القـوة الكبـيرة ، بل إنهم كـادوا يتهمونه بالكـذب ، والفـــرق بين الســـفاهة والكـــذب إنما هو في النية ، فالسفاهة هي الإصرار على الخطأ بنية صـالحة وذلك لقلة العقل ، بينما الكـــذب هو تعمد الخطأ مع العلم به وذلك للوصول الى هدف باطل ، وقوم عاد كانوا يرون في هـود الصـلاح والزهد ، لـذلك لم يكونـوا يجـرءون على اتهامه بالكذب لذلك

(**قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَـراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ**)

[67] وحين يصر صـاحب الفكـرة على فكرته بـرغم تحذير الآخرين له ، فانه يدل

على انه عـــارف بفكرته واع لأبعادها ، ولـــذلك فهو ليس سفيها غير عارف بطبيعة فكرته.

وهـود نفى عن نفسه السـفاهة ، وأصـرّ مـرة اخـرى على أنه رسول.

(**قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

الله الذي استوى على عرش السماوات والأرض يدبر أمورهما ، ويكمل خلقهما ، إنه هو الـذي أرسل هـودا إلى عاد ليكمل عليهم نعمه ، ويكمل حياتهم.

نزاهة الرسول دليل صدقه :

[68] لم يكن هودا داعيا الى نفسه بل الى ربه ، فلم تكن لديه مصلحة ذاتية في دعوته ، وكانت دعوته الى كـلّ خـير وحق ، فلـذلك فهي في مصـلحة النـاس وعليهم أن يهرعوا إليها.

(**أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ**)

وأمانة الإنسـان حقيقة ظـاهرة ، لا يمكن أن يفرضـها ويتكلف في التظـــاهر بها ، بل هي كما ســائر الصـــفات النفســية الحســنة والسـيئة ، تظهر على أفعــال الفــرد وأقواله ، شاء أم أبى ، لذلك كان الأنبيـاء (عليهم السـلام) يستدلون بهذه الصفة الموجـودة في أنفسـهم على صـدق رسالاتهم دون أن يكذبهم أحد ، لأنها كانت صفة ظاهرة.

[69] ويصــدق البشر بالحقــائق المألوفة بســهولة ، بينما الحقائق التي لا تقع إلّا عبر فترات متباعدة لا يســهل التصـــديق بها ، مثلا : التصـــديق بـــالثورات والتحـــوّلات الاجتماعية الكبيرة ليس بسهولة وكـذلك التصـديق بمـوت أحد عزيز ، بالرغم من أن هذه وتلك حقائق واقعة وســنن فطرية ، ومن هنا كان أحد العقبات الرئيسية في

طريق إيمان النـاس برسـالات الله هي انها لم تكن وقـائع مألوفة ، فكان الأنبياء يذكرون النـاس بأنها حقـائق فطرية يصدق بها وجـدان البشر ، وهي من السـنن الـتي تقع بين فترة وفترة.

(**أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جـاءَكُمْ ذِكْـرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُـلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ**)

ولا عجب في ذلك لأن الرب الذي يدبّر أمـور عبـاده ، ويـنزّل عليهم بركاته جـدير بـأن يهـدي الإنسـان ، ويـذكره بالحقائق ، ثم ان من رحمة الله انّه انزل ذكره على واحد منهم لأن هدفه هو إنذارهم ، والإنذار سيكون أبلغ لو كـان عن طريق واحد منهم.

ولان قـوم عـاد كـانوا مغـرورين بقـوتهم وبطشـهم ، لذلك ذكّـرهم أخـوهم هـود بـان هـذه القـوة نعمة من الله وليست من أنفسهم ، بدليل أنها كانت قبلئذ عند قوم نوح فأخـذها الله منهم وأعطـاهم إياها ، فـالقوة هـذه يجب أن تكون مدعاة لقبول الرسالة شكرا لنعمة الله.

(**وَاذْكُـرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفـاءَ مِنْ بَعْـدِ قَـوْمِ نُـوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْـقِ بَصْـطَةً فَـاذْكُرُوا آلاءَ اللـهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

الفلاح والسعادة يأتيـان نتيجة معرفة أسـباب النعمة ، وعوامل الحضـــــــــارة ، واليقظة في المحافظة عليها ، لتستمر وتزداد ، لذلك حين يتذكر البشر أن النعم من عند الله سيكون واعيا لاستمرارها.

مواقف المجتمع المتخلف :

[70] وحين أفحم هـــود قومه ، وأثـــار فيهم دفـــائن عقولهم ، واستوضح لهم فطرتهم ووجدانهم ، لم يبق لهم سوى الاتكاء على ماضـيهم فقـالوا : إننا لا نغـير واقعنا ولا نريد لأنفسـنا التطـور الى الأفضل لأن آباءنا كـانوا هكـذا ، فسوف نبقى نحن الأبناء

على سـنة آبائنا ، وقـال لهم هـود : إذا لا رجـاء في إصلاحكم.

(**قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

لقد بلغ فيهم الجمود حدّا يستعجلون معه العذاب ولا يرضون بالتغيير ، وحالهم حال كل الأمم المتخلفة والمغرورة ، أنهم يقبلون بالأمر الواقع حتى مع علمهم بفساده وخطورته عليهم ، وكلما يدعوهم المصلحون بضرورة تغيير الواقع لا يسمعون لقولهم ، لتشبّثهم بالواقع القائم وخوفهم من أيّ تغيير.

[71] وقال هود وهو الذي يسعى لهدايتهم بكل وسيلة : أن الواقع الذي تعتزون به واقع فاسد ، وهو رجس وغضب ، رجس فيه كلّ ضلالة وانحراف ، وغضب فيه كل سوء ودمار.

(**قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ**)

وربما تقدم الرجس لفظيا على الغضب لأنه سابق له واقعيا ، حين يبدأ الانحراف ، ثم يظهر في صورة عذاب.

(**أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ**)

تلك القيم الزائفة التي تحجبكم عن رؤية الحقائق ليست سوى ألفاظ منمّقة وأسماء بلا معاني.

(**ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**)

[72] وانتهت قصة قوم عاد بنجاة هود والمؤمنين من قومه ، ودمار الكفار لأنهم كذبوا بآيات الله ومعالم الحقيقة ، ولأنهم كفروا بالله وبرسالته.

(**فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا**)

أيّ برحمة مشهودة وواضحة.

(**وَقَطَعْنا دابِـــرَ الَّذِينَ كَـــذَّبُوا بِآياتِنا وَما كـــانُوا مُؤْمِنِينَ**)

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللــهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُـرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عـادٍ وَبَـوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِـذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتـاً فَـاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـدِينَ (74) قـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْــتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِــهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْــعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَــلٌ مِنْ رَبِّهِ قـالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْــتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِــهِ كـافِرُونَ (76) فَعَقَـرُوا النَّاقَـةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا

---

74 [بوّاكم] : التّبوئة التمكين.
[تعثوا] : العثي الفساد.

بِما تَعِــدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَــلِينَ (77) فَأَخَــذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ فَأَصْـبَحُوا فِي دارِهِمْ جـاثِمِينَ (78) فَتَـوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

---

77 [عتوّا] : العتو تجاوز الحد في الفساد.
78 [الرجفـة] : الرجف الاضـطراب يقـال رجـاف بهم السـقف يرجف رجوفا 2 ذا اضطرب من تحتهم.
[جاثمين] : الجثوم البروك على الركبة.

رسالة الربّ

تبير سلطة المستكبرين

هدى من الآيات :

وبــاختلاف بســيط في التفاصــيل ولكن ضــمن خط رسـالي واحد يـأتي (صـالح) رسـول الله الى قومه ثمـود ليقول لهم : (**اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ**).

ثم أوضح لهم أن هــذه آية بينة واضــحة ، قد جــاءتهم من الله ربهم الذي لا زالت نعمه تترى عليهم ، فهـذه ناقة الله اتركوها في أرض الله ولا تمسـوها بسـوء ، فـان ذلك سوف يسبب لكم العذاب.

ثم بين لهم ان العلاقة الـتي تـربطهم بالله هي علاقة الربوبية والعطـاء ، حيث أورثهم الأرض من بعد قـوم عـاد حتى تمكنوا في الأرض وبنوا القصـور والـبيوت ، وأمـرهم بأن تكون علاقتهم بالأشياء والأشـخاص علاقة إيجابية ، فلا يسعوا في سبيل الفساد بل في طريق الإصــلاح والتربية ، بيد أن صــالحا كما اخوته في الرســالة لم يجد الاســتجابة المطلوبة ، حيث وقف المســــــتكبرون عقبة في طريق انتشار الرسالة ، وحاولوا تضليل المستضـعفين المؤمـنين عن الرسالة ، وعقروا الناقة التي كانت آية إلهية ، تحدّيا

للرسالة وإفسادا في الأرض.

وجـــــاءت العاقبة حيث زلـــــزلت الأرض من تحتهم فأصبحوا جـاثمين في دورهم ، وأنقذ الله صـالحا الـذي لم يـــذرف الـــدمع عليهم ، لأنه نصـــحهم نصـــيحة بليغة فلم يســمعوا له ، وهـــذه قصة جديــدة لكنها تتكـــرر كل يـــوم لتعطينا عبرة جديدة ، لعلنا نهتدي بها الى الحقيقة.

بينات من الآيات :

رسالات الله منطلق التحضّر :

[73] يبدو أن ثمودا كما قوم عاد وقــوم نــوح ، بــدأت حيـــاتهم الاجتماعية بفهم ســـنن الله في الحيـــاة ومنها ضـــرورة الإصـــلاح ، وتســـخير امكانـــات الطبيعة من أجل الأهـــداف النبيلة ، إلّا انهم بعد نمــوّ مــدنيّتهم ، وتــواتر نعم الله عليهم فسدوا وأفسدوا ، فجاءت رسالة الله تحــذرهم من عاقبة الإفساد ، وتذكرهم بأن هــذه النعم الــتي يرونها ليست ذاتية لهم ولا هي أبدية ، وإنما هي آلاء الله ، كـانت عند قوم فأهلكوا بسبب فســادهم وافســادهم وأورثها الله لهم ، فاذا فسدوا وأفسدوا يهلكم الله أيضا ، وربما تكـــون الناقة التي أخرجها الله لثمود من بطن الجبل آية كبــيرة ، ربما تكون رمزا لتلك النعم ، فلو اهتمــوا بها ولم يمســوها بسوء ، ولم يتعرضوا لها بقتل لانتفعــوا بها ، ولكن عــذبهم الله.

(**وَإِلى ثَمُودَ أَخـاهُمْ صـالِحاً قـالَ يا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَـدْ جـاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَـذَرُوها تَأْكُـلْ فِي أَرْضِ اللـهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[74] (**وَاذْكُـرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفـاءَ مِنْ بَعْـدِ عـادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ**

مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتـاً فَـاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ)

لقد كـانت تلك حضـارتهم ، حيث اسـتقروا في الأرض من دون خـــــــوف من الطبيعة أن تقسو عليهم ، وذلك بسبب تـوفر وسـائل الحيـاة في تلك الأرض ، حـتى كـانت لديهم القدرة على نحت الجبل ليتخذوا منه بيوتا ، أو حـتى رفع الأبنية فوق السـهل قصـورا ، ولكن كـانت ثمـود تتجه نحو الفساد شأنها شأن الحضارات التي تغتر بمدى قدرتها فتتآكل وتتـداعى وتنهـار ، لـذلك وقف رسـول الله إليهم صالح (عليه السلام) محذرا وقال :

(**وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)

والفسـاد ضد الإصـلاح ، وليس بين الفسـاد والإصـلاح عمل آخر وصـبغة اخـرى ، ذلك لان علاقتك بالأشـياء قد تكـون علاقة التربية والسـعي للتغيـير نحو الأفضل ، وأن تضـيف إليها من نفسك شـيئا جديـدا كـأن تبـني الأرض ، وتنشأ الحقل ، وتـربّي الطفل ، وتصـنع من الحديد آلة مفيدة ، وهـذا كلّه إصـلاح ، أو تكـون علاقتك هي الانتفـاع بالأشـياء فقط ، فتملك البـيت دون أن تبنيه أو ترممه ، وتأكل من الحقل دون أن تنشأ بديله أو تسـقيه ، وتـترك ابنك لتربية الشوارع والأزقة ، وتسـتهلك الآلات والمكـائن دون أن تصـنع بـديلها أو تقـوم بصيانتها ، وتلك كلها علاقة الفسـاد ، والمجتمعـات قد تكـون متجهة بصـفة عامة نحو الإصـلاح والبنـاء والتصـنيع وتغيـير الأشـياء الى الأفضل ، فتكـون آنئذ متجهة نحو الحضـارة والمدنية ، أو متجهة نحو الاستهلاك والانتفاع والتغيير نحو الأسوأ ، فتهـدم حضـارتها وتهوي نحو التخلف ، ورسالات الله تأمرنا بالإصـلاح الـذي يبني الحضارة وتسوق الأمة نحو التقدم.

صفات المستكبرين (الملأ) :

[75] إن حالة الإسـراف والتبـذير ، وصـبغة الفسـاد والاستهلاك من دون

الإصـلاح والانتـاج لا تنتشر مـرة واحـدة في المجتمع ، بل تتجلّى أولا في الملأ منهم الـــــــذين يشـــــــكلون طبقة المستكبرين ، وابرز صفاتهم هي :

اســـتهلاك المزيد من النعم ، وخلق تيـــار معـــارض للإصـلاح ، ولأنهم يريـدون أن يـأكلوا أكـثر مما ينتجـون ، فـإنهم يسـرقون انتـاج الآخـرين بشـتى الوسـائل والحيل ويستضـعفونهم ، ويتسـارع المستضـعفون نحو الرسـالة الجديـدة الـتي تبشر المجتمع بالإصـلاح والعدالة ، فيبـدأ الصـــراع المرير بينهم وبين أولئك المســـتكبرين ، وينتهي الصراع بهلاك المستكبرين ونجاة المستضعفين بإذن الله.

(**قَـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُـونَ أَنَّ صـالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**)

إن المسـتكبرين يحـاولون إفسـاد الطبيعة والإنسـان معا ، فلذلك تراهم يفسدون آراء المستضعفين ويجـرونهم نحو التيه والضـــلالة لكي يســـتمروا في اســـتغلالهم ، واســـــتهلاك المزيد من انتـــــاجهم ، بيد ان طائفة من المستضـعفين يسـارعون الى الايمـان ، ويقـوم الصـراع بينهم وبين المستكبرين.

[76] ولذلك تجد المستكبرين يكفرون بالرسالة ليس بمجرد أنها رسالة ، وانما لأنها مبدأ يؤمن به المستضعفون ويتخذون منه أداة لصراعهم ضـدهم ، وهـذا يبـدو جليا من أقوالهم حيث

(**قـــالَ الَّذِينَ اسْـــتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِـــهِ كافِرُونَ**)

المسـتكبرون يريـدون دينا يؤيـدهم في اسـتغلالهم للنـاس وتسـلطهم عليهم ، ولا يؤمنـون بـدين يـؤمن به المستضـعفون ، ويتخـذون منه وسـيلة لنجـاتهم ، وخشـبة خلاص لهم من ظلمهم.

[77] ولكي يتحدى المستكبرون دين المستضـعفين ، ويجـردوهم من تلك الوسـيلة الـتي تنقـذهم من أيـديهم ، عمـدوا الى الناقة ـ رمز الرسـالة الالهية عند ثمـود ـ فقتلوها ظنا منهم ان إعـدام الناقة يضع حـدّا لتحـرك المؤمـنين ، لأنها رمز وحـدتهم ، وعنـوان نشـاطهم الاجتماعي ، ولكنهم أخطئـوا حيث ان عقر الناقة وما تبعه من أعمال تخـريب وإفسـاد عرضـهم لغضب الله سـبحانه وعجّل في نهايتهم.

(**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ**)

ومن المعـروف ان واحـدا منهم فقط هو الـذي عقر الناقة ، ولكن البقية رضوا بعمله فكـانوا كما لو أن الجميع اشتركوا في عقرها.

(**وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ**)

حيث تجـاوزوا الحد في الفسـاد بـرغم أمر الله لهم بالإصلاح.

(**وَقـالُوا يا صـالِحُ ائْتِنا بِما تَعِـدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

النهاية الحتم :

[78] وكما نهاية ثمـود كـذلك نهاية كل الطغـاة المستكبرين كلما بـالغوا في الفسـاد ، وانما يفعلـون ذلك بعد تنـامي حـدّة الصـراع بينهم وبين أصـحاب الرسـالة إذ أنهم يضـطّرون آنئذ الى مقاومة الرسـالة بالمزيد من عمليات التخريب والفسـاد ، وهكـذا أنـزل الله على ثمـود العـذاب حيث ارتجت بهم الأرض وتزلـزلت من تحتهم ، وتهدمت مـدنيّتهم ، ومـاتوا وهم جالسـون دون ان يمهلـوا حتى يمدوا أرجلهم استعدادا للموت.

(**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ**)

[79] إن البشر يهـرع لمسـاعدة نظرائه واخوته ، ولكن المستكبرين لم يحزن

لهلاكهم أحد ، وهـذا منتهى الخـزي والعـار الـذي قد يلحق بأحد.

(**فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَـدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسـالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**)

إن قصة ثمـود عـبرة لكل واحد منّا كي يبـادر لقبـول النصح ، ويتّجه نحو التربية والإصلاح ، ويكـون همّنا الانتـاج والإنشاء لا الاستهلاك والإفساد.

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَــدٍ مِنَ الْعــالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَــأْتُونَ الرِّجــالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْــرِفُونَ (81) وَما كـانَ جَـوابَ قَوْمِـهِ إِلاَّ أَنْ قـالُوا أَخْرِجُـوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنــاهُ وَأَهْلَـهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

---

83 [الغابرين] : الباقين في قومه المتخلفين حتى هلكت.

قوم لوط عاقبة الجريمة الخلقية

هدى من الآيات :

وتكررت ذات الحقائق التي شـهدناها عند عـاد وثمـود في قصة لوط ، حيث بارك الله لهم في نعمه فطغوا بها ، وشـذّوا عن الصـراط القـويم في الانتفـاع بها ، فـاذا بهم يتخذون الفاحشة سبيلا لارضـاء شـهواتهم الجنسـية ، انهم يأتون الرجال بدلا من النساء ، ويسرفون في الشهوات.

إنها مرحلة الغـــــرور في قـــــوم أنعم الله عليهم بالاستقرار والأمن والنّعم ، وتأتي صـرخة السـماء الهـادرة تنذرهم عاقبة الفجور ، ولكن قـوم لـوط يحـاولون إخـراج لـوط من قـريتهم بتهمة التطهر ، والمجتمع الـذي يصـبح التقوى والتطهر جريمة فيه لا يرجى له الخير أبدا.

وتحين ســاعة العقـــاب حيث ينجّي الله لوطا وأهله المؤمـنين بالرسـالة ، ويهلك الآخـرين وفيما بينهم امرأته الـتي أصـبحت من الهـالكين بسـبب اتباعها لهم ، وطريقة العقاب هي أن الله أنزل عليهم من السـماء مطر السـوء كما أنزل عليهم بركاته من

قبل.

وهكــذا تــرى رســالات الله تحــذّر البشر من عاقبة أفعـالهم السـيئة وسـلوكهم الشـاذ ، ولكن أكـثر النـاس لا يشكرون نعمة الرسالة فيهلكون.

بينات من الآيات :

قوم لوط من الألف الى الياء :

[80] أرسل الله لوطا الى قومه ، ويبـدو لي ـــ مـرة اخرى ـ أن قوم لوط كانوا في البداية مستقيمين يســعون من أجل بنـاء حضـارتهم ، لأن الخط العـام لحـركتهم كـان سليما ، وكان مجمل سلوكهم سليما ، بيد أنّهم حين بلغـوا مرحلة من التحضر أصــيبوا بالإســراف ، وجــاء في بعض الأحاديث أنهم أصيبوا كذلك يبخل وإسراف وهاتان صفتان نابعتـان من جـذر واحد هو : عبـادة المـادة ، والابتعـاد عن القيم المعنوية.

وإذا كان قوم عاد قد أصـيبوا بصـفة الغـرور والبطش والظلم ، وأصـيبت ثمـود بالفسـاد والاسـتكبار والطبقية ، فان ترف قوم لوط دفعهم الى الشذوذ الجنسي ، فكــانوا يأتون الرجال شـهوة من دون النسـاء ، وقد يكـون سـبب هــذا الشــذوذ هو البخل ، حيث ان الشــاب الــذي تلتهب شــهوته ولا يجد امــرأة يتزوجها إلّا بمهر عظيم وبشــروط قاســية ، شــأنها في ذلك شــأن المــرأة في المجتمعــات المرفهة التي تبحث عن الكماليات قبل ضرورات العيش ، إن هذا الشاب الذي لا يملك ذلك النشاط الذي يدفعه الى العمل والانتاج والحصول على المـال ، يفضل الجنـوح نحو الجريمة واختيــار الشــذوذ الجنسي الــرخيص على العلاقة الشريفة.

بيد ان السبب الخطر للشذوذ هو الإسراف ، ذلك لان المجتمع الــذي لا يتطلع نحو بنــاء المســتقبل الأفضل ، ولا يبحث عن قيم التضحية والفداء ، ويملك قدرا كبيرا

من فـائض النعم والـوقت والمـال ، يبـالغ في الشـهوات ويسرف فيها ويشذّ عن سبلها السليمة ، فيشـتري عـذاب اللـه. لـذلك أرسل الله لوطا الى قومه في تلك المرحلة من حضـارتهم ، حيث قعـدوا عن الطموحـات الكبـيرة وتركوا قيمهم الفاضلة ، أرسله ليحذرهم عاقبة الشذوذ.

(**وَلُوطـاً إِذْ قـالَ لِقَوْمِـهِ أَتَـأْتُونَ الْفاحِشَـةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ**)

[81] (**إِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجـالَ شَـهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**)

[82] أعوذ بالله من حالة الانزلاق في وادي الشهوات ، خصوصا لو شـاع ذلك في المجتمع ، حيث يتواصى أبنـاء هـذا المجتمع الفاسد بالجريمة والشـذوذ كما يتواصى المتقون بالصـلاح ، ولقد أصـبحت الجريمة والشـذوذ قيمة اجتماعية عند قوم لوط ولذلك لم يستمعوا الى نصـيحته ، بل اتهموه بالطهر والتقوى ، وأمروا بإخراجه.

(**وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ**)

[83] والله سبحانه أنجى لوطا من تلك القرية فهاجر منها بـأمره سـبحانه ، وكـذلك يهـاجر المؤمنـون من كل مجتمع يشيع فيه الفساد ولا يقدرون على إصلاحه.

(**فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ**)

ولم تكن امرأة لـوط من أهله ، كما لم يكن ابن نـوح من أهله ، لأنهما كانا على غير ملتهما.

[84] وجـاءت أخـيرا العاقبة السـوء حيث دمر الله قرى لوط بعذاب بئيس يفصّله القرآن في سور أخرى.

(**وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُجْرِمِينَ**) للنظر الى عــاقبتهم ، ونعتــبر من قصصـــهم لكي لا نصبح مثلهم ـ لا سمح الله ـ.

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَـأَوْفُوا الْكَيْـلَ وَالْمِـيزانَ وَلا تَبْخَسُـوا النَّاسَ أَشْـياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْـدَ إِصْـلاحِها ذلِكُمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِـراطٍ تُوعِـدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِـهِ وَتَبْغُونَها عِوَجـاً وَاذْكُـرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كانَ طائِفَـةٌ مِنْكُمْ آمَنُـوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَـةٌ لَمْ يُؤْمِنُـوا فَاصْـبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87)

---

85 [مدين] : قبيلة سميت باسم جدهم «مدين» حفيد إبراهيم (ع).
[أخاهم شعيب] : وهو من أحفاد إبراهيم (ع) ، فهو أخ القبيلة.
[ولا تبخسوا] : البخس النقص عن الحد الذي يوجبه الحق.

رسالات الربّ

وسيلة الإصلاح الاقتصادي

هدى من الآيات :

وأهل مدين كما ثمود وقـوم لـوط ، انهـارت مـدنيّتهم على رؤوسـهم بسـبب فسـادهم ، وأبـرز مظـاهر الفسـاد عنـدهم كـان البخس في المـيزان ، وإفسـاد الأرض زرعا وضـرعا ، وقطع طـرق الخـير على عابريها ، والصـدّ عن سبيل الله ، وتحريف الدين.

لقد جاءت رسالة الله على لسان شعيب لتنهـاهم عن الفساد بعد الإصلاح ، والتخلف بعد التقـدم ، والتـدهور بعد النشـاط ، فانقسـموا على أنفسـهم فـريقين ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، والله سـوف يحكم بين الفـريقين ، والزمن شاهد على صدق النبوءة.

واحتدم الصراع وبدأ الكفـار بمنع النـاس عن الايمـان بالرسـالة واعتبـار ذلك خسـارة ، وانتهت قصـتهم بعـذاب أنزله الله عليهم في صـورة رجفة قضت عليهم ، وشـهد التاريخ ان الخاسرين إنما كانوا هم الذين كذّبوا بشـعيب لا المؤمـنين به ، وتلك النعم الـتي اغـتروا بها لم تنفعهم في ساعة العذاب.

أما شعيب فلم يحفل بمصـيرهم لأنه نصـحهم وأبلغهم رسالات ربهم ، فكفروا بها ، فلم يأسف لمصيرهم ، ويبدو لي : أن أهل مدين كما أصحاب الحضارات السابقة كـانت علاقتهم بالأشـــياء والأشـــخاص علاقة العطـــاء والتربية والإصــلاح فبنــوا تلك المدينة ، ولكنهم بــدّلوا تلك العلاقة وأصـبحت علاقتهم علاقة الإسـراف والاسـتهلاك والإفسـاد فدمرت حضارتهم.

بينات من الآيات :

التمثيلية التاريخية :

[85] وتتكـرر مشـاهد في التـاريخ حـتى ليكـاد المـرء يتصور أنها جميعا مشهد واحد لا يتغير سـوى الممثلين فيه ، وان كـــانت هنـــاك اختلافـــات فانما هي في المظـــاهر الخارجية للأحداث ، فكل الجرائم والانحرافات الـتي يبتلى بها المجتمع تنشأ من عدم التسليم لله وعدم اتباع مناهجه كاملا ، والشرك به عن طريق طاعة غيره من الطــواغيت والأصـــنام الحجرية أو البشـــرية ، أو التشـــبث بالقشـــور والأسماء التي لا يوجد وراءها شيء ، لـذلك تجد رسـالات السماء تؤكد أولا وقبل كل شيء على الوصية بعبـادة الله ، ففي القصص السابقة بدأ كل نبي حديثه مع قومه بهــذه الكلمة : اعبدوا الله.

(**وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُـعَيْباً قـالَ يا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ**)

ماذا تعني عبادة الله؟

عبـادة الله لا تعـني مجـرد التسـليم النفسي له ، بل ويجب التعبـير عن صـدق هـذا التسـليم عمليا في صـورة الكفر بالطاغوت والتمرد ضد النظام السلطوي الذي يتّخذ من القوة أداة للسيطرة والقهر ، وبالتالي الثـورة ضد كل حكم لا شرعي.

إن أنبيـاء الله (عليهم السـلام) كـانوا يهـدفون تغيـير النظام السياسي في المجتمع ،

من نظام شركي قـائم على أسـاس الحـاكم والمحكـوم ، إلى نظـام توحيـدي يقـوم على أسـاس رفض الحاكميـات جميعا سوى حاكمية الله الحي القيوم ، ولذلك تجد الآيـات السـابقة الـتي تحـدثت عن رسـالات الله أكّـدت قبل كل شيء ضرورة رفض الآلهة التي تعبد من دون الله ، والذي يعني : رفض الحاكميـات البشـرية والتسـليم لحاكمية الله وعبادته سبحانه.

ورفض أيّ نظام سياسي باطل لا يعني الفوضـوية بل إقامة كيان سياسي صـحيح مكانه ، ذلك هو كيـان التوحيد القــائم على رســالة بينة ينتفع بها المجتمع ، يؤمنــون بها ويخضعون لها.

(**قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**)

فعليكم باتباعها ، تلك البينة هي رسـالة الله ورسـوله المطاع باذنه.

وبعد تثبيت دعائم السـلطة السياسـية السـليمة ، أمر شـعيب قومه بتصـحيح مسـيرة الاقتصـاد ، وإصـلاحه من اقتصــاد قــائم على أســاس الاســتغلال والاســتثمار الى اقتصاد قائم على أسـاس الوفـاء بـالحقوق ، وإعطـاء كـلّ ذي حق حقه بالكامل.

(**فَــأَوْفُوا الْكَيْــلَ وَالْمِــيزانَ وَلا تَبْخَسُــوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ**)

حين يكون المجتمع رشيدا من الناحية الاقتصادية فانه لا ينهب ولا يغش ، بل ولا يفحش في الربح أيضا أو يسعى كل طرف للحصول على المنفعة الأكبر ، وهـذا هو التطلع الأرفع الذي يجب أن يهدفه المصلحون في حقل الاقتصاد. أن يرى كل طرف منفعة الآخرين بمثل ما يرى منفعته فلا يبخس أحدا شيئا.

وبعد النظام الاقتصادي ، يأتي دور الإصلاح في مجمل سـلوك البشـرية تجـاه الأشـياء والأشـخاص ، ذلك الـذي أكدت عليه رسالات السماء ، حيث أمرت

بضرورة إيجاد علاقة الإصـلاح بين النـاس والطبيعة ، وبين الناس بعضهم مع بعض ، فلا يكون هدف المجتمع الانتفـاع بالحياة فقط بل يكون هدفه :

أولا : تفجـير طاقـات الطبيعة لمصـلحة الانسـانية ، وتنمية هـــذه الطاقـــات ، وتطويرها الى الأفضل ، مثلا : زراعة الأرض ، وصناعة المعـادن ، وتعبيد الطـرق ، وبنـاء الجســور ، وعمـارة المـدن ، والمحافظة على البيئة بكل أبعادها ، كالمحافظة على نقـاء الهـواء والطيـور وأنـواع الوحـوش والـدواب ، وأنـواع الأسـماء ، وبالتـالي كل ما يصلح الأرض لا ما يفسدها.

ثانيا : تنمية طاقـــــــات البشر ومواهبه ، والمجتمع الراشد يســـعى من أجل دفع المســـتوى الخلقي لأبنائه والمستوى التعليمي ، ويربّي المزيد من الكوادر المتقدمة في كافة الحقـول ، إنه مجتمع يـربي القـادة والمفكـرين والمخترعين والأبطـال ، ولا يكتفي بـذلك بل ويسـعى من أجل تعميم الحضـــارة على كل المجتمعـــات القريبة فيما يخص أبناءه ، ومساعدتهم على التقدم والنمو ، لذلك قال ربنا على لسان شعيب :

(**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**)

وقد تكـررت هـذه الكلمة في الآيـات السـابقة أيضا ، ويتساءل المرء لماذا جاءت هـذه الكلمة في صـورة النهي ،أو لم يكن الأفضل أن يقـول ربنا سـبحانه : وأصـلحوا في الأرض؟

أتصــــور أن هــــذه القصص بالــــذات تعكس وضع الحضارات في ظروف شيخوختها ، وتنامي نقاط الضـعف فيها ، وأفـول نجمها حيث إن الحضـارة تنشأ وتتنـامى فيها نقاط القوة ، ولكن الغرور والإرهـاب والاسـتكبار كل ذلك يبدل نقاط القوة فيها الى نقاط ضـعف حـتى تقضي عليها ، ورســالات الســماء تســعى من أجل إيقــاف تــدهور الحضارات ودمار العمـران بتوعية النـاس بأسـباب قـوتهم السابقة ،

وعوامل الانقراض ومنها بل ومن أبرزها هي : الفسـاد بعد الإصـــــلاح. أيّ تحـــــول تلك العلاقة الانتاجية والعمرانية والإبداعية الــتي كـانت حاكمة سـابقا بين أبنـاء المجتمع بعضـــــهم مع بعض أو مع الطبيعة الى علاقة اســـــتهلاك واستغلال وترف.

إن حالة الاستهلاك القائمة اليوم في بلادنا الاسلامية ، وصـفة الـترف والتوسع في الحاجيـات الكمالية ، والرغبة عن الأعمـال الانشـائية مثل العمـران والتصـنيع إنها جميعا تشــكل أخطر عوامل التخلف عنــدنا ، ويا ليتنا نتــدبر في هذه القصص لنكشف فيها سر تخلفنا ، وأسـباب النهـوض ببلادنا بعد الركود والتخلف.

(**ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

الهدم أصعب :

يــزعم البعض ان الإســراف خــير من الاقتصــاد في المعيشة لأنه يمتعك باللذائذ أكثر وبجهد أقل ، أو يزعم ان اسـتغلال جهـود الآخـرين واسـتهلاك ما ينتجونه خـير من الاجتهـاد والانتـاج لأنه تجـاوز للتعب والارهـاق ، وإشـباع للغرائز بأقل قدر من العمل ، وبالتالي يزعم أكـثر النـاس أن الهــدم خــير وســيلة للــدفاع ، وأفضل وســيلة لادارة الصراع بنجاح ، ولكن ما أبعد الحقيقة عن هذه المزاعم.

إنك حين تسـرف في النعم فانك تهلك انسـجة بـدنك بقـدر ما تسـتهلك من المـواد ، وتفسد عاداتك ونفسـيتك بقدر ما تفسد الطبيعة.

إنك حين تنتج فانك ترتفع الى مستوي الانتاج وتتكامل قـدراتك وتنصـقل مواهبك بـذات النسـبة والبلد الـذي ينتج الفانتوم يختلف عن الذي يشتريها اختلاف الأم التي تنجب طفلا عن تلك التي تتبنى طفلا.

إن هذا البلد تتكامل قدراته وترتفع الى مستوي انتـاج الفانتوم ، إنه يصنع بدائل

لها وهكذا ، كـذلك المـزارع الـذي يحـرث الأرض ويسـقي الحقل حـتى يجـني الثمـرات ، ليس أبـدا مثل ذلك الـذي يلتهم الفاكهة دون أن يعرف قيمتها الحقيقية ، إن المزارع يتفاعل مع الثّمار ويتكامل بها لأنه ينتجها ، بينما الذي يأكل الفاكهة يستهلك بقدر ما يستهلك.

ومن قال ان الهدم أفضل وسيلة للـدفاع ، وخـير أداة في الصراع؟

إنك حين تقتبل جنديا عدوا تزداد قـوتكم بقـدر جنـدي واحد ، أما حين تضيف جنديا الى جنودك من أعـدائك فـان باستطاعة هذا الجندي أن يستقطب إليك جنودا كثيرين.

وحين تهدم مصنعا للعدو تزعم بأن قدرتك الاقتصـادية ازدادت بقـدر مصـنع واحد ، ولكن هل هو واقع أم خيـال؟ بينما لو أضـفت مصـنعا الى مصـانعك فـان هـذا المصـنع يكمل حلقـــات مصـــانعك ويرفع النقص الموجـــود فيها ، وبالتالي يعطيك قدرة على تنامي مصانعك.

وفرق بين أن تحـرق مزرعة للعـدو أو تنشئ مزرعة ، إن المزرعة الـتي تنشـأها لا تضـيف قـوة اقتصـادية الى اقتصاد بلـدك فحسب ، بل وتزيـدك قـوة إنتاجية ، بمعـنى ان الحبوب المنتجة من المزرعة تصلح ان تزرع في أرض اخرى ، وان اليد العاملة في المزرعة تقدر على أن تـزرع اخرى ، والنظام المشجع على إنشاء مزرعة ينشئ مزارع عديدة وهكذا ..

وهكذا يصبح البناء أفضل وسـيلة لهـدم كيـان العـدو ، والإصـلاح أفضل وسـيلة لتصـفية دعـاة الفسـاد ودعائمه ، وصدق الله العلي العظيم حين يقول :

(**ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

مراحل الانحطاط :

يتدرج المجتمع في الانحطاط عبر عدة مراحل ، ففي البداية تفسد السـلطة السياسـية ، ثم تفسد طريقة التعامل ، ثم أساليب الانتاج ، ثم فساد القيم وهو أخطر مراحل الفساد ، لذلك نجد شعيبا (عليه السّلام) بدأ حديثه الناصح بالتحذير من الفساد السياسي والاقتصادي ، ومن ثم الفساد الثقافي والقيمي.

فحـذّر من النهي عن المعـروف والصّد عن سبيله ، ومحاولة تضليل الناس عن سبيله الأقوم في الحياة ، ومحاولة توجيههم الى السبل المنحرفة ، وأمرهم بتذكر الماضي حيث إنهم كانوا أقلّاء فكثرهم الله بالسبل القويمة ، كما نصحهم بالاعتبار بما أصاب المفسدين السابقين ، وأمر شعيب المؤمنين من قومه بالصبر حتى يحكم الله ، وتبين العاقبة.

[86] قد يفسد البشر عمليا ، بينما يبقى من الناحية النظرية مؤمنا بالقيم ومعترفا بخطئه حين لا يعمل بها ، ويرجى لمثل هذا الشخص الفلاح بالتوبة ، ولكن إذا بقي على ضلالته العملية قد ينحدر شيئا فشيئا الى الكفر بتلك القيم رأسا ، أو لا أقل من تفسيرها تفسيرا خاطئا يتوافق مع سلوكه الباطل ، وهذا الشخص يصعب إصلاحه.

لأنه ليس فقط يعمل الأخطاء بعمد وإصرار ، بل ويدعو الناس إليها ، وقد يجـرّ الآخرين الى اتباع منهجه ، وقوم شعيب بلغوا هذا الدرك الأسفل فنهاهم رسولهم (عليه السّلام) عن ذلك وقال :

(**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ**)

أيّ تهددون السالكين فيه من الذين يبتغون الوصول الى الله والحق والعمل

الصالح.

(**وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ**)

أيّ لا تسـمحون للمؤمـنين بالله أن يسـلكوا السـبيل الموصل اليه سبحانه.

(**وَتَبْغُونَها عِوَجاً**)

أيّ تحرّفـون نصـوص الـدين ، وتزعمـون أن السـبل الملتوية هي الطرق البالغة.

الثقافة التبريرية نسيج التخلف :

إن الأمم المتخلفة تصـنع لنفسـها نسـيجا من الأفكـار الباطلة ، والثقافات التبريرية التي تكرس واقعها الفاسد ، ولكي تتجـاوز الأمة هـذه الثقافة التبريرية الكسـولة عليها أن تصـــلح نظرتها الى الحيـــاة ، ولا تـــزعم أن النعم الموجودة فيها مستمرة وذاتية ، بل تتذكر ماضـيها الحافل بالمشاكل والعقبات ، وكيف تحـدتها ، وبفضل أيّ نـوع من القيم والأفكار ، ثم تدرس حياة المجتمعات الأخـرى الـتي فسدت خزائنها ، كيف وبسبب أيّ نوع من السـلوك زالت تلك المجتمعـــات؟ لـــذلك ذكّر شـــعيب قومه بماضـــيهم وبماضي المجتمعات الزائلة وقال :

(**وَاذْكُـرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُـرُوا كَيْـفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)

[87] وكـانت نصـيحة شـعيب للكفـار المناهضـين لرسـالته هي الكف عن مقـاومتهم لنـور الرسـالة ، أما وصـيته لأنصـاره المؤمـنين فهي الصـبر والاسـتقامة حـتى يحكم الله بينهم وبين الكفار فقال :

(**وَإِنْ كانَ طائِفَـةٌ مِنْكُمْ آمَنُـوا بِالَّذِي أُرْسِـلْتُ بِـهِ وَطائِفَـةٌ لَمْ يُؤْمِنُـوا فَاصْـبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللـهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ**)

قــالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْــتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِــهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنا قــالَ أَوَلَـوْ كُنَّا كـارِهِينَ (88) قَـدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُـدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللـهُ مِنْها وَما يَكُــونُ لَنا أَنْ نَعُــودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشــاءَ اللــهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمـاً عَلَى اللـهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِــالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْــرُ الْفـاتِحِينَ (89) وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْــبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَـأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

---

92 [يغنـوا] : غـني بالمكـان ، يغـني غنـاء وغنيانا أقـام به كأنه اسـتغنى بذلك المكان عن غيره والمعاني المنازل وأصل الباب الغنى.

شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

[آسى] : الأسى شدة الحزن.

المكذبون برسالات الرب

هم الخاسرون

هدى من الآيات :

كـانت رسـالة شـعيب الـتي نصح بها القـوم ذات قيم فطرية ، يهتدي إليها العقل وتعارضـها الشـهوات العاجلة ، وقد تحــدى الملأ شــعيبا ، والملأ هم كبــار القــوم الــذين اســتكبروا في الأرض وجعلــوا فيها النــاس ضــعفاء ، لقد تحــدوا هــذه الرســالة ليس بالحجة وإنما بــالقوة ، حيث هددوه (عليه السلام) بالإخراج من قـريتهم أو العـودة الى دينهم الفاسد ، وتساءل شعيب : كيف تسمحون لأنفسكم إجبارنا على العودة الى ملتكم الفاسدة كرها ، أوليس في ذلك شــهادة على أن ملتكم فاســدة ، وأن منطق القــوة وليس القناعة هو السائد عليها؟

وإذا كانت القوة حاكمة فقوة الله أعظم من قوتكم ، فلا نرضى بالتســـليم لكم ، والافـــتراء على الله كـــذبا ، والكفر بنعمة الهداية التي أسبغها الله علينا فأنجانا بها من الملة الفاسدة.

وهل يســتطيع البشر أن يتجــاوز إرادة اللـــه؟ كلا .. لذلك لا يستطيع أحد أن

يكــره أحــدا على فكــرة الباطل ، لان الله ربهما والمطلع على شـؤونهما. لا يسـمح بـذبح حرية أحد إلّا بمشـيئة ، أو تقصـــير الإنســـان نفسه ، فـــاذا توكل البشر على ربه ، واعتمد على قوته ، فانه خـــير من يفتح بينه وبين عـــدوه بـالحق ، إذا فحـري بالبشر الاعتمـاد على الله في مقاومة تهديد أهل الباطل ، وعدم الخشية من تمكنهم منه.

بينات من الآيات :

المستكبرون العائق الأكبر :

[88] النـــاس العـــاديون يســـتقبلون رســـالات الله بفطـرتهم النقية ، لـولا أن المسـتكبرين الـذين يسـتغلون جهود الضـعفاء يفرضـون عليهم نهجا فكريا معيّنا بـالقهر ، وهؤلاء هم الذين يشكلون حينا السلطة السياســية ، وحينا السلطة الاقتصادية ، وحينا السلطة المسمّاة بالدينية ، بيد أنها جميعا ســلطة قهرية تســرق إرادة الإنســان ، وهــذا نمــوذج من قهــرهم ، أنهم هــدّدوا شــعيبا (عليه الســلام) بالإخراج من القرية لو عارض نهجهم السياسي.

(**قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُـعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ**)

والكلمة الأخــيرة تــدل على صــفة الجــبر والقهر في السـلطة القائمة في مجتمع مـدين ، وبالتـالي على نظـام الطـــاغوت الـــذي يعتمد على الملأ من الناحية الطبقية ، وعلى الاســـتكبار من الناحية الاجتماعية والثقافية ، وعلى الإرهاب من الناحية السياسية.

الصمود شاهد صدق :

[89] الذي يحمل رسالة الله الى الناس حقا لا يتنازل عنها تحت ضغط الظروف ، وتلك شهادة بيّنة على صــدقه ، أما الذين يفترون على الله الكذب ويدّعون

أنهم رسل الله بــاطلا ، فــإنهم يــتركون الرســالة حين يتعرضــون للضــغط ، من هنا قــال المؤمنــون من قــوم شعيب :

(**قَـدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللـهِ كَـذِباً إِنْ عُـدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها**)

وحيث إن الله أنجاهم من ضلالة الطاغوت بالرسالة ، فـالعودة الى ملتهم الســابقة إنما تكــون بعد وعي كـاف ببطلانها ، فيكــون ذلك تكــذيبا متعمــدا للحق ، وجحــودا سافرا بآيات الله ، والعذاب سوف يكون عليهم مضاعفا.

ومن جهة أخــرى العــودة الى الملة الباطلة الــتي أنقذهم الله منها لا تكون ممكنة بالقهر والإكراه ، لان الله قد ضــمن للبشر حريته وكرامته ، ولن تكــون القــوى الشيطانية قادرة على إلحاق أيّ نـوع من الأذى ، أو إيجـاد أيّ قــدر من التــأثير على أحد من دون مشــيئة الله واذنه سبحانه ذلك لان قوى الطـاغوت لا تعصي الله عن غلبة ـ سـبحانه ـ أو بتجـاوز ملكوته .. كلا ، وإنما لأن الله أمهلهم وأعطاهم فرصة الاختيـار الحر لفـترة محـدودة لهـذا فـان الطاغوت لا يقدر على جـبر المؤمـنين على الكفر لأن الله لا يسمح له بذلك.

(**وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**)

وكما ان قــدرة الله مهيمنة على الكــون فلا يقــدر الكفار على تجاوزها ، كـذلك علمه النافذ في كـلّ شـيء ، ولكي يقـاوم المؤمنـون قـوى الطـاغوت المادية يلتجئـون أكثر فأكثر الى قوة الله المعنوية ويقولون :

(**عَلَى اللــــــهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ**)

المؤمنون لا يسعون نحو تحقيق الانتصار على عدوهم بالباطل ؛ أي دون أن يكــون لــديهم مــؤهلات النصر ، أو دون أن يكونوا أفضل من عدوهم ، بل إنما يريدون الفتح

بالحق.
(**وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ**)

الخسارة العظمى :

واقـتربت النهاية لقـوم شـعيب ، حيث انهم اعتمـدوا على القـــوة المادية زاعمين أنها كـــلّ شـــيء ، وإن من يخسـرها فانه يخسر كل شـيء ، لـذلك قـالوا للمؤمـنين : انكم لخاسـرون ، يزعمـون أن الـثروة والسـلطة والجـاه التي يملكونها والتي يحرمون المؤمنين منها تعتبر خسـارة ، بينما المؤمنــون يعرفــون ان القيم الباطلة الــتي يقــوم عليها بنـــاء مجتمع الطغيـــان والفســـاد تنسف كل تلك الماديات الظاهرة.

ومن هنا أخذت قوم شعيب الرجفة فاذا بهم جـاثمون ، وإذا بالخسارة الحقيقة هي من نصيبهم هم ، أمّا شـعيب فلم يأسف لهم لأنه قد أبلغ رسالات ربه ، وقـدم النصـيحة لقومه ، ولكنهم كفروا بها فكيف ييأس عليهم.

[90] ان النظرة المادية الضيقة التي يرى بها الكفـار الأمور تجعلهم محدودين جدا ، لا يفهمون حقـائق الحيـاة ، وهـؤلاء يرمـون النـاس بالسـفه وبـالجنون ، ويزعمـون أن الذي لا يعمل للـربح المـادي العاجل خاسر لحياته ، لـذلك تجد الملأ من أهل مـدين يعتـبرون اتّبـاع شـعيب خسـارة كبيرة لهم.

(**وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَوْمِـهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ**)

ومنتهى ما يستطيع الملأ المستكبرون ان يلحقـوه من الأذى بالمؤمنين هو : منع بعض النعم المادية عنهم ، وهذا ما كان ولا يـزال الطغـاة يهـددون الثـوريين به ، ولكن من الذين تكون له عاقبة الدار؟!

[91] إن الله ســبحانه يعطي فرصة محــدودة للبشر ليمتحن إرادتهم فيها ، ومدى

قــدرتهم على مقاومة إغــراء الشــهوات ، وقد منح هــذه الفرصة لقــوم شــعيب ، وها هم الآن اســتنفذوا فرصــتهم واقتربت ساعة المصير.

(**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ**)

وكــــــــانت الرجفة قوية الى درجة أن الله لم يمهلهم حتى يتخذوا حالة الاستلقاء استعدادا للمـوت ، بل وقعـوا على وجوههم ذلة وهوانا.

معيار الخسارة :

[92] وهنالك تبيّن ذلك الواقع الذي حذر منه شعيب ، وآمن به القوم المؤمنـون وهو : أن الخسـارة والـربح إنما هما بالقيم لا بالمصالح العاجلة.

(**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا**)

انتهت فرصتهم ، وتداعى كيانهم ، وزالت مكاســبهم ، حتى يخيل للإنسان انه لم يكن شيئا موجودا.

(**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ**)

[93] أما شـــعيب فقد تـــرك قومه الهـــالكين وهم صرعى دون أن يذرف عليهم قطرة دمع.

(**فَتَــوَلَّى عَنْهُمْ وَقــالَ يا قَــوْمِ لَقَــدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسـالاتِ رَبِّي وَنَصَـحْتُ لَكُمْ فَكَيْـفَ آسى عَلى قَـوْمٍ كافِرِينَ**)

وَما أَرْسَـــلْنا فِي قَرْيَـــةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَـــذْنا أَهْلَها بِالْبَأْسـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّـرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَـدَّلْنا مَكـانَ السَّـيِّئَةِ الْحَسَـنَةَ حَتَّى عَفَـوْا وَقـالُوا قَـدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّـــرَّاءُ وَالسَّـــرَّاءُ فَأَخَـــذْناهُمْ بَغْتَـــةً وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ (95) وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكـــاتٍ مِنَ السَّـــماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْـلُ الْقُـرى أَنْ يَـأْتِيَهُمْ بَأْسُـنا بَياتـاً وَهُمْ نـائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْـلُ الْقُـرى أَنْ يَـأْتِيَهُمْ بَأْسُـنا ضُـحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ

---

95 [عفوا] : أصل العفو الترك ، وعفوا تركوا.
[بغتــة] : البغتة الفجــأة ، وهي الأخذ على غــرّة من غــير تقدمه تــؤذن بالنازلة.
97 [بأسنا] : البأس العذاب ، والبؤس الفقر.

إِلاَّ الْقَـوْمُ الْخاسِـرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْـدِ لِلَّذِينَ يَرِثُـونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَـبْناهُمْ بِـذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَـعُ عَلى قُلُـوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْـمَعُونَ (100) تِلْـكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْـلُ كَـذلِكَ يَطْبَعُ اللـهُ عَلى قُلُـوبِ الْكـافِرِينَ (101) وَما وَجَـدْنا لِأَكْثَـرِهِمْ مِنْ عَهْـدٍ وَإِنْ وَجَـدْنا أَكْثَـرَهُمْ لَفاسِـقِينَ (102)

أسباب الحضارة

ومراحل حياة الأمم

هدى من الآيات :

بعد أن ذكّرنا القـــــــرآن الحكيم بقصص الأولين من الرسل وقومهم ، عاد ليبين لنا عبرا من التاريخ وأبرزها :

1 / أن الأمم تسير عـبر مراحل ثلاث : مرحلة الشـدة والضـنك ، ثم مرحلة الرفـاه والرخـاء ، ثم مرحلة الفسـاد والهلاك ، ورسـالات السـماء حاضـرة في هـذه المراحل ، وإرادة الله مهيمنة عليها.

2 / هلاك الأمم ليس قــــــدرا محتوما عليها ، إنما هو بسبب كفرهم وعدم التزامهم بالأوامر والتوجيهـات ، فـاذا آمنوا واتقوا الله فتح الله عليهم بركات السماء.

3 / وراء الرخـــاء الظـــاهر قد يكمن مكر الله الخفيّ الذي ينبغي ألّا يؤمن والـذي يـأتي ليلا في حالة النـوم ، أو نهـــــارا في حالة اللعب والغفلة ، وإنما يخسر البشر حين يأمن مكر الله وما تخبؤه الأيام من شدة ومكروه.

4 / تــوارث الأمم هــذه الأرض ، ولا بد من ان يتعص اللاحقون بمصير السـابقين ، وليعرفـوا هـذه الحقيقة : أن الذنوب تحيط بالإنسان ، وتأخـذه في حين غفلة ، ذلك لأن الذنب يسبب عمى القلب أيضا.

5 / بــالرغم من أن الله يبعث رســله الى الأمم حين تتدهور ، لكن كفرهم السابق وذنوبهم التي أعمت قلوبهم لا تدعهم يؤمنون برسالات الله ، كما لا تدعهم يفـون بعهد الله عليهم ، لــذلك كــانت الأمم هــذه لا عهد لها ولا دين وبذلك هلكت.

بينات من الآيات :

المصاعب امتحان وتربية :

[94] في هذه الآية نجد حكمة الصعوبات الــتي تعصر البشر والهــدف الــتربوي منها ، الــذي لو عرفه الإنســان وسعى اليه فليس فقط لا يتضرر منه ، وإنما يسـتفيد منها كثيرا يقول الله :

(**وَما أَرْسَـلْنا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَـذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**)

فالضـراعة هي هـدف البأسـاء والضـراء في الحيـاة ، والبأساء حسبما يبدو لي : كل سوء يصيب البشر بأيــديهم كــالحروب ، والفقر الناشئ من وضع اجتمــاعي ســيء ، والظلم والإرهــاب ، بينما الضــراء هي : الخسـارات الــتي تصيب البشر بالطبيعة كالامراض والضغط وما أشبه.

والضراعة هي : العـودة الى واقع الــذات وما فيه من نقص وعجز وانحراف ، بعيدا عن أيّ غرور أو استكبار ، أو عزة بالإثم ، والضراعة الى الله تعطينا الثقة بقــدرتنا على تجاوز كل ذلك بعون الله.

وربما تكـــون هـــذه الآية توضـــيحا لبداية انطلاقة المجتمعات وشروطها الواقعية ، وهي ظروف قاسـية يمر بها المجتمع فيتحـداها بالضـراعة ، وهي وعي الـذات وما فيه من نواقص يجب تكميلها ، وامكانيات يجب تفجيرها.

[95] وبعد الضـراعة وتكميل النـواقص بالتوكل على الله ، وبالاعتماد على قيمه السامية ، تـأتي مرحلة الرفـاه حيث تتبدل الصعوبات الى يسر وسلامة ، ومن بعدها تأتي مرحلة الرخـــاء حيث تفيض النعم عن الحاجة ، وهنـــاك يفسد المجتمع بسبب الطغيان والـترف والبطش فيصـيبه الدمار ، بيد أن الدمار لا يصيب المجتمعات شيئا فشيئا بل يصيبهم فجأة ومن دون شعورهم به.

(**ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا**)

أي حتى كثرت النعم وأصبحت عفوا وزيادة تترك.

(**وَقـــالُوا قَـــدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّـــرَّاءُ وَالسَّـــرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

لا حتميّات بل حقائق :

[96] إن هـــذه المســـيرة الدورية في المجتمعـــات ليست ضرورة حتمية ، أو سـنة إلهية ، بل حقـائق تاريخية باســتطاعة البشر تغييرها عن طريق الايمــان والتقــوى ، فـان الايمـان ضـمانة ايديولوجية وثقافية واجتماعية لبقـاء عوامل الحضــارة ، والتقــوى ضــمانة تشــريعية سياســية واقتصادية وسلوكية لبقاء إطارات الحضارة.

(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**)

ربما تكــون البركــات هي كــلّ ما يكمل حيــاة البشر ويطورها للأفضل.

(وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ)

إذ أن الظـروف القاسـية الـتي تصـيب البشر تـأتي بسـبب تكذيبه للحقـائق ، واكتسـابه للمنكـرات من هنا نستطيع أن نسـتنبط فكـرة جديـدة في فلسـفة التـاريخ ، وفلسفة الحضارات بين الفكرتين المتطرفتين وهما :

الفكرة الأولى : التي تقول ان للحضارات دورة حياتية حتمية مثل مراحل الحيـاة للشـخص ، من الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة فالموت.

والفكـرة الثانية : الـتي تقـول أن الحضـارات انما هي نتيجة فكـرة حضـارية تنمو حولها وبها امكانيـات المجتمع حتى تصبح حضارة.

والفكـرة الثالثة : الـتي يمكن اسـتنباطها من هـذه الآيات ـ لو صح التفسير الذي فسرناه بها ـ هي :

أن هناك سببين للحضـارة ، سـبب طـبيعي هو تحـدي الصعوبات الفاسـدة من ظـروف قاسـية أو من صـراعات اجتماعية ، إذ ينشأ من هـذا التحـدي الضـراعة فإصـلاح النواقص فالرخاء والرفاه ، وهذا السبب الطـبيعي يتحـرك وفق سنن طبيعية تقريبا كسائر القوانين الاجتماعية.

والسبب الثاني هو : الايمان بفكرة رسـالية والالـتزام بمناهجها (الايمان والتقوى) ولهـذا السـبب سـنّته الذاتية ، بمعنى أن الحضارة تبقى مع الايمان والتقوى.

[97] ولان هلاك المجتمعـات الفاسـدة يكـون فجائيا بعد تـراكم السـيئات ، وإحاطتها بالـذين يكتسـبونها ، فـان علينا أن نترقب بأس ربنا في كل لحظة ، ليلا ونهـارا ، في حالة النوم أو في حالة الغفلة!!

(**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَـأْتِيَهُمْ بَأْسُـنا بَياتـاً وَهُمْ نائِمُونَ**)

[98] (**أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ**)

[99] (**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللـهِ فَلا يَـأْمَنُ مَكْـرَ اللـهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ**)

من هم الخاسرون؟ الخاسرون هم الذين يحسبون ان تـراكم المكاسب الظاهرية ، وبنـاء العمـارات الشـامخة ، والشـوارع المعبـدة والمضـاءة ، والمصـانع الكبـيرة ، والملاعب الواسعة ، والجيوش المسلحة بأحدث الأسـلحة ، إن كلّ ذلك يكفي في بنـاء الحضـارة وتحقيق طموحـات البشر .. كلا ، ان ذلك ما كـان ليتم لـولا القيم السـليمة ، والتطلعـات المشـروعة ، والمنـاهج الصـائبة ، ولـولا ذلك لحملت الحضـارة نقيضـها في ذاتها ، حيث يلتف عليهم العـذاب من حيث لا يشـعرون فيقضي عليهم ، ذلك هو مكر الله ، إن المدنية القائمة على الظلم أو الطغيـان ، والمجتمع القـائم على الاسـتغلال والطبقية ، والثقافة القائمة على المصالح الذاتية كـلّ ذلك مهـدد بـالزوال في كلّ لحظة وبصورة مفاجئة.

إذ أن المظلـومين المسـتغلّين ، والمستضـعفين المقهورين سوف ينتفضون بعد أن يطفح بهم كيل الغضب ، فلا يهابون الموت فيدمرون كلّ شـيء في لحظة ، والله سـبحانه يـنزل عليهم صـاعقة من عذابه بعد أن تنتهي الفرصة الممنوحة لهم ، والأجل المحـدود لاختبـارهم ، فيقضي عليهم ، انه مكر الله ولا يأمن مكره أحد.

ان المكر هو : الالتفـاف حـول شـيء وأن يأتيه الأمر من حيث لا يحتسب الفـرد ، والـذي لا يحسب لمكر الله حسابا يخسر ، لأنه يبـني دون أن يملك ضـمانة لاسـتمرار بنائه ، وهو أشـبه بجيش لا يسد على نفسه الثغـرات الخلفية ، وينظر فقط من جهة واحـدة ، حيث أن العـدو يأتيه من الخلف فيقضي عليه ، إن على البشر أن يلاحظ

خلفيـات الأمـور ، وعوامل الهـدم والـدمار ، وقيم التقـدم والاستمرار.

[100] لكي تكـون لـديك بصـيرة نافـذة ، تعـرف بها عوامل الـدمار الـتي لا تـرى ظـاهرا ، عليك أن تعتـبر من التاريخ ، وتدرس حال الأمم التي بادت وأورثك الله الأرض من بعـدهم ، أولئك الـذين أحـاطت بهم ذنـوبهم ، وأغلقت قلـــوبهم فلم تســـمع الحقيقة ، وأنت أيضا مع مجتمعك يمكن أن يصيبكما الله بـذنوبكما ، فتغلق قلوبكما وتنـدحر حضارتكما.

(**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها**)

أو لم يكن ذلك الاستخلاف والتوارث هداية كافية لهم ليعرفوا.

(**أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ**)

كما أصاب الله أولئك بها الذين من قبلهم ليكونـوا هم الوارثين.

(**وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**)

آثار الذنوب :

إن الذنوب تعكس خطين من الآثار السلبية في حيـاة البشر.

الخط الأول : في الواقع الخارجي ، فالظلم والإرهاب والجريمة كل ذلك يخلف الخـراب والغضب والتحـدي في واقع الطبقية والمجتمع.

الخط الثاني : في الإنسـان العامل بالـذنب ، فـالظلم يغشي القلب ، ويضـــعف الارادة ، ويقتل الوجـــدان ، ويحجب العقل ، وكـذلك الإرهـاب والجريمة ، والقـرآن يشـير الى أن هلاك الأمم كـان يتم بسـبب تـراكم آثـار الذنوب على كلا الخطين ، فمن

جهة كان الله يصيبهم بذنوبهم وتراكمات آثـار الخطين في الواقع الخــــارجي ، ومن جهة ثانية كـــان الله يطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون بسبب تراكمـات الآثـار النفسـية ، ولا يقدرون على الاستجابة لمغيرات الحياة أو الانتبـاه الى أجراس الخطر التي كانت تدق على مسامعهم ، بل حــتى أنهم كانوا يكذّبون بآيات العـذاب وهي قادمة إليهم ، فمثلا كـان بعض الهـالكين من الأمم السـابقة يـرون سـحابة العـذاب فـيزعمون أنها سـحابة رحمة ممطـرة ، فتمطر عليهم العـذاب بـدل الرحمة ، كـذلك بعض الأنظمة اليـوم تـــزعم أن الانتفاضـــات الجماهيرية انما هي من خــــارج أراضيها ، بينما هي من الفساد في ذات النظام.

[101] ومن علائم طبع القلب وانغلاقه عن الاستجابة للمتغـيرات ، أو فهم إشـارات الخطر : أن الرسل كـانوا يأتون إليهم بالبينات والآيات الواضحة ولكنهم يكذبون بها ، حتى يدمر الله عليهم قريتهم.

(**تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ**)

إنهم كـذبوا بـالقيم أول ما انحرفـوا ، فجـاءت الرسل تنذرهم بالخطر من بعد أن تراكمت ذنوبهم وأحــاطت بهم فلم يعبأوا بذلك.

(**كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ**)

حين يكفر المـــرء يـــؤثر الكفر في قلبه فينغلق دون التوجيه السليم ، ذلك لأن الكفر يأتي نتيجة الاسـتكبار عن الحق ، والغــرور بالــذات ، وحين يســتجيب المــرء للكفر يزداد تكبرا وغرورا ، وهكذا حتى تنسدّ منافذ قلبه جميعا ، حيث إن الاستكبار عدو الفهم السليم.

[102] والله ســبحانه حين أهلك الأمم الســابقة لم يهلكهم إلّا بعد أن تــوافرت فيهم أســباب الهلاك ومنها : نقض العهد ، والفسق ، أما نقض العهد فهو حالة نفســية تنعكس في تعامل الإنسـان مع القيم والتزامـات البشر ، فالكـــــذب والغيبة ، والتهمة وإخلاف المواعيد ، والغش والتــدليس ، والنفــاق كل ذلك من مظــاهر نقض العهد ، حيث يتظاهر الفرد بشيء ، ويتعهد به ظاهرا ولكنه ينقضه ، وكـذلك عـدم الـدفاع عن الـوطن ، وعـدم التعـاون في مقاومة الظلم أو مواجهة مشكلات طبيعية.

أما الفسق فهو تجــاوز الحد في الســلوك الشخصي مثل : أكل الحرام ، والتهاون في الحقوق.

(**وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ**)

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْـــــدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَـــــوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُــوا بِها فَــانْظُرْ كَيْــفَ كــانَ عاقِبَــةُ الْمُفْسِــدِينَ (103) وَقــالَ مُوسى يا فِرْعَــوْنُ إِنِّي رَسُــولٌ مِنْ رَبِّ الْعـالَمِينَ (104) حَقِيــقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَـقَّ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِــلْ مَعِيَ بَنِي إِسْــرائِيلَ (105) قــالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَــةٍ فَــأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّــادِقِينَ (106) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَـدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)

---

105 [حقيق] : جدير وخليق.

108 [مـزع] : الـنزع ازالة الشـيء عن مكانه الملابس له المتمكن فيه كنزع الرداء عن الإنسان ، والنزع والقلع والجـذب نظـائر ، وفلان ينـازع إذا أرادت روحه أن تفارق جسده.

الظلم بآيات الله

وعاقبة المفسدين

هدى من الآيات :

بعد الحديث عن تلك المجتمعـات الـتي بـادت وهلكت بسبب فسـادها ، جـاء الحـديث يـبيّن لنا عاقبة مجتمع آخر أعــرق حضــارة وأشد جاهلية وأطــول صــراعا ، ذلك هو مجتمع فرعون وملائه ، ويطول الحديث القرآني حول هذا المجتمع هنا وفي ســور أخــرى ، ربما لأنه أقــرب صــورة للمجتمع الذي سوف يتكون بالإسلام.

موسى (عليه السـلام) يبعثه الله بالآيـات البينـات الى فرعـون وملائه من المسـتكبرين حوله ، ولكنهم يظلمـون الآيــات ، فــاعتبر بعاقبة هــؤلاء المفســدين ، تلك العاقبة المشـتركة في الجـذور والسـنن بـالرغم من الاختلاف في التفاصـيل المشـتركة بين قـوم موسى وقـوم نـوح وهـود وصـالح ولـوط وشـعيب ، تلك العاقبة الـتي لو اسـتخلص المرء عبرها لاستطاع أن يتجنبها.

وجاء موسى (عليه السلام) الى فرعون ليعرّف نفسه بأنه رسول رب العالمين ،

وأنه يجب ألّا يقول على الله إلّا الحق ، وانه جـاء ببينة من الله وبرسالة هي إنقاذ بني إسرائيل المستضعفين.

وتحدى فرعون موسى (عليه السلام) وطالب بالآيات إن كان صـادقا ، واسـتجاب موسى (عليه السـلام) لتحديه (**فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَـإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ**).

وهكـذا بـدأ الصـراع بين فرعـون ورسـول الله الـذي يحدثنا السياق عنه عبر دروس عديدة.

بينات من الآيات :

ظلم الحقائق :

[103] الظلم قد يقع على البشر وقد يقع على فكرة أو حقيقة ، والبشر المظلـوم لا بـدّ أن يأخذ حقه عـاجلا أم آجلا ، كذلك الحقيقة المظلومة الـتي تـرك الظـالم العمل بها أو حـــــتى الاعــــتراف بها ، وحين تظلم الحقيقة يعم الفسـاد ، وعاقبة الفسـاد هي الهلاك ، وهكـذا كـانت قصة موسى مع قومه.

(**ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ**)

أيّ من بعد تلك الرسالات وأولئك الرسل.

(**مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ**)

كما في المجتمعـــات الســـابقة كـــذلك في مجتمع فرعون ، كان الناس منقسمين الى الملأ وهم كبار القــوم والعامة.

(**فَظَلَمُوا بِها**)

أيّ بتلك الآيات ، والآيات هي العلامات التي تدل على الحقيقة ، والظلم بها يعني ظلم الحقيقة أو بـالأحرى ظلم الإنسان لنفسه عن طريق ظلم الحقيقة وكفره بآياتها.

(**فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)

أو لم يهلكـوا بخـزي وعـار ، إن الفسـاد هو كل حركة مخالفة لسنن الله في الحيـاة ، ومخالفة لآيـات الحقيقة ، وإذا تدبرنا في هذه المجموعة من الآيات ابتداء من الآية (56) من هـذه السـورة حيث تقـول : (**وَلا تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْـدَ إِصْـلاحِها**) وحـتى آخر القصص الـتي تحكي عن صـراع الأنبيـاء مع مجتمعـاتهم الجاهلية يتـبين لنا هـذا المعـــنى العـــام للفســـاد وهو مخالفة ســـنن الله وآيـــات الحقيقة.

[104] والله ســبحانه يصــلح العــالم ، ويــنزل عليه بركاته ، ويكمل وجــوده ويطــوره نحو الأفضل ، فهو رب العــالمين ، ولــذلك فهو يبعث رســولا من لدنه الى البشر لذات الغاية التي من أجلها سخر الشمس والقمر والنجوم ، ولذات الهدف الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته.

(**وَقــالَ مُوسى يا فِرْعَــوْنُ إِنِّي رَسُــولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

بين التكذيب والتصديق :

[105] كــان الرسل (عليهم الســلام) يؤكــدون في دعــوتهم على هــذه الحقيقة وهي : أن الكــذب على الله جريمة كبـيرة وذنب عظيم ، وهـذا التأكيد يكشف للنـاس أنهم (عليهم الصلاة والسـلام) لا بـدّ أن يكونـوا واحـدا من نوعين من الرجـال : فاما أن يكونـوا مجـرمين من الدرجة الاولى ـ حاشاهم ـ وسيرتهم حافلة بالأمانة

والصدق والفداء وهذه الصفات تكشف للنـاس غـير ذلك ، وإما أن يكونوا صادقين ، ولولا هذا التأكيد المكرر على أن الافتراء على الله ضلالة كبري وجريمة نكراء ، لكنا نحتمل أن يكون النبي كاذبا لمصـلحة النـاس مثلا دون أن يعـرف أهميّة الكذب أو مـدى قبحه ، وموسى (عليه السـلام) بـدأ حديثه مع فرعون بهذه الكلمة.

(**حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَ**)

أيّ يجب الا أقـــول على الله إلا الحقيقة ، وهـــذا الوجوب أعرفه جيدا واعـترف به ، فـاني بعيد عن الكـذب على الله بسـبب اعتبـار ذلك جريمة ، وأكـثر من هـذا اني أملك بينة واضحة على ذلك.

(**قَـدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِـلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ**)

لقد كـــانت رســـالة الله على موسى ذات صـــفة اجتماعية واضـــحة ، حيث طـــالب موسى فرعـــون بكف الظلم عن بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعـون ، ومن المعلوم ان موسى (عليه السلام) كـان يهـدف أيضا نجـاة فرعـون وقومه من ضـلالتهم ، لكن بـدأ رسـالته من حيث كان الانحراف الكبير أو الفسـاد العظيم ، وهكـذا ينبغي ألا تكون دعـوة المصـلحين في الفـراغ ، بل متجهة الى أكـبر انحرافات المجتمع لكشفها وإصلاحها.

[106] أما فرعـــون رأس هـــرم المجتمع الفاسد ، وقائد الملأ الكـاذب فانه تحـدى موسى (عليه السـلام) ، وطالبه بالآية التي جاء بها.

(**قـالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَـةٍ فَـأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

[107] واســتجاب موسى (عليه الســلام) للتحـــدي فورا.

(**فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ**)
[108] (**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ**)
كـانت يـده (عليه السـلام) الـتي تشع بالبيـاض. آية واضحة على صدق رسالته.

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَـوْمِ فِرْعَـوْنَ إِنَّ هـذا لَسـاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَـأْمُرُونَ (110) قـالُوا أَرْجِـهْ وَأَخـاهُ وَأَرْسِـلْ فِي الْمَـدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَجاءَ السَّـحَرَةُ فِرْعَـوْنَ قـالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْـراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغـالِبِينَ (113) قـالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَـرَّبِينَ (114) قـالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُـونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُـوا فَلَمَّا أَلْقَـوْا سَـحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)

---

111 [أرجه] : أخّر أمر عقوبتهما.
[حاشرين] : جامعين للسحرة.
116 [واسترهبوهم] : خوّفوهم تخويفا شديدا.

تضليل الملأ ضد رسالات الله

هدى من الآيات :

كـــانت تلك الرســـالة رســـالة الله ببيناتها ودلائلها ، فلننظر الى ذلك الطرف لنرى ما هو جـواب المسـتكبرين من قوم فرعون؟

انهم اعتمدوا على عدة وسائل لمقاومة رسـالة الله ، ولم يكن بينها بـــالطبع الاهتـــداء بها أو مواجهتها الحجّة بالحجة.

فأولا : قالوا لموسى انه سـاحر عليم ليضـللوا النـاس عن رسالته.

ثانيا : اســتثاروا حب الأمن لــدى النــاس ، واتهمــوا موسى بتعكير الأمن عليهم.

ثالثا : توسلوا الى القوة واعتقلوا موسى وأخاه.

رابعا : جمعوا المشعوذين من سـحرة البلاط ، وهكـذا جاء السحرة لفرعـون ولكن لم يكن لهم رسـالة اجتماعية أو اصلاحية بل جاؤوا اليه طلبا للمال والجاه ، فوعدهم

فرعــون أن يجعلهم من المقــربين إليه ، فسـألوا موسى (عليه الســلام) أن يلقي ما لديه أولا ، فتحـــداهم موسى وطـالبهم بالمبـادرة ، فلما ألقـوا سـحرهم سـحروا أعين الناس واسترهبهم سحرهم وقد كان سحرا عظيما.

وهكـــذا جمع الطـــاغوت كل قـــواه المادية لمقاومة الرسالة ، ولكن ترى هل يقدر على ذلك؟

هــذا ما يتحــدث عنه القــرآن الحكيم في الــدروس القادمة إنشاء الله.

بينات من الآيات :

التهم الرخيصة :

[109] في الاجابة على تلك الأدلة الفطرية الواضـحة قال الاشراف والمستكبرون من قوم فرعون : إن موسى ساحر عليم ، في محاولة لتضليل الجماهير المستضعفة.

(**قـالَ الْمَلَأُ مِنْ قَـوْمِ فِرْعَـوْنَ إِنَّ هـذا لَسـاحِرٌ عَلِيمٌ**)

والناس كانوا يعرفـون السـحرة آنئذ ، ويعرفـون انهم يســـتخدمون ما عنـــدهم من علم وفن ليس في خدمة النـــاس وانما في خدمة الســلاطين أو خدمة أغراضـــهم الدنيئة ، ودائما يحاول أعوان الطاغوت ألقـاء شـبهة معينة بين الناس من النوع الذي يعرف الناس أمثاله ، فمثلا : لو قام مفكر أصيل بنشر ثقافة ثورية عالية بين النـاس اتهمه أولياء الطاغوت بأنه صحفي عميل ، أو كاتب مـأجور ، لان النـاس يعرفــون كثـيرا من الصــحفيين العملاء والكتـاب المأجورين ، حتى أنهم يشتبهون فعلا في المفكر الأصيل ، أو إذا قام عالم دين تقدّمي صـالح لقيـادة ثـورة الجمـاهير قالوا : انه رجل دين رجعي ، لأنه كثيرا ما رأى الناس مثل ذلك.

[110] ثم توسل أشـــراف قـــوم فرعـــون بما يتوسل إليه عادة كل الطغاة من اتهام الثوار بمحاولة تعكير صـفو الأمن على الجماهير فقالوا :

(**يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ**)

وثـالث أسـلوب اسـتخدمه الملأ من قـوم فرعـون لمقاومة رسالة الله كـان الاعتقـال ، باعتبـاره حـاجزا بين صـاحب الرسـالة وبين الجمـاهير ، وأما الأسـلوب الرابع فكان حشد كل الذين يرضون ببيع علمهم وفنهم لقاء أجر محدود لمصلحة السلطات الطاغوتية لذلك.

[111] (**قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِـلْ فِي الْمَـدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ**)

أي اسـجنه هو وأخـاه ، وأرسل الشـرطة ليحشـدوا السحرة.

[112] ويبقى السؤال : ما هو السحر؟

إن أساس السحر هو : التأثير في الخيال في الطرف الثـاني لكي يـزعم شـيئا معينا غـير الحقيقة ، والسـحر قد يكـون عن طريق غسـيل الـدماغ الـذي يسـتخدمه العلم الحديث ، أو عن طريق الدعايات الباطلة ، وقد يكـون عن طريق بعض أنواع الشعوذة ، مثل ما فعله سحرة فرعـون حيث وضـعوا الزئبق في أجسـام لينة تشـبه العصي ثم ألقوها فتحـركت بفعل تحـرك الزئبق بحـرارة الشـمس ، وعلى العمـوم ليس السـحر سـوى اسـتخدام الوسـائل الطبيعية الغـير معروفة للنـاس في سـبيل إقنـاع الآخـرين بغير الحقيقة.

[113] والسـحرة أولئك المـأجورون الـذين لم تكن لديهم رسالة في الحيـاة إلّا إشـباع شـهواتهم العاجلة وقد سألوا فرعون قبل كل شيء عن الأجر.

(**وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ**)

ويبــدو ان الســحرة كــانوا يخشــون الهزيمة بســبب معـرفتهم ببطلان سـحرهم ، وأنهم لا يقولـون الحق ، كما يبدو أنهم قد اجهدوا أنفسهم في الحصول على كل وسيلة ممكنة من وسائل السحر ، ولهذا سألوا فرعون الأجر.

[114] أما فرعــون الطــاغوت الــذي رأى أن كيانه يتداعى تحت ضـربات عصى موسى المعجـزة ، فانه كـان كريما في إعطاء الوعود.

(**قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**)

حيث عرف فرعون أن طائفة السحرة يجب أن تكون على مقربة منه لمواجهة الظـــــــروف الطارئة ، كما أن الملوك والرؤساء وطغاة اليـوم يصـطحبون معهم رتلا من الصحفيين المأجورين ، والمستشارين العملاء الذين بـاعوا ما لـــديهم من فكر وعلم وأدب من أجل تـــدعيم نظـــام الظلم والقهر.

التحدي الرسالي :

[115] وحشدت الجماهير ، ووقف موسى يتحدى كلّ ذلك الكيــان الطــاغوتي ، فرعــون وجنــوده وســحرته ، يتحداهم وحده بالتوكل على الله ، والثقة المطلقة بوعـده الصادق بنصره ، لذلك.

(**قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**)

[116] (**قـالَ أَلْقُـوا فَلَمَّا أَلْقَـوْا سَـحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**)

ان موسى (عليه الســـلام) واثق من النصر لأنه على حق ، ولأنه يعتمد على ركن شديد هو الله سبحانه ، لـذلك أمـرهم بـأن يخرجـوا ما لـديهم من مكر وسـحر ، كما أمر نوح (عليه السلام) قومه بأن يجمعوا أمرهم وان يأتوا اليه من دون نظرة ومهل.

وهكذا كل الـدعاة الى الله سـبحانه يتحـدون الأنظمة الطاغوتية دون خـوف ، وينــازلونهم في ميـدان المواجهة الشاملة ، وهذا بذاته دليل صـدقهم واعتمـادهم فقط على الله ، وعلى الحق الذي يحملون رسالته.

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122) قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

الرسالة تتحدى التضليل والإرهاب

هدى من الآيات :

وجـــاءت مرحلة الحسم ، وأوحى الله ســـبحانه الى موسى بإلقـاء عصـاه ، فـاذا بها تتحـول الى ثعبـان عظيم يبتلع سحر قوم فرعـون ، وإذا بـالحق الـذي كـان يبشر به موسى أصـبح واقعا ، والباطل الـذي كـان يحـذّر منه تـبين بطلانه للجميع.

وانهزم فرعـون وقومه وذلـوا ، وكـان أول من عـرف عظمة المعجـزة سـحرة فرعـون أنفسـهم حيث وقعـوا سـاجدين لله ، وهتفـوا بـأنهم آمنـوا بـرب العـالمين رب موسى وهـارون ، وارتـاع فرعـون ، وعـرف أنه لا يجديه السحر والمكر شيئا ، وأن عليه أن يستخدم آخر الأسـلحة وهو سلاح الإرهـاب ، فقهر سـحرته وقـال لهم : أتؤمنـون بموسى قبل أن يصـدر الاذن مـني واقـرر نهاية المعركة لصـــالح موسى باعتبـــاري ملكا ، ثم اتهمهم بما يتهم كل طـاغوت من يخـرج عليه ، اتهمهم بـأنهم يهـدفون إشـاعة الفوضى والمـؤامرة على أمن البلد ، ويريـــدون إخـــراج الناس ، وهددهم بأنه سوف يصلّبهم أجمعين.

أما المؤمـنين فـإنهم تقبلـوا التهديد بكل رحابة صـدر وقالوا : إن الموت هو جسر العبور للعودة الى الله تعـالى ، وقــالوا له : ان تهمك باطلة ، وانما تريد أن تعــذبنا لأننا آمنا بآيـات ربنا ، وعلامـات الحقيقة حيث جاءتنا ، وطلبـوا من الله سـبحانه ان يمـدهم بالصـبر ، وأن يختم عـاقبتهم بالخير.

وهكـذا اسـدل السـتار على مشـهد آخر من مشـاهد صراع الحق والباطل.

بينات من الآيات :

التوكل على الله سرّ العظمة :

[117] موسى الذي تحدى كلّ ذلك الطغيان الجاهلي العظيم بســـــحره وجبروته وارهابه لم يفعل ذلك بقدرته الذاتية ، بل بالقـدرة المعنوية ـ بالتوكل على الله ـ وهـذا هو سر العظمة ، إذ لو كان موسى يملك سـحرا أقـوى ثم يتحدى سحر السحرة ، أو كان يملك جيشا أكبر ثم يتحدى الطاغوت فرعون ، أو يملك جمـاهير أكـثر إذن ما كـان له هــذا الفخر وهــذه العظمة ، انما كـــان يتحـــدى الجاهلية بعصاته الـتي يخشى منها حين يلقيها ، لأنه لا يعـرف كيف تتحول الى ثعبان ، وحين وقف موسى أمام السحرة ورأي ســحرهم العظيم ، وأنهم اســترهبوا الجمــاهير ، وكــادوا يضــللونهم أوجس في نفسه خيفة ، لأنه يخــاف من غلبه الجهال ودول الضلال كما جـاء في الحـديث ، ولكن يشـاء ربه امتحـان النـاس بهـذا السـحر ، وامتحـان اسـتقامته ، وحين ينتصر موسى بعصاه حينذاك تكـون عظمة موسى ، لأنه يعتمد على الايمان ، ويضحي بنفسه في هذا المجال ، لذلك يؤكد ربنا على الوحي في مواجهة الجاهلية ويقول :

(**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْــقِ عَصــاكَ فَــإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ**)

أيّ تبتلع إفكهم وانحرافهم وكذبهم.

[118] وحين يصبح الحق واقعا عينيا يـؤمن به الجميع ، ولكن قبل ذلك لا يؤمن به سوى أصحاب البصائر النافذة والرؤى الصادقة.

(**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

إنهم عملوا الباطل وأرادوا تكريسه ، ولكن الحق وهو سنة الله وفطرته وقانونه في الحياة هو الذي انتصر أخيرا ، فـالظلام في الليل يزيله بصـيص نـور شـمعة ، وكما ان هـذه الشـمعة قطعت الظلام كـذلك النـور في النهـار ، وكـذلك العدالة الاجتماعية وكـذلك في المقابل سـقوط الظلم وانهيار الفساد.

[119] أما قوم فرعون فلحقهم الخزي والهزيمة.

(**فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ**)

[120] والمفاجئة كانت حين ألقي السـحرة سـاجدين ، تلك كانت الاصابة في مقتل النظام الماكر.

(**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ**)

[121] (**قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

[122] (**رَبِّ مُوسى وَهارُونَ**)

فلسفة الاستبداد :

[123] للاسـتبداد والدكتاتورية فلسـفة يعتمد عليها ويشيعها الطاغوت بين الناس ، هذه الفلسـفة هي قاعـدة كل تشريعاتها ، ومنطلق كل تصرفاتها ، وهي : المحافظة على الأمن ضد العـدو الخـارجي أو الـداخلي ، حـتى ان الطواغيت يصطنعون

عــادة أعــداء وهمين ، أو يســتزيدون عــداء الشــعوب فيختلقون الحروب لكي يعتمدوا عليها في ترسـيخ كيـانهم الباطل ، وفرعـون كـذلك عـاد الى تلك الفلسـفة الباطلة لكي يخــرج من ورطته المخزية ، حيث أنهــار عمــود من أعمـدة حكمه وهو السـحر ، ووقع السـحرة سـاجدين لله لذلك.

(**قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**)

إن فرعــون انطلق من فكــرة خاطئة هي : أن ملكه ونظامه هو أســاس امن البلد ، لــذلك فــانكم حين آمنتم بموسى قبل ان تستصدروا الاذن مني فانكم خـالفتم هـذا الأساس ، لذلك قال فرعون :

(**إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ**)

أو بـالتعبير الشـائع اليـوم انها مـؤامرة قمتم بها في البلد.

(**لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

[124] وعـاد الى السـلاح الأخـير وهو الإرهـاب ، ذلك الســلاح الــذي تعتمد عليه الديكتاتورية قبل كل شــيء ، بـالرغم من أنها لا تصـرح به ، ومن أهم نتـائج الصـراعات الرســـــــالية مع الديكتاتورية هو : فضح اعتمادها على الإرهاب ليعـرف الجميع أن الادعـاءات الاخـرى إن هي إلّا غطاء لهذا السلاح.

(**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ**)

أيّ تقطيع الرجل من طرف واليد من طرف آخر.

(**ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**)

وذلك للجمع بين النوعين من أنواع الاعدام ، الاعــدام بنزف الدم من اليد

والرجل المقطوعـــتين من اليمين واليســـار ، والاعـــدام بالصلب في جذوع النخل ، وذلك بشد الفرد على الجـذوع حـــتى يقضى عليه تنكيلا به ، وليشـــهد موته كل النـــاس فيكون رادعا لهم عن الايمان بالرسالة.

[125] (**قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ**)

[126] (**وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيـاتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ**)

وهكذا استعد السحرة التائبون لمواجهة مكر فرعــون وكيده ، تضـليله وإرهابه ، فمن جهة قـالوا له : إنّ غضـبك علينا ليس إلّا لأننا عدنا الى حريتنا واستقلالنا وآمنا بـالحق من دون إذنك ، ومن جهة ثانية تضرعوا الى الله لـيرزقهم الصبر الشامل ، والاستقامة حتى المـوت ، وذلك لمواجهة إرهاب فرعون وبـذلك أتمّ الله حجته على سـائر الملأ من قـوم فرعـون الـذين ظلّـوا على جهـالتهم خشـية فرعـون وبطشه ، حيث ان الســـــحرة أيضا تعرضــــوا لمثل ذلك ولكنهم صــبروا واســتقاموا بالتوكل على ربهم ، وأتمّ الله حجته على بطانة المسـتكبرين عـبر التـاريخ انهم قـادرون على التوبة الى الله إن شاؤوا ، كما فعل سـحرة فرعـون التـــائبون ، وأتم حجته على النـــاس ليعلمـــوا ان إيمـــان المؤمنين لم يكن بدافع مصلحي أبدا.

وَقـالَ الْمَلَأُ مِنْ قَـوْمِ فِرْعَـوْنَ أَتَـذَرُ مُوسى وَقَوْمَـهُ لِيُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَـذَرَكَ وَآلِهَتَـكَ قـالَ سَـنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسـاءَهُمْ وَإِنَّا فَـوْقَهُمْ قـاهِرُونَ (127) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشـــاءُ مِنْ عِبـــادِهِ وَالْعاقِبَـــةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قـالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْـــدِ ما جِئْتَنا قـــالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِـــكَ عَـــدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

حكمة حياة البشر تجربة إرادته

هدى من الآيات :

وانتهت الجولة الاولى من المعركة بين موسى وفرعون وملائه بانتصار الرسالة ، واستعادة موسى حريته ، واتبعته الجماهير المستضعفة من قومه ، وجاء المستكبرون يخبرون فرعون بأن موسى وقومه يفسدون عليه الأمر ، ويهدمون نظامه الطاغوتي ، ويتمردون عليه وعلى نظامه السياسي والديني ، فخطط فرعون لمرحلة جديدة من الإرهاب وقال : سنقتّل أبناء بني إسرائيل ونبقي على نسائهم أحياء ونستخدم القوة القهرية عليهم ، وقال موسى لقومه وهو يحثّهم على مقاومة الضغوط استعينوا بالله ـ بالايمان به ، وبالثقة بوعده ، وبالمناهج الثورية التي وضعتها لكم القيادة الحكيمة ـ وأمرهم بالصبر وبيّن لهم أن الأرض ليست ملكا لفرعون وقومه حتى يستحيل انتزاعها منهم ، بل هي ملك لله يعطيها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين.

أما قوم موسى فقد فرغ صبرهم وقالوا له : إننا تحملنا الأذى قبل وبعد مجيئك

إلينا ، ولكن موسى طمـــأنهم وقـــال : (**عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ**) بالانتصار عليهم ، والهـــدف من اســـتخلافكم هو : اختيـــاركم ، وامتحـــان عملكم بعد الانتصار.

بينات من الآيات :

بعد العسر يأذن الله بالنصر :

[127] وينصر الله ســبحانه الرســاليين في أوقــات الأزمــات الشــديدة كما نصر موسى عند ما أراد فرعــون سحق رسالته بالســحر ، بيد أن من واجب الرســاليين آنئذ ألّا يـــدعو لحظة واحـــدة لا يســـتفيدوا منها في توعية الجماهير وتنظيمهم ، وترسيخ دعائم الثورة ، وهدم أسس النظـــام الفاسد ، وذلك اســـتعدادا لجولة جديـــدة من المعركة الســاخنة مع النظــام الطــاغوتي ، فهــذا موسى (عليه السـلام) بعد ان انتصر على فرعـون ، واسـتعاد منه حريته ، جمع حوله الأنصــار ، وأخذ يفسد نظــام فرعــون الطــاغوتي من كل جهة ممكنة ، ويهـدم أســاس كيانه وهو الاعتمــاد على الســلطة السياســية الطاغوتية الــتي يمثلها فرعـــون رأس النظـــام ذاته ، وأيضا الســـلطة الدينية والثقافية الفاسدة التي كان يمثلها : الكهنة والأحبار لــذلك جاء كبار رجال فرعون ومستشاروه اليه يخبرونه بــالأمر ، ويحذرونه منه.

(**وَقـــالَ الْمَلَأُ مِنْ قَـــوْمِ فِرْعَـــوْنَ أَتَـــذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**)

يبــدو لي : أن مــرادهم بالفســاد في الأرض هو هــدم الانظمة التفصــيلية ، والكيانــات والمؤسســات المختلفة للدولة ، بينما المــراد من تــرك فرعــون هو تــرك ســلطانه السياسي ، والمراد من ترك الآلهة ترك خلفية هذا النظام السياسي والثقافي.

[128] وحين استخدم فرعـون سـلاحه الأخـير ، وأراد تصفية المستضعفين جسديا ، أمر موسى قومه بالاستعانة بالله ، ويتساءل المرء : ما هي الاستعانة بالله؟

ونعرف الاجابة إذا تذكّرنا بأن لله الأسـماء الحسـنى ، وحين يؤمن العبد بربه يسعى لتجسيد ما استطاع من تلك الأسـماء في ذاته ، فـالعزة لله ولرسـوله وللمؤمـنين ، وحين يتصل العبد بالله تتجلى فيه صـفة العـزة الالهية ، كما تتجلى فيه صـفة القـدرة ، وعـدم الخضـوع لضـغوط الشهوات ، أو الاستسلام للمتغيرات الآنية العاجلة ، وبقدر ذلك تتجلى فيه صفة الرحمة والشـدة والحكمة والعلم و.. و..

وكلما زادت الأسـماء الالهية الحسـنى في المـؤمن تجليا وظهـورا كلما أصـبح أقـدر على مواجهة المصـاعب وتسخير الحياة ، والله سبحانه خلق لعباده وسائل للتقرب اليه ، وللاتصـال بينـابيع قدرته وعظمته ، والأخذ بتلك الوسـائل هو الاسـتعانة بالله ، فكلما تمسك المـؤمن بتلك الوسـائل كلما أصـبح أشد قـدرة وأكـبر عظمة ، والتقـوى هي جماع تلك الوسـائل ، أما تفاصـيلها فهي تلك المنـاهج التشريعية المعروفة في الإسلام وفي سائر الرسالات.

ومن أبـرز تلك الوسـائل هي : الولاية الالهية الـتي تتجلى في القيـادة الرسـالية النابعة من المبـدأ ، حيث ان الاستعانة بالله تعـني بالضـرورة المزيد من التمسك بهـذه القيـادة ، وتوحيد الجهـود تحت رايتها ، لـذلك فحين أمر موسى (عليه السلام) قومه بالاستعانة بالله كان يعني كل ذلك ، ولكن مع ذلك ركّز موسى (عليه السـلام) على صـفتين أساسـيتين هما : الصـبر والتقـوى ، الصـبر لرؤية المسـتقبل والاسـتقامة على مشـاكل الحاضر ، والتقـوى للالـتزام بكل المنـاهج المفصـلة الـتي تضـمن تفجـير الطاقـات ، واسـتغلال المـواهب ، وتربية الشخصـية الرسالية العاملة ، وبالتـالي توفـير كافة عوامل النصر في الفـرد والمجتمع الرسـالي من عوامل مادية أو معنوية .. من هنا :

(**قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللـهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)

ومعرفة هذه الحقيقة وهي : أن السلطة الحاكمة ليست أبدية ، وإنما هي نتيجة عوامل ومعادلات سياسية اجتماعية ، وانه لو غيرنا المعادلة والعوامل سقطت السلطة ، وجاء بديلها السلطة الأكثر قوة وكفاءة ، وهي حكومة المتقين ، معرفة هذه الحقيقة تفجر طاقات الجماهير المستضعفة وتعطيها الأمل والصمود.

[129] وأما قوم موسى فقد طفح كيلهم ، وكاد اليأس يحيط بقلوبهم حيث :

(**قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا**)

ولكن حين تفقد الامة قدرة الاحتمال من شدة الضر الذي يصيبها ، وحين تتضرع الى الله وينقطع أملها من النجاة بالوسائل الاصلاحية المتدرجة ، وتعرف أن تغييرا جذريا في شخصيتها وفي علاقاتها مع بعضها ومع الطبيعة أنه الكفيل بنجاتها ، وهذا لا يمكن إلّا عن طريق الايمان بالله وبرسالاته ، حينذاك فقط تنزل عليها رحمة الله سبحانه لذلك ذكرهم موسى و..

(**قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**)

والانتصار إنما هو بهدف الامتحان ، وعلى الأمة ألّا تفكر في ذلك الانتصار الرخيص الذي هدفه استعلاء طائفة ، واستكبار فريق مكان فريق آخر ، بل تفكر سلفا أن الانتصار لا يحصل لفريق أو لحزب أو لطائفة بل للمبدأ ، وتعمل الأمة في هذا المجال حتى تنجح بإذن الله.

لذلك فان الحركات الحزبية التي همها انتصارها هي لا انتصار الأمة ، تفشل في الأكثر ، لأن الله لا ينصر أمة إلّا بعد أن تتضرع إليه ، ويكون هدفها رساليا خالصا.

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَـراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قـالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَـهُ أَلا إِنَّما طـائِرُهُمْ عِنْـدَ اللـهِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ (131) وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَـةٍ لِتَسْـحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُـؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَـلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفـانَ وَالْجَـرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّـفادِعَ وَالـدَّمَ آيـاتٍ مُفَصَّـلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْمـاً مُجْـرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَـعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْـزُ قـالُوا يا مُوسَـى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِـدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُـؤْمِنَنَّ لَـكَ وَلَنُرْسِـلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَـفْنا عَنْهُمُ الرِّجْـزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بـالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُـونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

---

135 [ينكثون] : انكث نقض العهد الذي يلزم الوفاء به.

كَــذَّبُوا بِآياتِنا وَكــانُوا عَنْها غــافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَــوْمَ الَّذِينَ كــانُوا يُسْتَضْــعَفُونَ مَشــارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْــنى عَلى بَنِي إِسْــرائِيلَ بِما صَــبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137)

---

137 [يعرشون] : يبنون ، يقال عرش مكة أي بناؤها.
139 [متبّر] : مهلك مدمر.

وهكذا نصر الله عباده بالغيب

هدى من الآيات :

وهـذا مشـهد آخر من مشـاهد الصـراع بين الرسـالة والرجعية الجاهلية ، حيث إن الله أراد أن يهـــــــدي آل فرعـــون عن طريق كسر غـــرورهم ، وتـــذليل نفوســـهم المســتكبرة بالمصــائب والمشـكلات ، ولكنهم اســتكبروا وكانوا يزعمـون أن الخـير والرفـاه هو الأصل في حيـاتهم وهو منهم ، وأما الشر والمصـــائب فهي من نحس موسى (حاشاه) ولم يكونوا يشعرون بأن كل خــير أو شر انما هو من عند الله ينزله بسبب أعمال العباد.

وحين لم تنفع هذه الوسيلة في هدايتهم ، بل صــرحوا بأن الآيات هذه (سـواء العصى واليد البيضـاء أو المصـائب والمشـكلات كالجـدب ونقص الثمـرات) لا تجـديهم نفعا ، وأنهم لن يؤمنـــوا بالرســـالة مهما كـــان ، آنئذ أخـــذهم بالعذاب.

ولقد أرسل الله عليهم الطوفـــــــان ، وانتشر فيهم الجراد والقمّل والضفادع والدم بـأمر منه سـبحانه وكـانت هذه الآيات مفصلة وواضحة ، لكنهم استكبروا عنها وكـانوا قوما مجرمين ، فاذا كانوا فاسدين فكريا وعمليا.

إنهم كـانوا يتوسـلون بموسى كلما يقع عليهم الرجز ، ويصـيبهم العـذاب ، ويتعهـدون له بالايمـان لو كشف الله عنهم الرجز ، ولكنهم كـانوا ينكثـون كلما كشف الله عنهم العذاب لأجل محدّد.

وكانت تلك المصاعب والمصائب تستهدف هـدايتهم ، ولكن حيث كفروا واستكبروا حان وقت الانتقام والعذاب ، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبهم وغفلتهم عن آيات الله ، وعواقب التكذيب بها.

بينات من الآيات :

الغرور سبب الكفر :

[130] سـبب كفر الإنسـان وتكذيبه بآيـات الله هو استكباره وغروره ، وكلما كانت حضـارة الإنسـان ومدنيته وغناه أكثر كلما كان غروره أكبر.

ولكي يكسر الله غـرور البشر ، فـيرتفع عنهم هـذا الحجاب الكثيف فـيرون الحقيقة ، فانه يبعث إليهم رسـولا ينـذرهم ويحـذرهم ، ويعمل بكل طاقته في سـبيل إثـارة فطرتهم ، وتنوير قلوبهم ، وإيقـاظهم من السـبات ، ولكن إذا ظل أولئك كافرين ومسـتكبرين عن الحقيقة فهنا يتخذ ربنا سبيلا أخر لهـدايتهم هو : ابتلاؤهم في أمـوالهم أو في نفوسـهم ببعض البلاء العـام ، فـاذا لم ينتفعـوا بها أيضا أخـذهم الله بالعـذاب الشـديد ، لـذلك أخـبر الله عن آل فرعون وقال :

(**وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**)

ايّ بالقحط والجـدب ، وكـانوا قبل ذلك مغـرورين بالأنهار التي تجـري من تحتهم ، وبالنيل الـذي فجر الله به خيرات الأرض لهم.

(**وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ**)

كـان المطر يملأ مـراعيهم خضـرة ، ويملأ نيلهم مـاء فيسقي البساتين فتزداد الثمرات ، ولكن حين قـلّ المطر أصبحت الصحاري جفافا والبساتين يابسة.

(**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**)

فيعرفـــون أن هـــذه المدنية ليست من ذاتهم بل من الله سبحانه.

[131] البشر قد يغفل وقد ينـــــام وقد يغمى عليه ، ولكنه بالمعالجة يتـــذكر ويســـتيقظ ويحس ، أمّا الـــذي فسدت رؤيته وانحرفت ثقافته فانه لا تنفع معه المعالجة ، فمثلا : البشر العادي حين تراه قد اسـتغنى ولا يحتـاج الى أحد يســتبد به الغـرور والاســتكبار ، ولكن إذا فقد ســبب غـــــروره وافتقر عـــــادت نفسه الى حالته الأولية وتقبّل الهداية.

أما البشر المعقد الــذي تحضّـــر واســـتبدت به ثقافة خاطئة ، وفقد فطرته الأولية ، فـان تلك الثقافة تبقى معه حــتى بعد رحيل النعم عنه ، وعودته الى الحالة الطبيعية ، فلا يزال مغرورا بذاته وبمنجزات آبائه وبمكاسبهم ، لـذلك لا يصـدق نفسه حـتى أن نـزل عليه البلاء ، بل ويـزعم ان هـذا البلاء انما سـببه بعض الطـوارئ الخارجة عن إرادته ، وانه اســـتثناء ، إذ يـــزعم أن الحضـــارة جـــزء من ذاته ، ومعلولة عن عنصره ، وعن بلده وعن أفكاره ، لذلك ترى قوم فرعون ينسـبون الحسـنة الى أنفسـهم والسـيئة الى موسى (عليه السلام).

(**فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ**)

يقولـــون ان الســـيئة انما هي بســـبب موسى ، كما تنسب الأنظمة الفاســـدة اليـــوم المشـــاكل كلها الى الحركات الثورية ، حيث تزعم انها ـ دون فساد أنظمتهم ـ

سبب التخلف الاقتصادي والتبعية والإرهاب وما أشبه.

(**أَلا إِنَّما طـائِرُهُمْ عِنْـدَ اللـهِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

المشاكل ليست بسبب هذه الحركة أو تلك الفكـرة ، وإنما بسبب النظام ذاته وبسبب فساد الأعمال ، والله هو الذي يقدر الخير والشر ، والحسنة والسيئة حسب قوانين دقيقة وثابتة عند الله سبحانه ، يجريها ربنا بحكمته البالغة وبعلمه النافذ ، ومعرفة هـذه الحقيقة تعطي البشر قـدرة على التحكم في الحياة.

التطرّف في الكفر :

[132] وبلغ الكفر والجحـود بـآل فرعـون حـدّا بنـوا بينهم وبين الحقيقة سـدّا منيعا من الجحـود ، وتشـبثوا بسلسـلة من الأفكـار المخـدرة الـتي تفسر كـلّ آيـات الحقيقة ومعالمها ببعض التفسيرات الباطلة.

(**وَقـالُوا مَهْما تَأْتِنا بِـهِ مِنْ آيَـةٍ لِتَسْـحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**)

فموسى (عليه السلام) لا يـزال عنـدهم ذلك السـاحر العليم الذي يعرف كل وسائل السحر ، وهدفه ليس هداية البشر بل تسـخير النـاس لأهدافه الخاصّـة ، لـذلك فهم مصرّون على الكفر به ، وبآياته أنى كانت واضحة.

وهذه المرحلة السحيقة من الكفر هي أخطر دركـات السقوط ، حيث يصنع الفـرد لنفسه تابوتا من المسـلمات الفكرية ويصـمم على الاحتفـاظ بها أنّى كـان الثمن ، إنه عين الضلالة وقمة التعصب الأحمق.

على الإنسـان أن يبقى أبـدا مفتـوح العين ، يقظ الضـمير ، نابه الـروح ، ولا يقتل وجدانه تحت مطرقة شـهواته ، ولا يعمي عينه بمسـامير بغضه وحقـده ، ولا يميت ضميره

بحب أو بغض.

إن كثـيرا منا يــزعم انه إذا فتح عينه مــرة واحــدة ، واتّخذ طريقا لنفسه يســتطيع أن يبقى على ذات الطريق الى الأبد ، ويستغني عن عينه ، ولكن كلا .. إن عقل الفرد يتكامل ، وروحه تكــبر حــتى تتسع لمزيد من الحقــائق ، وفكــره ينمو ، والعــالم يتغـير ، وآيـات الحقيقة تـترى .. ولـذلك فعلى الإنسـان أن يبقى أبـدا على يقظة وانتبـاه ، ويستغل كلما لديه من وسائل اكتشـاف الحقيقة من عقل وضمير.

[133] ولأن آل فرعون افقدوا أنفسهم نعمة البصيرة ، واختاروا التفسير الخـاطئ لكل الحـوادث ، فـان الآيـات المختلفة الـتي تـوالت عليهم لم تــزدهم إلّا رســوخا في الكفر ، وتــوغلا في الجحــود ، لــذلك أرسل الله عليهم الطوفــان ففاضت أوديتهم حــتى دخل المــاء بيــوتهم ، فنصبوا الخيام في الصحراء ، ثم أرسل الله عليهم الجـراد فــــأكلت محاصــــيلهم الزراعية ، وانتشر فيهم القمّل ، والحشـرات ، والضـفادع الـتي توالـدت بسـرعة في بـرك الماء المكونة من الفيضـانات ، وابتلـوا بالـدم ربما بسـبب الرعــاف أو بعض الأمــراض الآتية بســبب بعض الجــراثيم (كما قــــال بعض المفســــرين) ولكن كل ذلك لم ينفعهم علما وهدى.

(**فَأَرْسَــلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفــانَ وَالْجَــرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا**)

وتعــالوا عن الحقيقة ، وزعمــوا أن ذواتهم هي أعلى من الحقيقة ، وأرادوا تغيير قوانين الكون حسب أهوائهم ، لا تزكية ذواتهم حسب أنظمة الكون.

(**وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ**)

حيث انهم ظلموا أنفسهم باســتكبارهم عن الحقيقة ، إن تقدم البشر في أي حقل

من حقــول الحيــاة انما هو رهن بمعرفة أنظمة الكــون ، واســتغلال هـذه المعرفة من أجل تسـخير الحيـاة ، وتبـدأ مســيرة البشر القهقــرى حين يســتهين بهــذه الأنظمة ، ويتعالى عنها فيظلم نفسه بذلك.

كذب واستكبار :

[134] ولقد أتمّ الله حجّته على آل فرعـــــــون بتلك المصائب التي تــوالت عليهم ، إذ ان البلاء يكشف الحجب الكثيفة الــــتي يجعلها الفـــرد على عينيه مثل : التعصب ، والحقد ، والحب المفرط ، ولكن إذا انكشف البلاء عــادت الحجب ، وعادت مشكلة الجحود.

(**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ**)

وهو العـذاب الآتي بســبب الانحــراف ، والشــذوذ في الطبيعة أو في السلوك.

(**قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ**)

إن نظرتهم المادية الضيقة لم تزل لاصقة بأذهــانهم ، إذ انهم لا يزالون يزعمـون أن الهـدف من بعثة موسى هو الانتفــاع من وجــوده في كشف الضر عنهم ، ولم يفقهــوا دور المعنويــات في حيــاة البشر ، وأن رســالات الله تنفع البشر في رفع معنويــاتهم ، ووضع بـــرامج صــائبة لهم ، وليس فقط في دفع البلاء الذي يصيبهم بســوء أعمـالهم ، أما آل فرعون فقد كانت نظرتهم الى الدين والى حــاملي رسالته كنظرة كثير منا حيث نريد الدين لمصــالحنا الذاتية لذلك قالوا :

(**لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ**)

والرجز يكشــفه الله بالتوبة والعمل الصــالح ، ولكنهم نسبوا الأمر الى موسى (عليه السلام) لقصر نظرهم.

(**لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ**)

[135] ولكن هل كانوا يصدقون؟ كلا ..

(**فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْـزَ إِلى أَجَـلٍ هُمْ بـالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ**)

عهدهم ويعودون الى سابق كفرهم وجحـودهم ، وعند ذاك تكتمل حجة الله عليهم ، إذ لا يمكنهم في يـــــــوم الانتقام التعلل بأنهم إنما كفروا غفلة أو جهلا ، فقد عرفوا الحقيقة ولجـؤوا إليها ، وتعهـدوا بالوفـاء لها عند ما أحـاط بهم البلاء ، والآن ينقضــون العهد ، وهــذه التجربة يمر بها كل فــرد وكل مجتمع ، حيث إن الله ســبحانه يأخذ البشر بالبأســاء والضــراء لكي يرفع عن أنفســهم حجب الغفلة والنســيان ، ولكي يحتج عليهم لو عـــادوا الى الكفر بعد الايمان في أوقات العسرة.

سوء المصير :

[136] وحان ميعاد الانتقام ، وأغـرق الله آل فرعـون في البحر بسبب تكذيبهم بآيـات الله ، وبالتـالي بالحقـائق الـــتي وراءها ، وبســـبب غفلتهم عنها وعن دورها في سعادتهم وخلافتهم.

(**فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنـــاهُمْ فِي الْيَمِّ بِـــأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ**)

[137] وكما انتقم الله من آل فرعون لتكذيبهم بآيات الله ، أنعم الله على بني إسرائيل لتصديقهم بها ، وأورثهم الأرض المباركة ذات الخيرات الوفيرة.

(**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ**)

ويقهرون من قبل فرعـون وقومه ، وهم بنو إسـرائيل ، أورثهم الله.

(**مَشـــــــارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى**

(**بَنِي إِسْرائِيلَ**)

كل ذلك بسـبب تصـديقهم بالحقيقة تصـديقا نظريا وعمليا ، والشاهد على تصديق بـني إسـرائيل بالحقيقة هو صبرهم واستقامتهم.

(**بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**)

من خزف ، وصور ، وأسلحة ، وأدوات ، وأمتعة .. و.. و..

(**وَما كانُوا يَعْرِشُونَ**)

من بنايـات فخمة ، وحـدائق ، وحقـول ، وتماثيل ، وبالتالي دمّر الله أموالهم المنقولة وغـير المنقولة بسـبب كفرهم ، وهكذا ينتقم الله للحقيقة.

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْـــرائِيلَ الْبَحْـــرَ فَـــأَتَوْا عَلى قَـــوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قـالُوا يا مُوسَـى اجْعَـلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هـؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيـهِ وَباطِـلٌ ما كـانُوا يَعْمَلُـونَ (139) قالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهـاً وَهُـوَ فَضَّـلَكُمْ عَلَى الْعـــالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنـــاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـــوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

بنو إسرائيل والردة الجاهلية

هدى من الآيات :

أفضل ساعات البشر وخير أيامه إيمانا وهدى هي ساعة عسرته ، ويوم بؤسه ، لأنه لا يستكبر هنالك على الحقيقة ، ولا يغتر بما لديه من قوة ومنعة ، وكذلك أفضل مراحل الأمة هي مراحل الثورة حيث تتعرض للضغوط وتتحدى الصعاب.

وبنو إسرائيل حين تعرضهم للاستضعاف من قبل آل فرعون وقومه استقاموا على الطريقة وصبروا ، ولكن بعد أن أنجاهم الله ، وأورثهم الأرض دفعهم ضعفهم السابق وذلتهم الى محاولة تقليد الآخرين في عبادة الأصنام وفي مظاهر الدنيا ، فحين أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، طلبوا من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنما كما لأولئك القوم ، فذكرهم موسى بأنه لا مستقبل لعبدة الأصنام ، وأن عملهم باطل ، وانه كيف يبحث لهم عن إله غير الله وهو فضلهم على العالمين ، بما أنعم عليهم من التوحيد والنصر ، ثم ذكرهم أيامهم السابقة ، حيث كانوا يتعرضون لأنواع العذاب على يد فرعون ، ومنها تقتيل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، وأن ذلك

كـان بلاء عظيما ، وتزكية لنفوسـهم ، وحين أنجـاهم الله يعودون للكفر.

ويمكننا أن نسـتلهم من هـذه القصة كيف أن الأمم تفسد بعد الإصـلاح ، وكيف أن التوجيه ينفعها ، وأنّ السقوط ليس سنة حتمية.

بينات من الآيات :

الكفر بعد الايمان :

[138] هيّأ الله أسـباب النجـاة لبـني إسـرائيل ، تلك الأمة الفتية التي تسـتعد الآن لبنـاء حضـارتها بعد تخلصـها من سلطة الطاغوت ، فتركوا أرض مصر باتجاه فلسطين بعد أن هيأ الله لهم أسـباب العبـور على البحر ، وقبل أن تجف أقدامهم من آثار العبور أصيبوا بنكسة إيمانية ، حيث مرّوا على قوم يعبدون أصناما لهم فطـالبوا موسى (عليه السلام) وهو رسولهم وقائد مسـيرتهم باتخـاذ إله لهم كما لأولئك القوم.

(**وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْـرَ فَـأَتَوْا عَلى قَـوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قـالُوا يا مُوسَـى اجْعَـلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ**)

إن بـني إسـرائيل كـانوا يعيشـون تحت سـيطرة الطـاغوت سياسـيا وثقافيا ، وكـانت علاقـاتهم الاقتصـادية ببعضـهم منسـوجة حسب تلك السـيطرة ، وقـام موسى (عليه السلام) والمؤمنون من أصحابه بتفجير ثلاث ثورات متتالية لانقاذ قومه من السيطرة ـ السياسية ، فالثقافية ، فالاقتصـادية ـ (وقد سـبق الحـديث عن ذلك في تفسـير سورة البقرة) ويبـدو أن هـذه المرحلة هي مرحلة الثقافة الـتي تحمل أيضا في طياتها تصـفية آثـار السـيطرة السياسية أيضا.

إن قـوم موسى عاشـوا ردحا طـويلا من الـزمن وهم يعـانون الـذل والخضـوع والاستسـلام للآخـرين ، وكـانت السياسة الطاغوتية لفرعون هي التي فرضت عليهم

هذه الحالة ، ولكنهم على أيّ حال تأثروا بها نفسيا ، فحين أنقذهم الله غيبيا بقيت آثار تلك السيطرة عالقة بنفوسهم ، ولم يقدروا على ممارسة حريتهم والحضور في ساحات الحياة ، واتخاذ القرارات المناسبة فيها اعتمادا على أنفسهم ، لذلك حنّوا الى حالتهم السابقة فطالبوا موسى باله ـــ كما لهم آلهة ـــ والإله هو السلطان الاجتماعي والسياسي والثقافي ، ورمز هذا الإله هو الصنم ، وبنو إسرائيل في هذه الصفة كانوا تماما مثل الشعوب التي تتحرر من الاستعمار السياسي ، ولكنها تقلد الغرب والشرق في أنظمتها وثقافتها ، وكأنها تخرج من الاستعمار القسري وتعود الى الاستعمار اختياريا ، وذلك لاستمرار قابلية الاستعمار في أنفسهم.

أما موسى (عليه السلام) فقد شرح لقومه أولا العامل الداخلي لهذا الطلب وهو الجهل وقلة الوعي.

(**قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**)

[139] وبين لهم ثانيا : ان وضع هؤلاء هالك ولا دوام له ولا استمرار ، إذ أن الوضع الفاسد لا يملك رصيدا واقعيا ، كشجرة مجتثة من فوق الأرض ، ظاهرها شجرة ، وواقعها حطبة.

وبين ثالثا : أن العمل الذي يقوم به الإنسان في اطار النظام الفاسد هو عمل باطل ، وينتهي الى الدمار حتى ولو كان ظاهر العمل حسنا ، مثلا : ظاهر البناء أنه عمل جيد ، ولكن إذا كان المهندسون والبناؤون ومصانع الحديد ومعامل الاسمنت كلها تعمل من أجل بناء معتقل أو قاعدة صاروخية تقذف المستضعفين فان هذا العمل تخريب وليس بناء ، كذلك كل عمل لا يكون ضمن اطار صالح أو هدف مقدس فانه باطل وينتهي ، لذلك قال موسى (عليه السلام) لقومه :

(**إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

العبودية لله تحرر الإنسان :

[140] ثم بعد أن وضح فساد الوضع الذي يدعون اليه ، شرح لهم موسى بأن الرب الذي أنقذهم من سلطان فرعون ، وحررهم من الطاغوت خير لهم مما يدعون اليه.

(**قالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ**)

إن الله فضلهم بالحرية والعلم ، وأن يقودوا أنفسهم بعيد عن ضغوط الطاغوت ، وهم يريدون العودة الى العبودية.

إن البشر حين ينفي الوهية أيّ شيء أو أيّ شخص من دون الله سبحانه فسوف يكون محررا ، مسلطا على نفسه بقدر ما يأذن الله له.

[141] والله سبحانه هو الذي أنجاهم من آل فرعون وبطشهم وقهرهم بالتوحيد ، وإن فكرة التوحيد التي أنقذتهم من تلك الورطة ، أولى بالاتباع من تلك الثقافات الجاهلية التي سهلت استعبادهم واستغلالهم.

(**وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ**)

أي يحمّلونكم الإرهاب والعذاب.

(**يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**)

وهل هناك نعمة أفضل من التحرر من إرهاب الطاغوت وسيطرته ، وكم يكون البشر غبيا لو أراد العودة الى العبودية بعد الحرية ، والتعاسة والبؤس بعد الرفاه والراحة.

إن استمرار حالة الثورة الـتي رافقت نجـاة الأمة من الطاغوت هو أفضل وسـيلة للخلاص من عوامل الانتكـاس في الثـورة ، وهـذا ممكن مع تـذكر أيـام الطـاغوت وكيف تغيرت.

وَواعَــدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَــةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْــرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقـالَ مُوسى لِأَخِيـهِ هـارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَـــوْمِي وَأَصْـــلِحْ وَلا تَتَّبِـــعْ سَـــبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جـاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَـهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْـكَ قـالَ لَنْ تَـرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْـتَقَرَّ مَكانَـهُ فَسَـوْفَ تَـرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَـهُ دَكًّا وَخَـرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفـــاقَ قـــالَ سُـــبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْـــكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي

---

142 [ميقات] : الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدّر ليعمل فيه عمل من الأعمال ، والوقت الشيء قدره ولذلك قيل مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للإحرام فيها.

143 [تجلى] : التجلي الظهور ، ويكون تارة بالظهور وتارة بالدلالة.
[صعيقا] : مغشيا عليه.

وَبِكَلامِي فَخُـذْ ما آتَيْتُـكَ وَكُنْ مِنَ الشَّـاكِرِينَ (144)
وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَـنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145)

---

145 [الألواح] : اللوح صحيفة مهيأة للكتابة فيها.

تنمية روح الايمان بالله

هدى من الآيات :

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة لميقاته ، وذهب موسى الى الميقــات بعد أن وصّــى أخــاه هــارون تلك الوصــايا المؤكدة ، الـتي كـان الرسل (عليهم السـلام) يوصـون بها قومهم باتبـاع سـبيل الإصـلاح ، وتـرك سـبل المفسـدين ، وجـاء موسى لميقـات ربه وهو يحمل رجـاء قومه بـالنظر الى الله ، فلما كشف لربه عن هذا الطلب الغـريب النـابع عن جهل الناس بالله وبصفاته الحسنى ، أمره ربه بالنظر الى الجبل فــان اســتقر مكانه فقد يكــون لكلامه وجه ، ولكن الجبل تدكدك وخرّ موسى صــعقا ، وأغمي عليه من هول المنظر ، ولما أفاق قال سبحانك أنت منزه عن هــذا الطلب وأنا أول المؤمــــنين بك ، وربما كــــانت تلك هي البداية الظاهرة للثورة الثقافية الـتي يقـوم به الرسل بعد وقبل الســيطرة على الســلطة ، حيث إن الله ســبحانه أوحى الى موسى (عليه السلام) برسالاته ، وأنه كلّمه من دون الناس تكليما ، وأن عليه أن يأخذها بقــوة ، وان يمتلأ قلبه رضا بها وشكرا ، حتى يدافع عنها بكل قوة.

وكتب الله لموسى في تلك الألــواح الــتي أنزلها ما ينفع النـاس من كل شـيء ، وفي كل حقل ، وذلك بهـدف تزكية الناس ، وبيان تشـريع مفصل لهم ، وأمـره بالـدفاع عن هــذه الرســالة ، وأن يبلغها قومه حسب الظـــروف المختلفة ، ففي كل ظــــــرف يعملــــــون بأحسن ما في الرسالة ، وأكثرها تطبيقا على ذلك الظـرف ، وحـذّره من الفسق وعدم تطبيق بنود الرسالة ، وقال له سـأريكم دار الفاسقين.

بينات من الآيات :

حكمة الغيبة :

[142] مع انتصــــــار بــــــني إســــــرائيل تلك الفئة المستضـعفة الـتي آمنت بموسى وبرسـالته الاجتماعية ، ازداد تعلق الجماهير بقائدهم موسى (عليه السـلام) تعلقا شخصـيا ، وكـان من الضـروري تحـول هـذه العلاقة من شخص موسى (عليه السلام) الى رسـالته وقيمه ليسـتمر خطه من بعـده وربما لـذلك غـاب موسى (عليه السـلام) بـأمر من ربه عن قومه أربعين ليلة ، وكـانت غنية ـــ كما سيأتي في الدرس القادم ـ بامتحان عسير لقومه ، كشف ما بهم من نقــــاط ضــــعف ثقافية واجتماعية ، وأعطى لموسى (عليه السلام) فرصة كافية لتربيتهم وهدايتهم.

(**وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ**)

وســيأتي في الــدروس القادمة حكمة إتمــام الثلاثين بعشر.

(**فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**)

أما وصية موسى (عليه السلام) لخليفته وأخيه هارون فكانت هي ضرورة المحافظة على الإصلاح.

(**وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَـوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ**

الْمُفْسِدِينَ)

لقد ســبق الحــديث عن أن الأمم في بداية انطلاقها تهتم بالبنــاء والانتــاج والإصــلاح ، أما بعدئذ فانها تقــوم بالاستهلاك والهدم والفساد ، وعنـدها كـان الرسل (عليهم السلام) يحذرون الناس من الفساد ، فأوصى موسى أخاه بهـذه الوصـية عند ما تخلص بنو إسـرائيل من الطـاغوت ، وخفّ عندهم شعورهم الثوري السابق.

ويتــبين من الآية كما من ســائر الآيــات : أن قــوم موسى (عليه السلام) كانوا فريقين ، مصلحين ومفسـدين ، وكانت تجربة غياب قائدهم ومنقـذهم كافية لفـرز هـذين الفــريقين ، وبالتــالي تزكية المجتمع عن طريق تصــفية فريق المفسدين.

من أين تبدأ الثورة الثقافية؟

[143] لا يزال بنو إسرائيل تلك الطائفة الـتي عاشت فترة طويلة في ظل الطاغوت ، وتعرضت لعمليات غسل الـدماغ من قبل السـلطة الظالمة ، لا تـزال هـذه الطائفة تحمل رواسب الماضي بعد تحررها ، ولا بـــدّ من تفجــير ثورة ثقافية فيها ، ولكن من أين تبدأ هذه الثورة؟

الثورة تبدأ من إصلاح جذر مشـكلة الثقافة عند البشر ، حيث إن الإنسـان يحن نحو الماديـات الظـاهرة ، وينسى المعنويـــــات ، ويغفل عن الغيب ، يغفل عن غيب القيم ، وعن قــدرة الله وحكمته ورحمته ، يغفل عن المســتقبل وما فيه من امكانيـات ، ويلتجئ الى الظـواهر في الحاضر ، الى ما يشاهده من قوة السلطة الجبارة ، وما يــراه من امكاناته الحالية ، فيخضع لها ، ويستسلم لاتجاهها.

ورســالات السـماء توجه النــاس الى الله ، الى غيب الغيــوب ، الى ملهم القيم ومالك المســتقبل ، الى مبعث الأمل المشرق ، وإذا تعلق الإنسان بالله (الغيب) فانه

يتخلص من كل رواسب الثقافة المادية ، لـــذلك بـــدأ الله في إصـلاح قـوم موسى (عليه السـلام) انطلاقا من هـذه النقطة ، حيث كـان قـوم موسى يلحـون عليه بـأن يـريهم ربهم ومرة قالوا له : (**اجْعَـلْ لَنا إِلهـاً كَما لَهُمْ آلِهَـةٌ**) ، ومـرة صـنعوا لأنفسـهم عجلا وزعمـوا انه هو إله موسى وهكـذا ، لـذلك راح موسى يـدعو الله أن يريه نفسه وهو يعلم ان الله لا يرى.

(**وَلَمَّا جـاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَـهُ رَبُّهُ قـالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُـرْ إِلَيْـكَ قـالَ لَنْ تَـرانِي وَلكِنِ انْظُـرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَـهُ فَسَوْفَ تَـرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً**)

هدف المعجزة :

هناك فكرة تقول : بأن كثيرا من طلبـات الرسل ، بل وكثـيرا من أوامر الله لهم ، تهـدف تبليغ الرسـالة بطريقة صـارخة ، حين أمر الله نبيه إبـراهيم (عليه السـلام) بـذبح ابنه كـــــانت الحكمة من وراء ذلك نسخ عـــــادة جاهلية معروفة آنئذ وهي ذبح الأبنـاء لله أو للأصـنام ، ولكن حين أمر إبــراهيم بــذبح ابنه ولم تعمل السـكين ، كـانت تلك المعجـزة أبلغ أمـرا في النفـوس ، وأقـدر على نسخ هـذه العـادة من الموعظة الكلامية ، وكـذلك حين طلب موسى (عليه السلام) من ربه بـأن ينظر اليه ، كـانت دعوته هـذه بهدف صنع واقعة عينيّة تـذهب مثلا في الآفـاق ، وتتناقلها الألسن ، حتى تنـتزع من النفـوس جـذور المادية ، ولـذلك طلب موسى (عليه الســـلام) المســـتحيل وهو رؤية ربه وتجلى الله للجبل وجعله دكا متهاويا على نفسه ، ووقع موسى مغشيا عليه.

(**فَلَمَّا أَفـاقَ قـالَ سُـبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْـكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**)

ويبقى الســؤال : ما هي مناســبة انــدكاك الجبل مع استحالة النظر الى الله؟

والجـواب : أن قـدرة الإنسـان محـدودة بشـكل انه لا يتحمل رؤية جبل يندك ، وهو

أهون شـيء في مـيزان قـدرات الله سـبحانه الـتي لا تحد فكيف يرى الله؟ وينظر اليه؟ وهو مبعث القـدرة والحكمة والرحمة والعظمة و.. و.. وبالتالي الأسماء الـتي لا تعد ولا تحصى ، فكيف يـراه البشر المحـدود. الـذي يتنـاهى في ضعفه ومحدوديته؟ (سبحان الله)؟!

[144] وحين ترسو قاعـــدة التوحيد الراســـخة على أساس الايمان بالغيب ، فان بناء الثقافة الأصيلة والتشريع السـليم سـيكون قويا ورفيعا ، لـذلك فـان ربنا أوحى الى موسى (عليه الســـلام) برســـالاته الـــتي تمثل الثقافة والتشريع.

(**قـــالَ يا مُوسى إِنِّي اصْـــطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي**)

وعبر الرسالة اصطفى الله القيادة السـليمة المبدئية الـتي تجسد الولاية الالهية في الأرض ، وميّز هـذه القيـادة بكلامه ســـــبحانه المباشر لها ، ولكنه أمر موسى (عليه الســـلام) في المقابل بحراسة رســـالاته ، والعمل بها ، والشـــــهادة لها ، وأيضا الاطمئنـــان إليها والرضا بها ، والاحساس بأنها نعمة كبيرة يجب ألّا يفرط بها أبدا.

(**فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)

محتوى رسالات الله :

[145] ما ذا كان في رسالات الله وكتبه؟

كـــان فيها أولا : رســـالة متكاملة بالنســـبة الى كافة شؤون الحياة في الثقافة والسياسة والاقتصاد و.. و..

(**وَكَتَبْنا لَـهُ فِي الْأَلْـواحِ مِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ مَوْعِظَـةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ**)

ثانيا : كـان في الكتب موعظة لتزكية نفـوس البشر ، واثارة عقولهم ، واستجلاء

فطرتهم.
ثالثا : كان فيها تشريع مفصل للحيـاة ، ولتلك السـبل التي يهتدي إليها العقل والفطرة.
(**فَخُذْها بِقُوَّةٍ**)
أيّ اتبعها وأنت قوي الارادة ، لتتحـدى الضـغوط الـتي تترى عليك من اتباع هذه الرسالة من لدن ذاتك وشهواتك ، أو من جانب المجتمع المحيط بك.
إن أهم مـيزة في القيـادة هي : الثقة بالرسـالة الـتي تحملها ، والاعتماد عليها ، مما يستقطب ثقة الجمـاهير بها وبالرسالة.
أما الجماهير فان اتباعها لتلك المنـاهج لا يكـون اتباعا أعمى ، بل سوف يكـون اتباعا واعيا بعد دراسة الظـروف المحيطة بها ، ليعرفـــوا أيّ منهج هو الأقـــوم في هـــذا الظرف أو ذاك ، وكـذلك بعد دراسة الحكم ذاته وهل جـاء دائما أو خاصا بظرف معين؟
(**وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها**)
ان تقـــييم الأحسن من الحسن إنما هو وظيفة الأمة ، ومن هنا يدخل الوعي والعقل في الساحة.
(**سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ**)
الذين لا يتبعـون الأحكـام الشـرعية كلها ، فـان دارهم ستكون مهدمة على رؤوسهم ، وتلك عبرة كافية لكم بـألا تعصوا ربكم في مناهجه.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غـافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقـاءِ الْآخِـرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147)

كيف يضل المتكبّر؟

هدى من الآيات :

انها آيـــات الله الكريمة الـــتي أوحى بها الى موسى (عليه الســلام) ، إنها كــانت وســيلة لاختيــار الله موسى (عليه السلام) قائدا وإماما لقومه ، بيد أن الله حـذّر قــوم موسى من التهاون في الأخذ بدساتير الله ، وحذرهم بــأن ذلك سيهدم دار الفاسقين الذين يعصون أوامر الله ، وبيّن في هاتين الآيتين ان الفسق قد يكون شخصـيا فيهـدم دار الفاسق ، وقد يكـــون اجتماعيا فانه ســـوف يســـبب في الهلاك وحبط الأعمـــال ، والفسق الاجتمـــاعي يتمثل في هدف المجتمع ككل ، إذا كان هـدفا بـاطلا نابعا من التكـبر بغـير حق ، ومحاولة السـيطرة على الآخـرين ، إذ ان ذلك ســـوف يســـبب في الكفر بالآيـــات ، وقلب المقـــاييس الفطرية ، حتى يصـبح الرشد غيا عنـدهم ، والغي رشـدا ، كل ذلك بسبب التكذيب بآيات الله والغفلة عنها.

هذا من الناحية الفطرية ، أما من الناحية العملية فان أعمال هؤلاء تحبط ولا تنفع شيئا ، لأنها تسـير في الاتجـاه الباطل ، حتى ولو كان العمل صحيحا من الناحية

الجزئية ، إلّا أنه بسبب وقوعه في سلسلة الأعمال الخاطئة والفاسدة ، فان تلك الأعمال سوف تغطي على حسنات هذا العمل الجزئي ، كما أنه لو كانت مجمل أعمال الفرد أو المجتمع صحيحة فان هفواته الجزئية تغفر له ، لأن الحسنات يذهبن السيئات.

بينات من الآيات :

طريق الانحدار :

[146] كما السيارة إذا وضعت في طريق منحرف تعمل كل أجزائها في ذلك المسير وبصورة منحرفة ، حتى إذا كانت سليمة بحد ذاتها وغير معطبة ، كذلك المجتمع إذا توجه نحو تطلعات خاطئة ، فان كل أعضائه تعمل في ذلك الطريق وبصورة خاطئة.

التطلع السليم للمجتمع هو بناء ذاته ، والتعاون على الخير مع سائر المجتمعات ، أما إذا تكبر في الأرض ، وتطلع نحو استعباد الآخرين واستثمار طاقاتهم ، فانه ليس فقط ينحرف في هذه الجهة ، وفيما يخص علاقاته بالآخرين فحسب ، بل سوف ينحرف بكل أبعاده حتى فيما يتصل بعلاقاته الداخلية ، ذلك لأن الله لم يجعل في جوف الناس قلبين ، إنما هو قلب واحد فاذا كان متكبرا باحثا عن المجد الذاتي ، متخذا نفسه وليس الحق محورا ومعيارا ، فان كل تصرفاته ستكون مصبوغة بصبغة التكبر.

لذلك لا يكون الفرد مؤمنا وعاملا بآيات الله ورسالاته إذا تطلع نحو استعباد الآخرين ، وتكبر في الأرض بغير الحق ، وأراد أن يتعالى بما لا يحق له.

(**سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ**)

يبدو لي : أن كلمة الآيات هنا تعني الآيـات التشـريعية حسب السياق ، حيث كان الحديث في الآية السابقة حول رسالات الله وكلامه.

(**وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها**)

والآية هنا ـ حسبما يبدو لي ـ تعني الآية التكوينية مثل المعاجز ، وعبر التاريخ ، والتطـورات الـتي تـبيّن الحقـائق وهكـذا لان القلب المتكـبر لا يبحث عن الحقيقة ، بل عما يخــدم ذاته ، ويشــبع غــروره ، ولــذلك فهو لا يلتفت الى الحقــائق ولا يهتم أو يــؤمن بها حــتى إذا رآها رأي العين ، وهو كـذلك لا يبحث عن الطريق السـديد لأنه قد انحــرف بوعي وإصرار.

(**وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْـدِ لا يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً**)

إنهم منحرفون ولذلك فهم يبحثون عما هو منحرف.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ**)

إن تكــذيبهم الأول بآيــات الله جعلهم ينصــرفون عن الحقــائق ، ويغفلــون عن أهمية الآيــات التشــريعية ، إن البشر ينحـرف أول ما ينحـرف بسـبب اختيـاره السـيء ، ولكنه ينحدر بعدئذ نحو الكفر والجحود بصـورة أقـرب الى اللااختيار ..

العاقبة في الحقل العملي :

[147] تلك كـانت عاقبة المتكـبرين الفكرية : أنهم لا يهتــدون الى الحقيقة لا عن طريق رســالات الله الــتي يصرفون عنها ، ولا عن طريق الحقـائق والعـبر الواقعية ، أما عاقبة المتكـبرين العملية فهي : أن أعمـالهم الصـالحة تحبط بسبب أعمالهم السيّئة ، والتي تكوّن اســتراتيجيتهم الأصلية دون تلك.

(**وَالَّذِينَ كَـــذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقــــاءِ الْآخِــــرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**)

لان الخط العـام لحيـاتهم خط منحـرف ، لـذلك فـان العمل الجزئي لم ينفعهم شيئا ، بل سوف يحبط ولا يؤدي مفعوله ، والواقع أن سبب حبط العمل ليس عدم إيمانهم فقط ، بل لأن عـدم الايمـان يـؤدي بهم الى سلسـلة من الانحرافات العملية التي تكون هي السـبب لحبط العمل ، لذلك قال ربنا سبحانه :

(**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَـداً لَهُ خُـوارٌ أَلَمْ يَـرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْـدِيهِمْ سَـبِيلاً اتَّخَـذُوهُ وَكـانُوا ظـالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُـقِطَ فِي أَيْـدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَـدْ ضَـلُّوا قـالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِـرْ لَنا لَنَكُـونَنَّ مِنَ الْخاسِـرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِـهِ غَضْـبانَ أَسِـفاً قـالَ بِئْسَـما خَلَفْتُمُـونِي مِنْ بَعْـدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْـرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُـرُّهُ إِلَيْـهِ قـالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قـالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

---

148 [حليّهم] : الحلي ما اتخذ للزينة من الذهب والفضة.

149 [سقط في أيديهم] : وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجـدان من يده فيه.

الـرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا الْعِجْـلَ سَـيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْـزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

عجل السامري

ورواسب الجاهلية الفرعونية

هدى من الآيات :

وابتلي قـــوم موسى في غيابه لمناجـــاة ربه بالعجل ، حيث اتخـــذوا عجلا مصـــنوعا من حليهم وذهبهم إلها ، لقد كـــان جســـدا له خـــوار وزعم الســـامري انه إلههم ، ولم يعرفوا أن الرب هو الذي يهدي الناس الى سبل الســعادة ، وهذا العجل لا يفعل ذلك ، وهكذا ظلمـوا أنفسـهم وحين انكشفت لهم الحقيقة ندموا وعرفـوا مـدى الضـلالة الـتي وقعـــوا فيها قـــالوا : (**لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِـــرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ**) ، وهـذا الـدعاء يكشف ان قـوم موسى تجاوزوا مرحلة الصنمية بعد التوبة.

وعند ما عـاد موسى (عليه الســلام) من مناجــاة ربه غضب ، وكـان آسـفا كيف عبد قومه العجل ونـادى فيهم ، بئســما خلفتمـوني من بعـدي ، أهكـذا ينقلب النـاس بعد غياب قـادتهم ، وألقى موسى الألـواح الـتي كـانت برفقته وفيها رســالات الله ، ألقاها جانبا لأنها لا تنفع قوما تركــوا الايمـــان الى الشـــرك ، وأخذ بـــرأس أخيه هـــارون وهو يستفسر منه الوضع ، ويســحبه من ذلك القــوم الضــال ، ولكن هارون (عليه السلام)

وضح له الحقيقة وهي : أن قومه استضـــــعفوه ، وأنهم همّوا بقتله ، ولـذلك فهو أنقـاهم حـتى يعـود موسى (عليه السلام) وطلب هـارون من أخيه بـألا يشـمت به الأعـداء ، ولا يجعلهم يفرحون بمعاملة موسى لأخيه المعارض لهم ، كما طالبه بألا يفسر سـكوته الظـاهر بأنه نـابع من رضـاه بالوضع ، كلا .. بل إنه كـان سـكوتا غاضـبا بانتظـار الفـرج القريب.

بينات من الآيات :

لماذا العجل؟

[148] لماذا عبد بنو إسـرائيل في غيـاب موسى الى الطور العجل ، واتخذوه إلههم؟

يبـدو أن رواسب الجاهلية الفرعونية الـتي عـاش بنو إسرائيل في ظلها قرونا ، والـتي كـانت تعبد العجل وتتخذ منه رمزا للرخاء الزراعي ، إنها كانت السـبب في صـناعة العجل ، إلّا أن الحلي من الذهب والفضة كانت مادة لهذه الصـناعة ، لأن بـني إسـرائيل حين رحلـوا عن أرض مصر حملوا معهم حليهم ، وكـانوا يعـتزون بها باعتبارها الرصـيد الاقتصـادي الوحيد الـذي كـانوا يملكونه ، فحين ظهـرت رواسب الجاهلية الكامنة على السطح ، صنعوا من الحلي عجلا ، فهم في الواقع كـانوا يعبـدون الـذهب والفضة والرخاء باعتبـار ان شـكل العجل يـدل على ذلك الرخـاء ، وباعتبار أن العجل صنع من الحلي.

وهكـذا دلّت الحادثة على ان التحـول السياسي الـذي حدث في بني إسرائيل لم ينعكس على ثقـافتهم ، وكـانوا يحتـاجون الى ابتلاء ليظهر واقعهم فيعالجه المصـلحون ، وربما لـذلك واعد ربنا موسى ثلاثين يوما ثم أضـاف إليها عشرا حتى يكون الجو مهيئا للسامري بـأن يشـيع نبأ كاذبا هو : أن موسى قد مات ، ويظهر واقع السامري وما كـان ينتظـره من مـوت موسى ليخـرج بدعته ، وهكـذا وقع السامري في المصيدة المنصوبة.

(**وَاتَّخَـذَ قَـوْمُ مُوسى مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ**)

الخوار : صوت الثور ، وربما كـان السـامري قد صـنع جسد العجل وهيكله بطريقة معينة بحيث كـــان يخـــور إذا دخل فيه الريح ، أو كـانت القبضة الـتي أخـذها السـامري من أثر الرسول هي التي جعلت العجل يخور.

(**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً**)

بينما الله كـــان يكلم موسى تكليما ، وقد فصّـــل له ولقومه رسالاته التي تهديهم سبل السلام.

(**اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ**)

وأيّ ظلم أكبر من الشرك بالله والـردّة بعد الايمـان ، إن عجل بني إسرائيل كان مثلا للقيادة الباطلة الـتي كـان السامري يسـعى من أجلها ، لقد كـان العجل يخـور ـ كما القيادات الباطلة تنطق بما لا يهـدي سـبيلا ، وبما لا يوضح علما حقيقيا ـ وكـان جسـدا هيكلا ولكن بلا روح ، كـذلك القيادات الباطلة لا تعطي الأمة روحا معنوية.

[149] وجـــاء موسى (عليه الســـلام) ، وانفضـــحت الكذبة الكبرى الـتي اعتمـدتها الـردّة الجاهلية وهي مـوت موسى (عليه السلام) ، وندم الجميع وسقط في أيـديهم ، وظهـــرت الحقيقة المخفيّة وهي : أنهم قد ضـــلوا ، وآنئذ تابوا الى ربهم.

(**وَلَمَّا سُـقِطَ فِي أَيْـدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَـدْ ضَـلُّوا قـــالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِــرْ لَنا لَنَكُــونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

يبدو لي أن رحمة الله هنا متمثلة في هداية الله الـتي من دونها يبقى البشر في

الضلالة.

امتحان وفرز :

[150] كـانت عبـادة العجل امتحانا عسـيرا لقـوم موسى (عليه السلام) وتصـفية للعناصر الضـعيفة والخائنة في المجتمع الرسـالي الـذي ينبغي أن يقـود المجتمعـات الأخرى ، ويشهد عليها ، لذلك حين عـاد موسى الى قومه كان غضبان أسفا.

(**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً**)

يبدو لي ان الغضب هو الرفض الشـديد لشـيء ما مع القيام بعمل ما من أجل تغيـيره وإصـلاحه وتعويضه ، بينما الأسف هو : ردّ الفعل النفسي تجـاه حادثة سـابقة قد وقعت خطأ ، وموسى (عليه السلام) كان متأسفا لما وقع عليه قومه سـابقا من انحـراف وضـلالة ، وغاضـبا عليهم الآن لما هم فيه من نقص وقلّة فهم ووعي ..

(**قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي**)

لقد تركت وصيي كقائد لكم وكشاهد عليكم.

(**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**)

وأردتم الوصول اليه قبل ميعاده.

إن قـوم موسى كـانوا لا يزالـون في مرحلة الايمـان بالحضور والشهود لا بالمسـتقبل والغيب ، وهـذا كـان أحد العوامل لتسارعهم الى عبادة العجل باعتباره إله موسى ، كما كان السبب في طلب فريق منهم رؤية الله بأعينهم.

(**وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ**)

كــان موسى يحمل معه الألــواح الــتي فيها موعظة وهـدى ، فـاذا به يـرى قومه قد شـكّوا في أصل الربوبية فلـذلك ألقاها جانبا ، وأخذ يعـالج هـذه المشـكلة ، وبـدأ بسـؤال أخيه وخليفته باعتبـاره القائد عليهم من بعـده ، ولكن هارون (عليه السلام) أوضح له الحقيقة ..

(**قـالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَـوْمَ اسْتَضْـعَفُونِي وَكـادُوا يَقْتُلُـونَنِي فَلا تُشْـمِتْ بِيَ الْأَعْـداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَـعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

أي لم أكن أنا بنفسي قـــادرا على مقاومة الـــردة ، لأنهم أفقـدوني قـومي وجعلـوني ضـعيفا ، وجـردوني من أسلحتي ، ولذلك فقد كادوا يقتلونـني لو لا إنـني أمسـكت عنهم بانتظار عودتك ، وافتضاح كذبهم ، لذلك فمن الخطأ أن تحملني مسئولية عملهم أو تجعلني معهم.

[151] وهنا أدرك موسى حقيقة الأمر و..

(**قـالَ رَبِّ اغْفِـرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِـكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**)

ومـرة اخـري أعتقد أن أبـرز مظـاهر رحمة الله هي هدايته للإنسـان ، وان يعصـمه من أن يـزلّ في الظـروف الصعبة.

عاقبة عبّاد العجل :

[152] وتلك عاقبة الرافضـــين لعبـــادة العجل ، أما عاقبة المستســــلمين للعجل والراضـــين بعبادته فإنّه سيلحقهم غضب من الله ، يتمثل في ألوان العـذاب الآتية من حكم الطـاغوت ، وانحـراف المجتمع ، ومن نقص في بركـات الله تلك الــتي تـأتي من القيـادة السـليمة في المجتمع.

كما يصـاب هـؤلاء بذلة حيث إن انحـراف القيـادة من قيادة رسالية الى قيادة

صنمية تسـلب كرامة الإنسـان ، وتحوله الى أداة ذليلة بيد الأصنام البشرية الحاكمة.

(**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا الْعِجْـلَ سَـيَنالُهُمْ غَضَــبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**)

أيّ الــذين يكــذبون على الله افــتراء عليه ، والــذين يتخـذون طريقا خاطئا ويصـوّرونه لأنفسـهم طريقا سـليما سينالهم غضب من ربهم.

[153] أما إذا تــاب هــؤلاء الى ربهم ، وآمنــوا بالله إيمانا صادقا ، ولم يتركوا سيئة الى سيئة أخـرى ، مثل أن يــتركوا الرأســمالية بعد معرفة تناقضــها وانحرافها الى الشيوعية كلا .. إنما تركوا السيئة الى الصراط المسـتقيم ، أولئك يرحمهم الله.

(**وَالَّذِينَ عَمِلُــوا السَّــيِّئاتِ ثُمَّ تــابُوا مِنْ بَعْــدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

ربما يكون معنى كلمة (بعدها) أي إنه بعد انتهـاء آثـار السيئة الأولى سوف تأتي رحمة الله.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156)

عاقبة التقوى

في الدنيا وفي الآخرة

هدى من الآيات :

وعــادت الظــروف الطبيعية للأمة بعد ذلك الامتحــان العســير ، وعـاد الى موسى هـدوؤه بعد الغضب ، فـاذا به يأخذ الألواح ليقرأ فيها الهدى والرحمة.

حيث كانت تهدي الناس الى السبل الســليمة المؤدية الى رحمة الله ، والرحمة والهــدى يشــترط فيهما الرهبة والتقوى له سبحانه.

وهـذه الرهبة لا تـدخل قلب البشر لو لم يـؤمن ايمانا صادقا بالله ، والايمان الصادق لا يكـون الا بعد معرفة الله ـ في الغيب الذي لا تراه الأبصار ـ وكـان في قـوم موسى نزعة مادية ، لــذلك طــالب ممثلــوهم وهم ســبعون رجلا مختــارا ، طــالبوا موسى برؤية الله جهــرة ، فأخــذتهم الرجفة الشـديدة فصـرعتهم ، وتوسل موسى الى ربه أن يعيدهم وقال : ان هذا الطلب انما هو من الســفهاء ، وان هذا امتحان منك ، وانك رب الهداية ، وانك تضل من تشاء حين لا تريد هدايته ، وانك ولينا جميعا فـاغفر لنا ما سـلف من ذنوبنا ، وأنت ارحم الـــراحمين فـــانزل علينا رحمتك ونعمك.

ان الهدى الذي كان في كتاب الله لموسى كان يـدعو البشر الى الالـتزام بالخط المسـتقيم بين حاجـات الـدنيا وتطلعات الآخـرة ، لـذلك دعا موسى (عليه السـلام) بـأن يكتب الله لهم الحياة الحسنة في الدنيا والآخـرة. وهـذا لا يكـون الا بالتوجه الى الله ، وربنا الكـريم بيّن له أن عذابه انما هو من نصـيب من يشـاء ، واما رحمته فهي واسـعة ، وهي للذين يتقون ويزكون أنفسهم ويؤمنون بآيات الله.

بينات من الآيات :

حكمة الغضب :

[154] يصـــور القـــرآن الحكيم النـــبي موسى (عليه السلام) عبر آياته العديدة شخصـية سـريعة الغضب ، مما يطـرح هـذا السـؤال : هل كـان موسى فعلا كـذلك أم ان ظروفه كانت تستدعي ذلـك؟ بحيث لو وضـعنا أيـوب مثل الصبر والهدوء في مكانه لكان يفعل ذلك أيضا؟

الواقع : ان بـــني إســـرائيل كـــانت امة مستضـــعفة اعتادت الـذل والهـوان ، وكـانت بـالرغم من ذلك شـديدة العلاقة بموسى باعتباره منقذا لها ، لذلك كانت هـذه الامة بحاجة ماسة الى التـــــدخل المباشر من قبل موسى في شؤونها اليومية ، والتـدخل المباشر لم يكن ممكنا بصـورة هادئة ، انما بطريقة تثـير دخائل وأعمـاق هـذه الامة الـتي اعتادت الصياح والزجر.

من هنا نعرف أن غضب موسى (ع) كان يسكت كلّما كانت الظروف العادية ترجع الى الامة ، باعتبار ان غضـــبه ليس لنفسه وانما لرسالته ولله.

(**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ**)

ويبـــدو لي أن غضب موسى لم يســـكت عنه الا بعد تصفية العناصر الخائنة ، وقتل

أعداد كبيرة منهم ، وقبـول توبة البقية ، بعدئذ أخذ موسى عليه السلام يخطط لبناء مجتمع سليم.

(**أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ**)

ان التخطيط للحياة الاسلامية في المجتمع انما يكـون بعد إرساء قاعدة التوحيد في النفوس ، لـذلك أخذ موسى (عليه السلام) يشـرح ما في الألـواح للجمـاهير بعد انتهائه من تصفية العناصر الخائنة ، وكانت الألـواح تهـدي النـاس الى طريق رحمة الله ونعمته ، ولكن هـــذه النعمة ليست الّا للمتقين.

(**لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**)

كيف نصفيّ الشوائب :

[155] ولا تـــزال في نفـــوس بـــني إســـرائيل بعض الرواسب الجاهلية ، لـــذلك قـــام موسى (عليه الســـلام) بعملية جديدة من أجل ترسيخ دعائم التوحيد في النفـوس ، وذلك حين اختار سـبعين شخصا من قومه لـيرافقوه في مناجاته بطـور سـيناء ، وكـان هـؤلاء يمثلـون الشـعب ، وينقلون طلباته لله سبحانه ، فجاء هؤلاء وطلبوا رؤية الله جهـرة ، فاخـذتهم الصـاعقة فقضت عليهم ، الا أن موسى (عليه السلام) دعا ربه بإعادتهم الى الحياة.

(**وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْـلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا**)

حيث طلبوا من هؤلاء السبعين رؤية الله فنقل هــؤلاء طلب الســـفهاء الى الله ، أجل .. كـــانت تلك فتنة امتحن الله بها عبـــاده ، فمن اهتـــدى فانما بفضل الله ســـبحانه ، ومن ضل فانما بإذن الله.

(**إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشـــاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَـــاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْـــرُ الْغافِرِينَ**)

ان ربنا سبحانه يجـري تحـولات اجتماعية ، وتغيـيرات طبيعية من فقر وغنى ، وصحة ومرض ، وعزة وذلة ، وحر وبـــرد ، ورخـــاء وقحط ، كل ذلك بهـــدف امتحـــان البشر ليستخرج كلما في ذاته من قوة أو ضعف ، وقدرة أو عجز ، ولكي يصـــلح نفسه ويكمل نواقصه ، فمن اهتـــدى الى هـــذه الحقيقة ، وتوكل على الله ، واســـتغفر من ذنوبه ، وسعى من أجل إصلاح ذاته ، فان الله ســيرحمه ويغفر له ، انه يرحمه بتكميل نواقصه ، ويغفر له بإصلاحه لها.

واجب الإنسان :

[156] والله ســـبحانه يكتب للنـــاس ويقـــدر لهم الحسنات والسـيئات حسب أعمـالهم ، ومـدى ايمـانهم أو كفـــرهم ، ويبقى على الإنســـان أن يتطلع الى اكتســـاب الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة ، ويعمل من أجلها حتى يبلغ منـــاه ، ان التطلع الى الأفضل يخلق في القلب دافعا الى العمل ، وآنئذ يحتـــــــاج البشر الى الخطة المتكاملة ليتحـرك عبرها نحو الهـدف ، وتلك الخطة هي منـاهج الله سبحانه ، لذلك قال أصحاب موسى :

(**وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ**)

ان هذا التطلع السامي الذي يمكن ضمانة تنفيذه عن طريق التوكل على الله ، والثقة بأنه ســـوف يكتب ذلك ، انه من أبـرز سـمات المؤمـنين الصـادقين ، الا أنه بحاجة الى عمل جاد ، لذلك بين الله سبحانه ذلك و

(**قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكـاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ**)

ان عذاب الله مهيأ للمذنبين ، بيد أن الأصل هو رحمة الله الـتي وسـعت كل شـيء ، فتلك الرحمة هي مهـوي تطلع البشر ، ومعتمد ايمانه وتوكله ، ومنطلق تحركه.

بيد أن رحمة الله مشروطة بما يلي :

أولا : التقوى والتعهد بالقيام بالواجبات.

ثانيا : الزكاة وهي العطاء من كلما يملكه الإنسان من مال وعلم وجاه ، وقد جاء في الحديث :

«زكاة الجاه بذله ، وزكاة العلم نشره»

ثالثا : الايمـان بكل الآيـات سـواء كـانت في مصـلحة الشخص العاجلة أو لم تكن ، وعدم تبعيض الإسلام بقبول الجانب السهل منه ، وترك الجوانب الصعبة ، كـأن يصـلّي الشخص ولا يـزكي ، أو يحج ولا يجاهد كلا .. ان رحمة الله لا تسع قوما يجزءون الدين ويأخذون ببعضه فقط.

الَّذِينَ يَتَّبِعُــونَ الرَّسُــولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَــهُ مَكْتُوبــاً عِنْـــدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيـــلِ يَـــأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبـاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (157) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللـهِ وَكَلِماتِـهِ وَاتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ (158) وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

---

157 [عزروه] : وقروه وعظموه.

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ

هدى من الآيات :

في سـياق قصة موسى (عليه السـلام) يـذكر القـرآن الحكيم برســـالة محمد (صـــلى الله عليه وآلـــه) ليربط الحاضر بالماضي ، وليعطي درسا حكيما منتزعا من حقـائق تاريخية ، وليشـجع اليهـود على اتبـاع الرســالة الجديــدة ، ومنهج القــرآن في الاســتدلال منهج فطــري يستفيد من أقـرب جهة الى القلب والوجـدان ، وهنا يـبيّن أن الرسالة الجديدة تدعو الى ذات القيم الـتي كـانت في رســالة موسى (عليه الســلام) بالاضــافة الى انها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل ، فلما ذا الكفر بها؟!

ان هــذه الرســالة ـــ كما تلك الرســالات ـــ تــأمر بــالمعروف الــذي يتوافق مع فطــرة البشر ، وتنهى عن المنكر ، وتحل لهم الطيبــات وتحــرم عليهم الخبــائث ، والهـدف منها دفع ثقل الشـرك والاسـتبعاد ، وفـكّ أغلال المجتمع الفاسد ، والسلطة الفاسدة ، والفلاح إنما هو من نصـيب أولئك الـذين آمنـوا بهـذا الرسـول وقـوّوا جبهته ، ونصـروه واتبعـوا رسـالته ، وجعلوها نـورا يهتـدون بها في الحياة.

والرسالة هذه إنما هي من الله سبحانه الـذي له ملك السماوات والأرض الـذي لا إله إلّا هـو. وهو يحي ويميت ، وعلى الناس اتباع هذه الرسالة الـتي هي ملك لهم جميعا ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الهداية بـإذن الله ، وليس قـوم موسى كلّهم على ضـــلالة ، بل إن فريقا منهم يـــأمرون بالحق ويهدون اليه ، ويجعلونه مقياسا لتقييمهم.

بينات من الآيات :

من خصائص الرسول (ص)

[157] رسـالات الله تتمـيز بأنها للنـاس جميعا بعيـدا عن أي تميـيز قـومي أو اقليمي أو عنصـري أو ما أشـبه ، وهي تـدعو الى بنـاء أمة واحـدة ذات رسـالة سـماوية ، ورسول واحد ، والرسول في هذه الرسالة ينتمي إلى تلك الأمة التي تتمحور حول الرسالة ، ولـذلك يكـون من أبـرز صفاته أنه أمّي ، وأنه نبي يـوحى إليه ، وأنه رسـول يحمل لهم رسالة فيها مناهج لحياتهم.

(**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ**)

وكلمة ـ الأمي ـ كما يبدو لي منتزعة من الأمة ، الـتي يقول عنها ربنا في آية أخرى (**إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) وهناك من قال بـأن الكلمة منتزعة من الأمّ باعتبار أن الرسـول لم يكن قارئا أو كاتبا ، أو الى أم القرى.

(**الَّذِي يَجِدُونَـــهُ مَكْتُوبـــاً عِنْـــدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ**)

مكتوب بصفاته وأسمائه ، كما هو مكتوب بالقيم التي يدعو إليها.

(**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**)

وكـلّ رسـالة سـماوية تثـير دفـائن العقـول ، وتنطلق بصميم الفطرة ، وتنسجم مع

حقائق الكـون الـتي يشـهدها أكـثر النـاس ، ويبـدو لي أن المعـروف هنا هو ما يعرفه قلب البشر السـليم ، والمنكر ما ينكره.

(**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ**)

والطيبـــات والخبـــائث هما أيضا مما يبينه الـــوحي ، ويصدقه العقل.

(**وَيَضَـــعُ عَنْهُمْ إِصْـــرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كـــانَتْ عَلَيْهِمْ**)

الإصر هو : الثقل ، والبشر يعيش في ذاته ثقل المادة ، حيث يحن الى ما في الحيـــاة من زينة ، وينهـــار أمـــام شـهوات النسـاء والـثروات والمناصب ويضـغط عليه واقع اليوم دون حقيقة المسـتقبل ، وهكـذا يصـبح البشر ان لم يقصـمه الله جـزءا من الطبيعة ، يتحـرك حسب عواملها وتغيراتها.

ورســالات الله تنقذ الإنســان من أصــله ، وترفع عنه هــذا الثقل المــادي بتوجيهه الى العــالم الأعلى ، عــالم الروحيـــات ، وعـــالم المســتقبل القــريب في الــدنيا ، والمستقبل البعيد في الآخرة.

وكما ترفع الرسالة إصر البشر ترفع الأغلال الآتية من الإصر ، مثل الأغلال الاجتماعية الــتي يفرضــها النظــام السياسي ، أو الاقتصـــــادي الحـــــاكم على المجتمع ، والقـــــوانين المعيقة للتقـــــدم ، والكبت والديكتاتورية والإرهــاب الفكــري الــذي يمنع تفجــير النشــاط ، وتفتق المواهب.

شروط الفلاح

وعاقبة هذه الرسالة الفلاح والسعادة ، ولكن بشــرط أن يـؤمن البشر بها ، وأن يعظّمها ويوقرها ، وأن ينصـرها عمليا باتباع كل مناهجها ، وأن يتخذ قيمها

ومعاييرها ميزانا لتقييم أحداث الحيـاة ، وتفسـير متغيراتها ، ومعرفة الناس.

(**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ**)

إيمانا واقعيا بأن سـلموا له أنفسـهم ، ولم يتكـبروا أو يتعالوا عليه.

(**وَعَزَّرُوهُ**)

أي جعلوه كبيرا في أنفسهم ، أكبر من شهواتهم ومن ضغوط الجياة.

(**وَنَصَرُوهُ**)

أيّ قدموا له امكاناتهم ، وجعلوها في خدمة رسالته.

(**وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ**)

وهو القرآن ، وكما يستضيء البشر بنور المصباح في الليل ، كـذلك استضـاؤوا بنـور القـرآن في ليل الحيـاة ، فـرأوا به ومن خلاله ما في الحيـاة من خـير وشر ، وحق وباطل ، وهدى وضلالة.

(**أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

أيّ السعداء في الدنيا والآخرة.

كيف نعرف الله؟

[158] معرفة الله سـبحانه تسـبق سـائر المعـارف الدينية ، وهي تتم بطريقة فطرية ، وبالتــــــذكرة بما في الكـون من آيـات ، وبما في النفس من بحث ووله ، وحين يتذكر البشر ويعرف ربه يسهل عليه أن يعرف رسـالة ربه لما فيها من تناسب

وتنـــاغم ، فرســـالة الله شـــاملة واســـعة الرحمة ، لطيفة المنـــاهج ، متينة الأركـــان كـــأيّ اسم آخر من أســـمائه الحسـنى ، فهي كما الشـمس والقمر ، ومثل السـماوات في سعتها وقدرتها ، ومثل الأرض في متانتها واسـتقرارها ، ومثل ظـاهرة الحيـاة فيما تعطيها للنفـوس من حـرارة الحياة ، لذلك كان من أقرب الطـرق الى معرفة الرسـالة والرسول هو معرفة الله ، والتذكر بعظمته وقدرته ولطفه ورحمته ، ولـذلك أيضا كـان يستشـهد الرسل بالله على صدق رسالاتهم.

(**قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**)

وكما أن رحمة الله وسعت كلّ شيء ، كذلك رسـالته فهو.

(**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ**)

ومثلما يحيي الخلق ماديا فهو يهـديهم بالرسـالة الـتي هي حيـاة معنوية ، ومثلما يميتهم ماديا فهو يضـلهم حين يكفرون بالرسالة فيموتون وهم أحياء.

(**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ**)

وإنما يـدعوكم الى الله لا الى نفسه ، وهو أسـبق الناس الى الايمان بالله وبرسالاته التي أوحيت اليه.

(**وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)

إنّ إتبـاع الرسـول سـوف ينتهي بالبشر الى الارتفـاع الى مستوى معرفة الحقائق بأنفسهم.

[159] ليست رسـالات الأنبيـاء مبعث خلاف ونـزاع ، ولا هي أنـزلت لتكـون أداة للعنصـرية والطائفية ، لـذلك فهي تؤكد أبدا على وحدة الرسالات ، وأهمية القيم ،

وأن من يتبع القيم الرســالية فهو على صــراط مســتقيم حتى ولو لم يلتزم بخط معين في هـذا الاتبـاع ، لـذلك أكّد القرآن الحكيم هنا أيضا على أن الحكم الكاسح بكفر بــني إســرائيل جميعا خطأ ، بل أن بعضـهم على صـواب ما دام يلتف حــول رســالة الســماء ، ويشــكل أمة واحــدة ، وما دامــوا يرشــدون الى الحيــاة الفاضــلة عن طريق الحق ، ويحكّمون الحق في علاقـاتهم الاجتماعية ، وفي مـواقفهم من الناس أو من الظواهر الحياتية.

(**وَمِنْ قَــوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْــدُونَ بِــالْحَقِّ وَبِــهِ يَعْدِلُونَ**)

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ أَسْـباطاً أُمَمـاً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصـاكَ الْحَجَـرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْنـاً قَـدْ عَلِمَ كُـلُّ أُنـاسٍ مَشْـرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمـامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ ما رَزَقْنـاكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ (160) وَإِذْ قِيـلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُـوا مِنْها حَيْثُ شِـئْتُمْ وَقُولُـوا حِطَّةٌ وَادْخُلُـوا الْبـابَ سُـجَّداً نَغْفِـرْ لَكُمْ خَطِيئـاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِـنِينَ (161) فَبَـدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ

---

160 [فانبجسـت] : الانبجـاس خـروج المـاء الجـاري بقلة ، والانفجـار خروجه بكثرة وكـان يبتـدئ المـاء من الحجر بقلة ثم يتسع حـتى يصـير الى الكثرة.

[الغمام] : السحاب الأبيض الرقيق.

السَّــماءِ بِما كــانُوا يَظْلِمُــونَ (162) وَسْــئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَــةِ الَّتِي كــانَتْ حاضِــرَةَ الْبَحْــرِ إِذْ يَعْــدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قــالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُــونَ قَوْمــاً اللــهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَـذاباً شَـدِيداً قـالُوا مَعْـذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُـوا ما ذُكِّرُوا بِـهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَـذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُـوا بِعَـذابٍ بَئِيسٍ بِما كـانُوا يَفْسُـقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَـوْا عَنْ ما نُهُـوا عَنْـهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُـوا قِـرَدَةً خاسِـئِينَ (166)

---

163 [يعدون] : يعتدون بالصيد المحرّم.

166 [عتوّا] : العتو الخـروج إلى أفحش الـذنوب ، والعـاتي المبـالغ في المعاصي ، والليل العاتي الشديد الظلمة.

[خاسئين] : المطرود المبعد عن الخير ، من خسـأت الكلب إذا أقصـيته فخسأ أي بعد.

الرجز عقبى الظلم بعد الايمان

هدى من الآيات :

بنو إسرائيل فريقـان : فريق مـؤمن وهي الأمة الحقة ، والفريق الثـــاني : ظـــالم وأول ســـماتهم اختلافهم ، واســـتمرار التقســـيمات الطبيعية القبلية بينهم ، وعـــدم شكرهم لربهم على ما رزقهم من المنّ والسلوى ، وظلّل عليهم السحاب ، وأن ذلك ظلم لأنفسهم.

وحين أمرهم الله أن يسكنوا القرية ليأكلوا منها حيث شـــاؤوا ، ويســـتغفروا الله عن ذنـــوبهم حـــتى يغفر لهم خطيئـاتهم ، وأن يزيد المحسـنين الـذين يتجـاوزون العمل بالواجبات الى الإحسان.

بيد ان هذا الفريق الظالم بدلوا قولا غــير ما قيل لهم ، فأرسل الله عليهم رجزا من السماء بسبب ظلمهم.

وهنــاك تجربة لا تــزال ماثلة في ضــمير التــاريخ من ظلم هؤلاء لأنفسهم ، انهم

كـــانوا في قرية حاضـــرة البحر وقريبة منه ، وكـــانوا يتجـاوزون حـدود الله سـبحانه في حرمة الصـيد في يـوم السبت ، ولكي يمتحن الله هؤلاء كانت الحيتان تـأتيهم في يـوم السـبت ظـاهرة على البحر ، بينما لا تـأتيهم في غـير السـبت ، واختلف النـاس ثلاثا في هـذه القرية ، ففريق عملوا الجريمة ، وفريق سـكتوا عنها ، وفريق نهـوا عنها ، وحينما سـألهم البعض : لما ذا تعظـون قوما أهلكهم الله بالمعصـية؟ أجـابوا : لاننا نأمل في هـدايتهم ولنتمّ الحجة عليهم ، وكـانت العاقبة أن الله عـذّب الفـريقين الأولين وأنجى الفريق الثـالث ، وعـذبهم بـأن مسـخهم قـردة خاسئين.

بينات من الآيات :

التكامل الاجتماعي :

[160] وكـانت بنو إسـرائيل أمة منقسـمة في اثنـتي عشرة قبيلة ، كلّ قبيلة أو سبط أمة تتبع قيادة معينة ..

(**وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً**)

ويبـدو لي إن هـذه الفـرق المختلفة لم تبلغ مسـتوى تلك الامة الـتي تحـدثت عنها الآية السـابقة ، الـتي كـانت تهـدي بـالحق وبه تعـدل ، بل كـانت لا تـزال في عهد التقسـيمات الطبيعة حيث كـانت القبائل تتبع رئاسـتها ، والله سـبحانه الـذي خلق الطبيعة قـدّر لها سـننها وهـدى الناس إليها ، بالوحي والعقل كما خلق الاسرة ، وجعل لها سنة التحابب والتعاون.

وهدى النـاس بـالوحي والعقل إلى أهمية الاسـرة في بناء كيـان المجتمع ، كـذلك خلق القبيلة وشـدّ بعضـها الى البعض بحبال المحبة ، والوحدة الثقافية ، ووحـدة الهـدف والمصـير ، وهـدى النـاس الى أهمية إيجـاد الترابط البّنـاء بين أعضاء القبيلة في إطار

التقوى ، والتعاون على البر والإحسان.

ولكن هـذه السـنن الطبيعية لا تعـني ان قمة الكمـال هي في التعــرف عليها ، والاهتــداء الى كيفية الاســتفادة منها ، بل قد يكـــون التكامل في تغيـــير الطبيعة وتكييفها حسب القيم العليا للحياة ، مثل تحويل الحيـاة القبلية الى حيــاة أميّة تســتلهم من قيمة التقـــوى في بنــاء علاقاتها الاجتماعية ، كما كانت الامة الاسلامية الاولى ، وكما تكون التجمعات الرسالية المكتملة ، حيث يرتفع الفرد فيها على علاقاته الاســرية والقبلية ، ويبـــني أســاس علاقاته على الاخوة المبدئية ، ويكـون التجمع هو أبـوه وأخـوه ورابطته الأولى ، ويرى نفسه ابنا للتجمع قبل أن يكـون ابنا لوالديه ، ومنتميا الى حــزب الله قبل أن يكـــون منتميا الى قبيلة كذا أو عنصر كذا.

ومن هنا بــدأ الله حديثه عن الأمة الواحــدة في بــني إســـرائيل في الـــدرس الســـابق ثم تحـــدث عن الأمم المتنافسة ، وبيّن أن رسـالة موسى (عليه السـلام) كـانت تهتم أيضا بتلك القبائل والأســـــباط ، وتســــــتخدم تلك العلاقـــات الطبيعية في تنظيم المجتمع ، لــذلك فجّر الله لموسى اثنتي عشرة عينا ، لكلّ قبيلة مشربا معينا.

(**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْــــقاهُ قَوْمُــــهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ**)

ثم بيّن الله النعم التي أسبغها لأولئك الناس الذين لم يذوّبوا أنفسهم بالكامل في بوتقة الايمان ، وقال تعالى :

(**وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمــــــــامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى**)

المنّ هو قسم من الحلـــوى ، والســـلوى هو الطـــير المشوي.

(**كُلُوا مِنْ طَيِّبـاتِ ما رَزَقْنـاكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

لمـاذا لم يعد الغمـام يظلّلهم ، والمن والسـلوى لا يـنزلان عليهم؟

لأنهم ظلمــوا أنفســهم كما ســبق في آيــات ســورة البقرة ، حيث إنهم ملّوا حياة البداوة ودعـوا ربهم بـالعودة الى المدن.

نقاط الضعف الحضارية في المدينة :

[161] وبعد أن هبطـــوا القرية الـــتي هيأها الله لهم فسدت أخلاقهم ، فبـدل أن يشـكروا الله على النعم الـتي وفرها لهم ، وبدل أن يستغفروه سبحانه بخضـوع وقنـوت حـتى يتكـاملوا عن طريق التعـرف على نقـاط ضـعفهم وأسـباب تخلفهم ، وبـدل أن يتخـذوا الإحسـان أداة لتنمية علاقاتهم الاجتماعية وتزكية نفوسـهم ، بـدل كـلّ ذلك مما أمرهم به الله غيّـروا وكفـروا بـأنعم الله ، واسـتكثروا من اللذات ولم ينتبهوا لنواقصهم.

(**وَإِذْ قِيـلَ لَهُمُ اسْـكُنُوا هـذِهِ الْقَرْيَـةَ وَكُلُـوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ**)

أيّ اللهم حطّ ذنوبنا واغفر لنا.

(**وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً**)

خاضعين لله حتى لا يسـتبد بكم طغيـان النعم وغـرور القوة.

(**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**)

حيث ان المدينة تصـبح آنئذ سـببا لتطـوركم ورقيّكم ، ذلك لان عوامل الضـــعف في المدينة هي العوامل التالية التي نهى ربنا عنها :

أولا : القيود الاضافية التي لا فائـدة منها والـتي تحـدد انتفــاع البشر بنعم الله ، من العــادات الجاهلية ، والآداب الزائدة ، وسائر القيود وقد نهى ربنا عنها بقوله : (**وَكُلُوا**

مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ) فأمرهم بعـدم التقيد بـالأغلال الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد أوضح القرآن ذلك في آيات أخرى سبقت أو تأتي في سائر السور.

ثانيا : الغرور ، والطغيان ، والشعور بالاستغناء ، حيث يخشى على المتحضـرين من هـذه الصـفة الرذيلة ، وقد أمر الله بالاستغفار تحصـنا من الغـرور والاعـتزاز بـالإثم ، والاعتقاد ببلوغ مرحلة الاكتمال التام.

ثالثا : التجبر والطغيـان على خلق الله بسـبب الغـنى والعزة ، والاتحاد الموجود في المدينة ، وأمر الله سـبحانه بـني إسـرائيل بالسـجود لله عند دخـول المدينة ، لكي يعرفوا أن غناهم وعـزتهم ووحـدتهم كل ذلك انما هي من الله سـبحانه ، لا من عند أنفسـهم حـتى يتجـبروا على الآخرين.

رابعا : البخل والشح عن العطـاء مما يسـبب التفـاخر والمنافسة الحـادة ، فـأمر الله في نهاية الآية بالإحسـان ، وبيّن أنه سـوف يسـبب زيـادة النعم حـتى يتجـاوز بنو إسرائيل في قريتهم هذه الصفة المهلكة ، وقال سبحانه : (**سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**).

من هنا نعرف أن المدينة مفيـدة وضـارة ، مفيـدة إذا استطاع المجتمع تجاوز سـلبياتها الأربعة ، وإلّا فهي ضـارة وتحرق خيرات البشر.

[162] أما بنو إسرائيل فقد هـزهم دخـول القرية لان أكثرهم لم يتقيدوا بتعاليم ربهم سبحانه ..

(**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَـوْلاً غَيْـرَ الَّذِي قِيـلَ لَهُمْ فَأَرْسَـلْنا عَلَيْهِمْ رِجْـزاً مِنَ السَّـماءِ بِما كـانُوا يَظْلِمُونَ**)

وانتهت حياتهم المدنية الى العذاب بسبب ذلك الظلم الذاتي.

ظلم الذات :

[163] وكمثل على ذلك الظلم الـــــــذي إنتهى الى العذاب بين الله لنا قصة السبت ، حيث أمرهم بألّا يصيدوا يـــوم الســـبت تنظيما لحيـــاتهم الاجتماعية ، وراحة لهم وتفرغا للعبادة ، ولكن الطمع دفع بهم الى تجــاوز حد الله في الســبت إذ كــانت الحيتــان تــأتيهم ظــاهرة في يــوم السبت.

(**وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّـبْتِ إِذْ تَـأْتِيهِمْ حِيتـانُهُمْ يَـوْمَ سَـبْتِهِمْ شُرَّعاً**)

وربما المراد بكلمة حيتانهم هو ان هذه الحيتان كـانت لهم بالتـالي ، فـان لم يصـيدوها في يـوم السـبت وفروها ليـــوم الأحد ، ولكنهم لم يكونـــوا يفقهـــون تشـــريع هـــذه الظاهرة.

(**وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ**)

يبدو أن المراد أنها في غير السـبت لم تكن ظـاهرة ، وكــان ذلك امتحانا لهم وابتلاء من قبل الله حــتى يعرفــوا مدى ضعفهم.

(**كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ**)

إذا فسق الإنســان فســقا خفيا وبطريقة منافقة فــان ربنا سبحانه يمتحنه امتحانا صـعبا وظـاهرا ، حـتى لا يقـدر على مقاومة الإغـراء بسـبب فسـقه الخفي الـذي أضـعف إرادته وخـوّر عزيمته ، فيضـطر إلى إظهـار واقعه ، وهـذا معنى الابتلاء حيث إنه يظهر الواقع الخفي.

وفي القصص التاريخية بيــان لطبيعة نفــاق أصــحاب هذه التوبة ، حيث إنهم كما

جاء في تلك القصص يلقون الشباك في يوم السبت ثم يستخرجون السمك في يوم الأحد ، أو أنهم كانوا قد صنعوا أحواضا على البحر يدخلها السمك يوم السبت ثم لا يستطيع أن يخرج منها فيصيدونها يوم الأحد.

مواقف المجتمع تجاه الجريمة :

[164] وانقسم أهل هذه القرية الساحلية الى ثلاث فرق ، بعضهم المجرمون ، وبعضهم الساكتون على الجريمة ، وبعضهم الناهون عنها ، وينقل الله سبحانه حوارا بين الساكتين والناهين.

(**وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً**)

أيّ ما لكم تعظون المجرمين الذين لا فائدة من وعظكم إياهم ، بل سوف يهلكهم الله أو يعذبهم.

(**قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ**)

لان النهي عن المنكر واجب شرعي حتى ولو كان بهدف تسجيل الحضور ، وبيان انحراف المنحرف ، ولو من أجل الأجيال القادمة ، والله لا يعذر البشر بمجرد الاعتقاد بأن النهي عن المنكر لا ينفع.

(**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)

وهناك أمل بان يتقي جماعة منهم ربهم فيكفي ذلك ثوابا.

[165] وذكّر الله هؤلاء المجرمين بالمناهج التي يجب إتباعها ، وحذرهم من تجاوز الحدود وذلك عن طريق الناهين عن المنكر من قومهم ، ولكنهم نسوا ما ذكروا

به فأنجى الله الناهين ، وأخذ الباقين بالعذاب.

(**فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَــوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَـذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُـوا بِعَـذابٍ بَئِيسٍ بِما كـانُوا يَفْسُقُونَ**)

وكان بين المهلكين الساكتين عن المنكر.

[166] وكان العذاب الشديد هو أن الله سبحانه قــال لهم كونوا قردة خاسئين.

(**فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ**)

وتكبّروا عليه.

(**قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ**)

وَإِذْ تَــأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَــوْمِ الْقِيامَــةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَـذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَـرِيعُ الْعِقـابِ وَإِنَّهُ لَغَفُــورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنــاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمــاً مِنْهُمُ الصَّـــالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِـــكَ وَبَلَوْنـــاهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّـيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (168) فَخَلَـفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُـوا الْكِتـابَ يَأْخُذُونَ عَـرَضَ هـذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَـيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَـأْتِهِمْ عَـرَضٌ مِثْلُـهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتـابِ أَنْ لا يَقُولُـوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

---

169 [عــرض] : العــرض ما يعــرض ويقل لبثه ، ومنه ســمي العــرض القائم بالجسم عرضا لأنه يعــرض في الوجــود ولا يجب له من اللبث ما يجب للأجسام.

[ودرسوا] : الدرس تكرار الشيء ، ويقال درس الكتاب إذا كــرر قراءته ، ودرس المنزل إذا تكرر عليه مرور الأمطار والرياح حتى انمحى أثره.

يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتـابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

كيف انتكس بنو إسرائيل بالتبرير

هدى من الآيات :

وأعلن ربنا سـبحانه حكمه الحاسم الـذي جـاء نتيجة ذلك السلوك الفاسد لبني إسـرائيل حيث عصـوا رسـالات ربهم ، وكان ذلك الحكم هو سيطرة الطـاغوت عليهم الى يـوم يبعثـون حـتى يسـومهم سـوء العـذاب ، ذلك لأن الله سريع العقاب وهو غفور رحيم.

وكان من مآسي بني إسرائيل تشتتهم في البلاد ، كل جماعة منهم سـكنوا منطقة ، وكـان بينهم الصـالحون وغيرهم ، وقد امتحن الله بني إسـرائيل بالحسـنات لعلهم يشـكرون ، وامتحنهم بالسـيئات لعلهم يتوبـون اليه ويعودون الى شرائعه ومناهجه.

ويبدو أن بني إسرائيل هبطـوا بعدئذ الى درك التخلف الثقـافي ، حيث انتشـرت فيهم الثقافة التبريرية ، فخلف من بعد ذلك الجيل جيل فاسد ثقافيا حيث كـانوا يهتمـون بمظاهر الدنيا ، ويزعمون بأن الله سيغفر لهم ولكن كيف يغفر الله لهم وهم لم يتوبوا توبة نصـوحا ، بـدليل أنهم لو وجدوا مثل تلك المظاهر لأخذوا بها أيضا؟!

إن تلك الأفكار التبريرية الـتي كـانت تشـجع على الفسـاد بأمل الاسـتغفار لم تكن أفكـارا دينية ، لان ميثـاق الكتـاب وعهده يقضي بألّا ينسبوا الى الدين إلّا الحق ، وكان الحق السليم هو الاهتمام بالآخرة وأولويتها على عرض الدنيا.

وفي ظلمــات تلك العصــور كــان يشع نــور الطليعة الرسالية الذين تمسكوا بقوة بالكتـاب ، وأقـاموا الصـلاة ، وكان همهم هو إصلاح الناس بعد إصلاح أنفسهم ، والله لا يضيع أجر هؤلاء حيث إنه بنسبة عملهم كان يرفعهم.

بينات من الآيات :

التقليد داء المجتمع :

[167] لقد مسخ فريق من بـــني إســـرائيل قـــردة خاسـئين ، وبـالرغم من ان ذلك الفريق السـيء الحظ قد هلك بعد ثلاثة أيام أو سبعة أيام حسب ما جاء في التـاريخ ، إلّا أن تلك الحالة قد اســتمرت بعدئذ في أجيــال بــني إسـرائيل الـتي عصت ربها واتبعت شـهواتها ، أو حـتى لم تحترم قوانين الدين.

ما هي تلك الحالة؟

لا بـدّ أن نعـرف مسـبقا أن أبـرز سـمات القـرد هو التقليد والتشبه بـالآخرين ، وهـذا يسـتدرج منتهى درجـات الذلة والقمـاءة ، ولـذلك فـان الحالة الـتي اسـتمرت مع الأجيال الصاعدة من بني إسرائيل كان الاســتعباد والذلة ، حيث سلط الله عليهم طاغوت الظلم والإرهـاب ، وأنظمة القهر والديكتاتورية فاذاقتهم سوء العـذاب ، وذلك بسـبب عصيانهم لربهم أو سكوتهم عن المعاصي.

(**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ**)

أي أعلن ذلك بوضوح كاف ..
(**لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ مَنْ يَسُـومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ**)
ما داموا في معصية الله أو بالسكوت عن المعاصي ، وإذا غيروا ما بأنفسهم غيّر الله لهم حالهم ..
(**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ**)
بـالرغم مما يـتراءى للبشر ان عقابه بطيء .. كلا إنه سريع يلحق بالبشر في الدنيا ، وقبل الوقت الذي يسـوف العاصي فيه التوبة ، ويمني نفسه بتأخر العذاب.
ثم إن عقاب الله ما دام ثابتا لا محالة ، فـان كـلّ آت قريب يحـدوه إليه الليل والنهـار بسـرعة فائقة ، ولا يقـدر البشر على الفـرار منه إلّا اليه سـبحانه ، وبـالعودة الى مناهجه ، وإصلاح الفاسد ، ذلك لان رحمة الله واسعة ..
(**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

نتائج الظلم الاجتماعي :

[168] الظلم الـذي مارسه بنو إسـرائيل من هتك حرمة السـبت كـان ظلما اجتماعيا عاما وسـبب في تبـدل النظام السياسي ، وتسـلط الطغـاة على الحكم وقيـامهم باضـطهاد الشـعب ، (كما تكونـوا يـولى عليكم) وكـان من نتائج هذا الظلم الاجتماعي وأشباهه الانهيار في مجتمعهم ، حيث تسـاقطت حـدود المجتمع وتفـرقت بنو إسـرائيل مجموعات .. مجموعات ..
(**وَقَطَّعْنـاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمـاً مِنْهُمُ الصَّـالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ**)
وكـانت تلك بـدورها مرحلة من مراحل سـقوط هـذا المجتمع المؤمن ، حيث تفرقوا

واختلفوا ، ولكن بقيت فيهم أمة صالحة وأمم متدرجة في الصلاح ، ولكن الله أنزل عليهم الحسـنات حينا والسـيئات حينا لكي يختـبرهم ويمتحن مـدى صـمودهم أمـام إغـراء الحسنات وعذاب السيئات ..

(**وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

حيث إن فلسـفة الاختبـار هي : ظهـور ما خفي على الإنسان من واقعة الضعيف حتى يصلحه ويكمل نفسه.

ثقافة التبرير :

[169] أما المرحلة الاخطر الـــــــتي هبط إليها بنو إسرائيل فقد كانت انتشار الثقافة التبريرية التي تتخذ من الـدين سـتارا لاتبـاع الشـهوات ، كما هو الحـال عند بعض المسـلمين حيث انهم يعملـون المعاصي بعد التحايل على الدين ، بزعمهم بطريقة أو بأخرى ، فيرابون باسم الـبيع ، ويســكتون عن الظــالم باسم أنه وليّ الأمر ، أو باسم أن العصر هو عصر التقية والانتظـار ، أو يشـجعون الخلافـات باسم أنها الاولى بالاهتمام ، وهكـذا .. كـانت بنو إسـرائيل في هذه المرحلة تتوسل ببعض النصوص وتفسرها حسب آرائها ، وتعمل المعاصي باسمها.

(**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ**)

ولكنهم لم يعملوا به وإنما كانوا ..

(**يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُـونَ سَـيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ**)

إن تفسـيرهم للاسـتغفار سـاذج وبعيد عن الحقيقة ، ذلك لأن الاستغفار هو في واقعه الندم والعـزم على تـرك المعصية ، وإصلاح آثار الذنب السابق ، أما هؤلاء فقد

زعمـوا أن مجـرد التمـني بـالمغفرة كـاف في درء خطر العـذاب ، علما بـان ذلك كـان نتيجة اتخـاذ الـدين وسـيلة تـبرير لأخطـائهم ، والـدليل على ذلك أنهم يعـودون الى الـــذنب كلما وجـــدوا عرضا زائلا من إعـــراض الـــدنيا ، وخطورة هذا النوع من التفكير أنه يكـرس ضـلالة البشر ، إذ أن وسيلة إصلاح البشر وهي الـدين قد اتخـذت عنـدهم وسيلة تبرير للفساد فكيف يمكن إصـلاحهم؟! لـذلك فـان القـرآن شـديد أبـدا على أولئك الـذين يحرّفـون الـدين ويفسّـــرون نصوصه وتعاليمه تفســـيرا خاطئا وقد اتخذ مسـبقا العهـود والمواثيق على من أرسل عليهم الكتـاب بالّا ينسبوا الى الله غير الحق المتمثل في توصـية النـاس بـأن الآخـرة أفضل من الـدنيا ، وذلك هو هـدى العقل إذا انتفع الإنسان بعقله.

(**أَلَمْ يُؤْخَـذْ عَلَيْهِمْ مِيثـاقُ الْكِتـابِ أَنْ لا يَقُولُـوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ**)

وكانت تعاليم السماء واضحة بالنسبة الى الـدنيا وأنها عرض زائل ..

(**وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

[170] وبـــالرغم من أن أكـــثر هـــؤلاء قد انحرفـــوا وحرّفــوا الــدين ونســبوا الى ربهم أفكـارا باطلة ، إلا أن طائفة منهم تمسـكت بالكتـاب تمسـكا شـديدا ، وطبقت تعاليمه ومنها : إقامة الصـــلاة ، والاســـتلهام من الله في تصـــرفاتهم ومـــواقفهم عن طريق إقامة الصـــلاة ، والله سـبحانه لا يضـيّع أجر هـؤلاء لأنهم مصـلحون ، لا يكتفـون بالصلاة بل بإقامتها وتطبيق سننها في الحياة.

(**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقـامُوا الصَّـلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**)

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَـلَ فَـوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِـعٌ بِهِمْ خُـذُوا ما آتَيْنـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاذْكُـرُوا ما فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـــــونَ (171) وَإِذْ أَخَـــــذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيامَـةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هـذا غـافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُـوا إِنَّما أَشْـرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْـــلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـــدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيـاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

---

171 [نتقنا] : النّتق قلع الشيء من الأصل ، وكل شيء قلعته ثم رميت به فقد نتقته.

الميثاق الإلهيّ

لمواجهة اتباع المبطلين

هدى من الآيات :

متى أخذ الله من بني إسرائيل ذلك الميثاق الذي كان من أبرز بنوده ألا يقولوا على الله الا الحق؟

الجـواب : مـرتين ، مـرة حيث قلع قسـما من الجبل وجعله فـوقهم كأنه ظلّة أو سـقف ، تصـوروا أنه سـيقع ويقضي عليهم ، وهنالك أخذ ميثـاقهم وقـال لهم : (**خُـذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ**) ، وليكن هدف ذكر ما فيه التقوى والالتزام بواجبات الله سبحانه.

هذه مرة ، ومرة اخـرى حين أخـرج الله ذرية آدم في صورة ذر ونشرهم في الفضاء ، وأشـهدهم على أنفسـهم وقـال لهم : «**أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قـالُوا بَلى شَـهِدْنا**» وآنئذ حذرهم الله من التبريرات التي قد يتخذونها وسـيلة لعـدم الالتزام بالحدود ، ومنها : أن يقولوا يوم القيامة : (**إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ**) ، أو يقولـوا : «**إِنَّما أَشْـرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـدِهِمْ**» كلا .. ان كل جيل مكلف ومسئول عند ربه بما أتاه الله من

فطرة وعقل ، وبما اتخذ عليه من شهادة في عالم الذر ولذلك لا يصح أن يقول أحدهم «**أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**».

ان هذه الآيات التي يفصلها ربنا سبحانه تهدف اعادة الإنسان الى فطرته النقية ، الى حيث تعاليم الله.

بينات من الآيات :

خذوا ما أتيناكم بقوّة :

[171] في قصة سبق الحديث عنها في سورة البقرة ، اقتطع ربنا جانبا من الجبل وجعله فوق رأس بني إسرائيل ، وأمرهم بأن يتعهدوا بأخذ ما آتاهم أخذا قويا دون ان يتكاسلوا أو يتوانوا فيه ..

(**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ**)

اي رفعنا جزء من الجبل فوقهم.

(**كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ**)

اي كأنه شيء يظلهم كالسقف والسحاب.

(**وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ**)

أي واقع عليهم ، وفاتك بهم.

(**خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ**)

اي اجمعوا عزمتكم ، وسخروا همتكم ، واثبتوا تصميمكم على اتباع الدين ، فالدين ليس متكأ لكل خاوي العزيمة ، ضعيف الهمة ، فاقد التصميم ، أو لكل

كسول جبان متعـاجز ، انما هو رسـالة الله الى الإنسـان ، ورســـالة المـــؤمن الى نظرائه من البشر ، انه يصـــقل شخصــــية البشر ويفجر طاقاته ، ويظهر مــــدى تحمله للصعوبات وتعهده بالمسؤولية ، انك لا تسـتطيع أن تطلب من الــدين شـيئا قبل أن تعطيه من نفسك ومن قــدراتك التضحية والإيثار ، وأن تكـون لـديك العزيمة الكافية لاتبـاع مناهجه مهما كلف الأمر.

وحين تخونك عزيمتك ، وتخشى أن يداخلك الشيطان ويفسد عليك تصميمك ، عليك أن تعود الى الكتاب وتتـدبر في آياته ، وتـــذكر تعاليمه حـــتى تخشى الله ، وتتعهد بالمسؤولية ، وتتسلح بالتالي بالتقوى.

(**وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)

وبقيت لنا كلمة في هــذه الآية وهي : أن كل النــاس وبالــذات الرســاليين منهم يمتحنهم الله كما امتحن بــني إســرائيل ، فيأخــذهم بالبأســاء والضــراء حــتى يتعهــدوا بالمسؤولية ويأخذوا الدين بقوة ، ولا يجب دائما ان تكــون الظلّة قطعة جبل ، فقد تكون الظلّة كابوس نظام ظالم ، أو فقرا مدقعا أو مرضا مزمنا ، وقد يكون الرسـول الـذي يبلغه ضـرورة الالـتزام بالـدين والتعهد باتباعه بقــوة ، قد يكون أحد المبلغين القـادمين ، أو حـتى آيـات في الكتـاب يتذكرها المؤمن في تلك اللحظات ، ومنها هذه الآية الـتي تصدق في كل مكان ومع كل إنسان ولكن بطرق شتى.

كيف نبلور جوهر الذات؟

[172] كما حبة حية يدفنها الـتراب والوحل والسـماد ولكنها تنشط وتتحـدى وتخـرج الى النـور وتـبرز حيويتها ، وقدراتها ، وامكاناتها وتعطي ثمراتها ، كذلك كل واحد من أبنــاء البشر يدفنه ركــام الخرافــات ، ووحل الضــغوط والشهوات ، عليه أن ينشط وان يتحدى وأن يبلور جوهرته الانسانية ، وأن ينبعث خلقا جديدا ، وهذه

مسئولية الإنسان ، وذلك ميثاق الله الذي تعهد به كل فرد من أبناء آدم وحواء.

ولكن كيف يبلور الواحد منا جوهر الانسانية في ذاته ، ويصبح ذلك الإنسان الذي فضّله الخالق وأكرمه وخلقه في أحسن تقويم؟

انما عن طريق الاتصال المباشر بالله ، والانطلاق من الايمان به نحو بناء حياة جديدة لنفسه ، مستقلة عن تقليد الآباء ، وحرّة بعيدة عن الغفلة والنسيان.

لقد كنا في صورة ذر كما جاء في أحاديث صحيحة ، وكنا في صلب آدم ، أو كان بعضنا في صلب البعض ، وأخرجنا الله سبحانه واشهدنا على أنفسنا.

(**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)

قد يكون معنى هذه العبارة أن ربنا اخرج كل ولد من ظهر والده.

(**وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ**)

الغفلة لا تكون تبريرا مقبولا للبشر عند الله ، بل يجب أن يتحدى البشر حجاب الغفلة بنور التذكر ، وبوهج العقل الذي يشع في ضمير البشر في بعض الأحيان ان لم يكن دائما.

[173] (**أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**)

ان هذا التبرير ليس سليما ولا مقبولا عند الله ، إذ أن الله قد أخذ الميثاق من كل واحد منا وحمله مباشرة مسئولية الايمان ، وإذا قصّر جيل في إيمانه فأن الأجيال القادمة غير معذورة باتباع ذلك الجيل الأول ، وهذه الآية تحذّر من التقليد ببلاغة

كافية.

[174] وربنا الحكيم يذكرنا بهـذه الحقـائق لكي نعـود الى فطرتنا ، ونبلور جوهر الإنسـان في ذواتنا ، ونرفع عن أنفسنا غشاوة الغفلة ، وأغلال التقاليد.

(**وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

وَاتْـــلُ عَلَيْهِمْ نَبَـــأَ الَّذِي آتَيْنــاهُ آياتِنا فَانْسَــلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (175) وَلَوْ شِـئْنا لَرَفَعْنــاهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَــدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَــعَ هَـواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُـصِ الْقَصَــصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) ســاءَ مَثَلاً الْقَــوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كـانُوا يَظْلِمُـونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللـهُ فَهُـوَ الْمُهْتَـدِي وَمَنْ يُضْـلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (178)

ردة العالم ومثل الكلب اللاهث

هدى من الآيات :

حين يتخذ الدين اداة لشحذ العزيمة ، ووسيلة لتكامل البشر ، فان ذلك سيكون وفاء لميثاق الإنسان وعهـده مع ربه ، ولكن حين يكـذب البشر بآيـات الله ، ولا يتمسك بها بقــوة ، بل ينســلخ منها إذا تعــرض لضــغوط ما ، فــإن الشيطان سـيلحق به ليملأ قلبه الـذي فـرغ من آيـات الله فيصـــبح خاويا ، والله قـــادر على ان يرفع البشر بآياته ، ولكن بشـــرط ان ينبعث البشر بذاته عن جاذبية الأرض ، ولا يتبع هـــــواه ، أما إذا أخلد الى الأرض ، وركن إليها ، واعتمد على العـــرض الزائل من الـــدنيا ، فمثل هـــذا الشخص كمثل الكلب في خسته ودناءته ، وارتباطه بالدنيا واتباعه لأهلها بأقل شيء ، وهناك صـفة اخـرى له هي أنه يلهج بآيـات الله الـتي لم يسـتفد منها إلا ألفاظا وأسـماء ، فهو حين تجادله في آيـــات الله يلهث بها ، أو تتركه يلهث بها مراء ونفاقا.

ولقد ضـرب الله هـذه الامثلة لعل النـاس يتفكـرون ، ولا يتخذون الدين تقليدا أو أسماء بلا معاني.

ان الذين يكذبون بآيـات الله هم المثل السـيء الـذي يعكس واقعا فاسدا لأنهم يظلمون أنفسهم بتكذيبهم آيات الله.

ان الهدى من الله ، لا ما يتخيله البشر بفكـره القاصر ، اما الضلالة فهي نتيجة طبيعية لفقـدان هداية الله ، ومن لم يهــده الله فــإن أســاطير البشر وخيالاته هو لا تعطيه الهداية ، بل تزيده خسارة وضلالا ..

بينات من الآيات :

ضرورة الالتزام :

[175] لا بد للإنسان ان يتبع منهجا ، ويلتزم بميثـاق ، فــان اتبع منهج الله وميثاقه فقد فــاز ، والا فســوف يملأ الشيطان فراغه ، فيتبع منهجه ، ويصــبح من حزبه ، وحين يـؤتي الله فـردا نعمة الرسـالة ، فيـنزل عليه آياته ، فعليه أن يتعهد بميثـاق الله فيها ، وهو الالـتزام المطلق بها دون ان يــترك شــيئا منها ، تحت ضــغط الشــهوات أو ســبب الإهمال.

أما إذا ترك جانبا من آيات ربه بعد أن استوعبها ، فإن الشـيطان سـوف يصـبح قرينه وسـاء قرينا ، ويكـون مثله مثل الكلب كما علمـاء السـوء. والأحبـار والرهبـان ، وكل من أوتي علما فتركه.

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنـاهُ آياتِنا فَانْسَـلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ**)

[176] (**وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها**)

ان الله قــــادر على ان يجعل آياته ســــببا في رفعة البشر ، بشـرط أن يسـعى هو من أجل ذلك ، أما إذا لازم الأرض وما فيها من ذلة وصـغار ، وشـهوات عاجلة زائلة ، فإن الله

يتركه لشأنه ..

(**وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ**)

واتباع الهـوى هو نتيجة مباشـرة للخلـود الى الأرض ، والاكتفاء بها وشهواتها ، وعدم التطلع الى السـماء ، والى القيم الروحية والى المستقبل الأفضل ، والى مرضاة الله والى الجنة.

ان العلم معـــراج البشر ، ولكن إذا ركن الفـــرد الى الأرض وشهواتها وجاذبيتها ، فإن العلم سوف يـترك مكانه للجهل ، والعقل للشـــهوات ، وتصـــبح كلمـــات العلم عند صاحبها كلهث الكلب.

(**فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**)

ان كل الحيوانــــــات تلهث حين تتطلب الحاجة الى اللهث ، كما إذا حمل عليها فإنها تلهث دفاعا أو اســتعدادا للخطر ، أما الكلب فأنه يلهث بمناسبة وبدون مناسبة لان عادته اللهث كذلك العالم الذي يتبع هـواه ، يلهج بـالعلم لا من أجل العمل به ، أو توجيه الناس الى الخير به ، بل من أجل المباهاة والتعالي على الناس باسمه ، فـالعلم بـدون هـدف أو العلم الـذي يسـتخدم لأغـراض دنيئة ، كما لهث الكلب لا فائدة من ورائه ولا كرامة.

(**ذلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُـصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)

الذين يكذبون بآيات الله لا يجـدون علما يهتـدون به ، أو نورا يستضيئون به ، وانما يتعلمون كلمات يلهجون بها ، كما يلهث الكلب بلا هدف.

انما يستفيد البشر بالعلم إذا تفكر ، وتحول العلم الى جزء من شخصيته ، وتعلم

علما يفيده ، وكان تعلمه لهدف مقدس ، اما وسيلة تعلمه فهي القصص الواقعية الـتي يسـتلهم منها رشـدا وعـبرا ودروسا.

حب الشهرة :

[177] ان أكـثر ما يخـدع رجـال العلم فيـدفعهم نحو المتــاجرة بــالعلم هو حب الشــهرة ، بيد أنهم ســوف يشتهرون بالسوء أكثر ما يشتهرون بالخير ، وهم يضربون بذلك أسوء الأمثلة.

(**ساءَ مَثَلاً الْقَـوْمُ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَـهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ**)

إنهم أسوء مثل ، لأنهم وجـدوا فرصة للفلاح فظلمـوا أنفسهم بترك الفرصة.

[178] من أسـباب هلاك البشر هو اتكاله على نفسه ، وغروره الذي يسـتغني به عن هـدى الله ، وعظمة رسل الله والعلماء بالله ، وخصوصا علماء السوء فإنهم يهلكون بهـذا الـزعم كثـيرا ، ولـذلك يؤكد ربنا على ان الهـدى من الله ، وعلى البشر ان يتمتع بالتسليم والقنوت له سـبحانه حتى يهتدي ، أما إذا لبس رداء الغرور والكبرياء فسيضل ، لأنه سوف لا يهديه ، وليس هناك مصدر آخر للهداية.

(**مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَـدِي وَمَنْ يُضْـلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179) وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (180) وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)

---

179 [ذرأنا] : الذرء بمعنى الإنشاء والاحداث والخلق.

183 [أملي] : الاملاء التأخير والامهال.

كيف ندعو الله بأسمائه الحسنى

هدى من الآيات :

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقـويم ، وزوده بكل وسائل الهدى ، ولكن حيث ترك الانتفـاع بها أصـبح حقـيرا الى درجة لا ينفع الا لجهنم ، وكأنه قد خلق لها ومن أجلها ، لقد زود الله البشر بالقلب وجعل التفقه به من مسئولية البشر ، وزوده بالعين ولكن التبصر بها من واجبه ، وكذلك الإذن جعلها من أجل السماع الاسـتماع لا يمكن الا بـإرادة البشر وبقراره.

ان الإنســان الــذي لا يقــرر الانتفــاع بوســائل الفقه والمعرفة الـتي عنـده يشـبه الانعـام ، بل أضل منها منهجا وطريقا ، لان الانعام لا تملك قدرة ولبشر يملكها ولا ينتفع بها ، وهؤلاء غافلون عن قدراتهم العاملة ، وعن المستوى الذي بامكانهم بلوغه.

ولله ســـبحانه الأســـماء الحســـنى ، وكل اسم من أسمائه يشـير الى قـوة فاعلة في الحيـاة ، أو سـنة جارية فيها ، فـــإذا عرفنا الله بآياته عرفنا تلك الأســـماء ، ومن خلالها اســتطعنا أن نكيف أنفســنا مع الحق ، ودعــاء الله بأسمائه الحسنى يكرس روح

الحقيقة في البشر ، أما من يغـــير أســـماء الله فعلينا ان نتركهم للجزاء العادل.

وهناك من يحكم بالحق ويجعله مقياسا لتقييم الحيـاة ، أما الذين يكذبون بآيات الله فإنهم سـوف يتـدرجون الى النـــار من حيث لا يعلمـــون ، وان الله يملي لهم ويمهلهم الى حين.

بينات من الآيات :

الحكمة الربانية :

[179] أن ربنا رحيم ورحمته واســـعة ، ولكن رحمته سبحانه قد حددها بحكمته البالغة ، بأولئك الـذين ينتفعـون بـالنعم ويقـررون الاسـتفادة منها ، أما من لا يشـتغل قلبه وســمعه واذنه وبالتــالي مداركه فــان رحمة الله تتبـــدل بالنســبة اليه الى نقمة شــديدة ، حيث يلقى به في جهنم وكأنهم قد خلقوا لها.

(**وَلَقَـدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِـيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُــوبٌ لا يَفْقَهُــونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِــرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها**)

من الآية يظهر بوضـــوح أن الهــــدى من الله ، ولكن الاهتـداء بالهـدى من البشر ومن صـنعه ، فهو الـذي يقـرر التفقه بالقلب ، والتبصر بـالعين ، والسـماع بـالاذن ، ومن دون هذا القرار فان الله لا يكره أحدا على الهدى.

(**أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ**)

لان الانعـــام تهتـــدي بفطرتها نحو منافعها ، وهـــؤلاء ينحرفـون حـتى انهم ليضـرون بأنفسـهم بـوعي ومن دون وعي ، كالذي يشرب الخمر ويضرر بنفسه ، والذي يسلط الطاغوت ليسـتعبده ، والـذي يعـاقر المخـدرات ويمـارس الفاحشة ليضر بنفسه ، مما لا يفعله الحيـوان لأنه يهتـدي بفطرته الى مصالحه ..

(**أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**)

الغافل هو : الـــذي يملك ذخـــائر المعرفة ولكنه لا يستفيد منها فيقع في المهالك.

الكفر بالأسماء والصفات :

[180] بسـبب الإلحـاد والانحـراف في أسـماء الله ، ينحــرف كثــير من النــاس فــيزعمون مثلا أن الله واسع الرحمة وانه لذلك لا يعذب أحدا لان رحمته تـأبى ذلك ، أو يزعمــون بأنه لو زلّ أحد فانه قد ســقط نهائيا وســوف يعاقبه الله لأنه شديد العقاب ، ولا يـرجى له الخـير أبـدا ، هذا التصور الخاطئ أو اذاك يكرس انحراف البشر ، بينما الاعتقاد السليم أن الله واسع الرحمة وأنه شـديد العقـاب كل في محله وحسب الحكمة ، وان الرحمة والنقمة تأتيان بعد ارادة البشر ومشـيئته ، فلو أراد الرحمة لنفسه لحصل عليها ، ولو شـاء العـذاب لابتلي به ، هـذا الاعتقـاد السليم يبعد البشر من انحرافاته ، وهـذا الاعتقـاد السـليم انما يبلغه الإنســان بفطرته النقية وعقله وبصـيرته ، حيث ينسب بها الى ربه أحسن الأسماء.

(**وَلِلّٰهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها**)

إنّ دعاء الله بأسمائه الحسنى يكرس الضمير الحسن عند الإنســان ، فيهتــدي الى الســنن الحاكمة في الحيــاة والتي يجريها ربنا بأسمائه الحسنى.

(**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي أَسْـمائِهِ سَـيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

والإلحــاد في أســماء الله يسـبب انحرافــات عملية ، وعلى تلك الانحرافـات يعـاقب الله عبـاده ، لا على مجـرد التصــور الخــاطئ ، بل نســتطيع أن نؤكّد ان الانحرافــات العملية هي السبب المباشر في الإلحـاد في أسـماء ربنا ، إذ من دون سبب وإذا ترك البشر فطرته النقية عرف الله بأسمائه الحسنى ، ولذلك لا ينفع الجدل في أسماء الله

والمناقشة مع الملحـــدين فيها ، لان ســـبب الانحـــراف والإلحــاد ليس ســوءا لفهم بل ســوء النية ، وربما لــذلك أمرنا الله بترك هؤلاء الملحدين وشــأنهم ، إذ المجادلة مع المنحرفين بوعي مسبق وإصرار عليه تشوش رؤية البشر الصافية ، وتشككه في حقه.

وتبقى كلمة في أسماء الله وهي :

يبـــدو أن الخليقة تقـــاد بقـــوى معينة مثلا بـــالعلم ، والحكمة ، والقدرة ، فالشمس تجري لمسـتقر لها ، ولكن كيف؟

الحكمة هي التي تجعل للشمس هـدفا تتحـرك نحـوه من أجل تحقيقه ، والعلم هو الذي يحدد مسـيرة الشـمس بحيث تبلغ الهدف ، والقدرة هي الـتي تنفذ الحكمة والعلم وتقهر الشمس على اتبـاع تلك المسـيرة المحـددة ، هـذه هي أســـماء الله ســـبحانه ، وتجلياته ، فـــالعلم اسم من أسمائه الـذي يتجلى في كل صـغيرة وكبـيرة في الكـون ، والحكمة كذلك ، والقدرة وهكذا ..

وحين ندعو الله بأسمائه ونقول يا عليم ، يا قــدير ، يا حكيم ، أو نقــول نســألك بعلمك ، وبقــدرتك ، وبحكمتك ، فاننا في الــوقت الــذي نكــرس في أنفســنا قيمة العلم ، والقــدرة ، والحكمة ونســتخدمها في واقعنا ، فــان هــذه القيمة لا تكون منفصلة عن توحيد الله وعن عبادته ، وعن الايمــان بأنه أعلى من أســمائه ، وأن علينا التوكل عليه لا الاعتماد فقط على أسمائه.

التوسّل بالذات لا بالصفات :

ان من أكــبر أخطــاء البشر هو التوسل بأســماء الله سبحانه دونه ، لان ذلك يشكل جزءا من الحقيقة الكونية ، وهو يــؤدي الى الايمــان ببعض الحقيقة ، فمثلا ، الايمــان بالعلم دون الحكمة يسـبب جعل العلم معبـودا وحيـدا كما فعل الفرنسيون في منطلق

ثورتهم. والعبودية للعلم تجعل العلم بلا هـدف ، بل بهـدف اســتغلال البشر ، وســحق القيم المعنوية عنــده. كــذلك القـدرة إذا أصـبحت معبـودة بـذاتها لا بصـفتها اسـما من أســماء الله الحســنى ، فــان القــدرة المنطلقة بلا حكمة تستهوي الناس وتجعلهم يطلبونها بشـتى الوسـائل ، حـتى بفداء القيم.

ومن هنا تركز الادعية المــأثورة على تــذكر الأســماء الحسنى بأنها منسوبة الى الله وجاء في بعض الادعية : ـ

[اللهم اني أسألك باسمك يا الله يا رحمن ، يا رحيم ، يا كريم ، يا مقيم ، يا عظيم ، يا قديم ، يا عليم ، يا حليم ، يا حكيم ، لا اله إلّا أنت ، الغوث الغوث ، خلصـنا من النـار يا رب].[1]

2 ـ [اللهم اني أســألك باســمك يا علي يا وفي ، يا غــني ، يا ملي ، يا صــفي يا رضي ، يا زكي يا أبــدّي ، يا قوي يا وليّ].[2]

3 ـ [اللهم إني أسـألك من بهائك بأبهـاه وكـلّ بهائك بهيّ ، اللهم إني أسألك ببهائك كله ، اللهم إني أسألك من علمك بأنفـذه وكـلّ علمك نافذ ، اللهم إني أسـألك بعلمك كلّه].[3]

4 ـ [اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء ، وبقوتك التي قهرت بها كلّ شيء ، وخضع لها كلّ شـيء ، وذلّ لها كلّ شيء ، وبجبروتك التي غلبت بها كـلّ شـيء ، وبوجهك البـاقي بعد فنـاء كـلّ شـيء ، وبأسـمائك الـتي ملأت أركان كلّ

---

(1) من دعاء الجوشن الكبير في مفاتيح الجنان.
(2) من دعاء البهاء في مفاتيح الجنان.
(3) دعاء كميل للإمام علي (ع)

شيء]. [1]

إنّ أسلوب الادعية يكـرس قيمة الأسـماء الـتي تـذكر تـارة بـالعموم وتـارة بالتحديد ، ولكن تبقى قيمة التوحيد فـوق قيمة أسـماء الله ، لان هـذه الأسـماء تتصل بالتـالي بالله سبحانه.

موقف التصديق :

[181] وحين يـدعو المـؤمن ربه بأسـمائه الحسـنى يجعل الحق مقياسا وقيمة ، لأنه بمعرفة الله سـبحانه ومعرفة أسمائه الحسنى يستوعب البشر جوانب الحق.

(**وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**)

والملاحظ في الآية أن الله سـبحانه عـبر عن أولئك الذين يحكمون بالحق ب (الأمة) باعتبارهم طائفة منتظمة تحت قيادة إمام ، ثم إنهم يهدون النـاس الى الحق ، وهم بدورهم يأخـذون بـالحق ويجعلونه مقياسا لتطـبيق العدالة في المجتمع.

موقف التكذيب :

[182] وفي مقابل هـؤلاء جماعة يكـذبون بآيـات الله الـتي تهـدي الى الحق ، وجـزاء هـؤلاء اسـتدراجهم حـتى يصلوا الى الدرك الأسفل من حيث لا يعلمون]

(**وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْـتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**)

والاستدراج هو : إعطاء الطـرف الآخر فرصة التقـدم حـتى يقع في الفخ مفاجئة ، لـذلك لا يجـوز للبشر أن يسـتريح على المهلة الـتي يعطيها الله له ، أو على النعم التي

---

(1) دعاء السحر

تترى عليه ، أو ما أشبه .. فـان المهلة أو النعمة قد تكـون مصيدة له ، وفخا سرعان ما يقع فيه.

[183] (**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**)

أيّ أعطيهم مهلة ، وذلك خطة لأخـــــذهم أخـــذا لا يقـــــدرون على الفـــــرار منه ، لان خطة الله متكاملة ومحكمة.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (187)

---

184 [جنّة] : الجنة الجنون وأصله الستر.
187 [الساعة] : الساعة التي يموت فيها الخلق.
[أيّان] : متى وهو سؤال عن الزمان على وجه الظرف للفعل.
[مرساها] : الارساء الإثبات ، ومرسيها مثبتها ، ورسا الشيء يرسو فهو رأس إذا ثبت.
[حفي] : الحفيّ المستقصي في السؤال ، واحفي فلان بفلان في المسألة إذا أكثر عليه وألحّ.

عسى أن يكون قد اقترب الأجل

هدى من الآيات :

زود الله البشر بـــــــأدوات التفكر ليكتشف الحقيقة بنفسه ، وإذا لم يفعل فـان ضـلالته مؤكـدة ، وعن طريق التفكير يبلغ البشر الى طبيعة الأشياء والظواهر ، فظاهرة الرسالة لو تفكر المرء فيها عرف انها حق ، وان الرسـول ليس به جنــون ، بل ان ما يــرى في هــذه الظــاهرة من مظاهر الانتفاضة والتغيير فانما هو شهادة على واقع جديد سيأتي وراءه ، والرسالة إنذار واضح بوقوع ذلك الواقع.

وكذلك لو تفكر المرء في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من عظمة وفخامة ، ولو تفكر في خلق أي شيء مخلوق وما فيه من متانة ولطف ودقة وإتقان ، آنئذ يعــرف أن هــذا النظــام المتكامل يعتمد على هيمنة قــوة أعلى منه ، وأن هذا النظـام يهـدف أولا : إمتحـان البشر ، وثانيا : أن المـدبر له لو شـاء تـرك النظـام يتهـاوى وهـذه اللحظة محتملة في أي وقت. وإذا تفكر البشر في الرســـالة ، ثم تفكر في الخليقة لآمن بها ، وإذا تــــولى جحــودا فلا شــيء آخر يمكن أن يــؤمن به بعقله ، كيف والهدى من الله

وقد تـولى عنـه؟ ومن يضـلله الله يمنع هـداه عنه ، فـان طغيانه واستكباره سيجعله قابعا في ضلالته الى الأبد.

وهم يسألون الرسول عن الساعة : مـتى ترسو عليها سفينة الكون؟

تلك السـاعة الثقيل وقعها في السـماوات والأرض ، إنها لا تـأتي إلّا مفاجئة وعلمها عند الله ، وأكـثر النـاس لا يعلمون.

بينات من الآيات :

لا للتبرير :

[184] سـبق الحـديث في آية (173) على ان على البشر مسـئولية المعرفة والتصـميم ، وانه لا يمكنه تـبرير فساده بالغفلة والتقليد ، وها هو القرآن يذكرنا مرة اخرى بمسؤولية التفكير الوسيلة الوحيدة لمقاومة الغفلة :

(**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**)

ولأهمية التفكـير وضـرورته الفطرية يتسـاءل الله : لماذا لم يتفكروا؟

(**ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

إن الرسـول يخـبرهم عن أشـياء جديـدة غـير مألوفة ولذلك فيمكن أن يكـون هـذا في نظـرهم جنونا عارضا أو إنذارا مبينا ، وبـالتفكير نعـرف المتانة في الكلام ، والقـوة في الـدليل ، والسـلامة في النية ، وشـواهد الوجـدان والعقل مما يدل جميعا على ان كلام الرسـول ليس جنونا بل هو إنذار حق وواضح.

[185] ذلك الإنـذار الـذي يحـذر من المصـير الـذي ينتهي اليه المجرمون ، يمكن أن

نسمعه من الرسول ومن لسان الكون أيضا ، الـذي ينطق بالنظام الدقيق والعظمة المتناهية.

(**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

وما فيهما من عظمة تدل على قدرة الخـالق وهيمنته ..

(**وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**)

وما في كـلّ شـيء ينظر اليه الإنسـان من خلق الله دلالة واضـحة على دقة النظم ، وإتقـان الخلق ، وحسن التدبير.

إن النظر في عظمة الكون ، وفي أيّ شيء مخلوق ، يهدينا الى الله الـذي يهيمن على تـدبير الكـون ، والله في أيّ لحظة يمكن أن يسـحب تـدبيره عن الكـون فيتهـاوى ، وإنه لم يخلق الخلق عبثا وبلا هـدف ، بل بحكمة بالغة هي : ابتلاء الإنسان ، واختبار تحمله لمسؤولية التفكر ، وارادة التصميم ..

(**وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُـونَ قَـدِ اقْتَـرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِـأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**)

إذا تركوا هذا الحديث الـذي هو إنـذار مـبين ، ويشـهد عليه النظر في السـماوات والأرض وفي أيّ مخلـوق صـغيرا أو كبـير من خلق الله سـبحانه ، هل هنـاك حـديث أفضل منه يؤمنون به؟

[186] الذي لا يهتدي بهدى الله فان الدليل الوحيد له هو الضلالة الدائمة. لماذا؟

لان عدم ايمانه بهدى الله ناشئ من طغيانه على الله والحق ، وهـذا الطغيـان بـاق معه ويسـبب له العمه والضلال.

(**مَنْ يُضْــلِلِ اللــهُ فَلا هــادِيَ لَــهُ وَيَــذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**)

متى تقوم الساعة؟

[187] إذا كانت شواهد الكـون تـدل على أن النظـام الـذي يمسك السـماوات والأرض سـوف ينتهي في يـوم ، وان سـفينة الكـون سـوف ترسو في نهاية المطـاف على شاطئ ، فان هذا السؤال سوف يطرح أيّـان مرسى هـذه الساعة؟ متى؟ وكيف؟ :

(**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها**)

ومتى تقف عند الشاطئ النهائي.

(**قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**)

يبـدو لي : أن سـاعة كـلّ طائفة تنتهي في حين ، فما ذا ينفعها حين ينتهون؟ إن الحياة تسـتمر في غـيرهم ، إن سـاعة قـوم لـوط رست عند ما نـزل العـذاب عليهم في صورة زلزال عظيم ، وان سـاعة فرعـون وقومه قد حلت حينما أغرقوا في اليم ، وهذه السـاعة تـأتي مفاجئة ودون إنذار.

وربما يشـــير الى ذلك ضـــمير (كم) ، ذلك لان نهاية الكـون لا تـأتي الجميع ، بل فقط أولئك الـذين يتواجـدون آنئذ.

ويبقى السـؤال : لما ذا يطـرح النـاس هـذا السـؤال على الرسول؟ أو ليسـوا هم المسـؤولون أولا وأخـيرا عن أنفسهم؟ أو لا يهمهم أمر نهـايتهم وبلـوغ سـاعتهم ، أو ان الرسول حفي بها .. مطلع عنها؟

(**يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها**)

يستقصي الســـؤال عنها ، ويطلع بجوانبها ، بينما هم المسؤولون وعليهم التقصي كما الرسول.

(**قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ**)

فهو الذي يقرر متى ينتهي وقت الامتحان ، ويبلو واقع كلّ واحد منا ، فيقرر بمشيئته المطلقة ميعاد الجزاء ..

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

هــذه الحقيقة الواضــحة وهي : أن مصــير البشر بيد الله العزيز الحكيم ، لا بيـدهم أو بيد الرسـول (صـلّى الله عليه وآله).

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِـي نَفْعـاً وَلا ضَـرًّا إِلاَّ ما شـاءَ اللـهُ وَلَـــوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْـــتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْـــرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـونَ (188) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِـدَةٍ وَجَعَـلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَـرَّتْ بِـهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَـوَا اللـهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صــالِحاً لَنَكُــونَنَّ مِنَ الشَّـــاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعـالَى اللـهُ عَمَّا يُشْــرِكُونَ (190) أَيُشْــرِكُونَ ما لا يَخْلُـقُ شَـيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُـــونَ (191) وَلا يَسْـــتَطيعُونَ لَهُمْ نَصْـــراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونْ (192)

الإنسان : قصة البداية

هدى من الآيات :

لو تـدبر الإنسـان في كتـاب الحيـاة لعـرف الحقيقة ، كذلك لو تدبر في نفسه وما فيها من علائم النقص وآيـات الخلقة.

من أنا؟ وكيف خلقت؟ وما أملك؟ ومن يملك أمري؟

إنـــني موجـــود لا أملك لنفسي نفعا ولا ضـــرا إلّا في حـدود الحرية والامكانيـات الـتي وفرها الله لي ، ولا أعلم الغيب بـدليل اني أخسر كثـيرا بسـبب جهلي بالمسـتقبل وبالغائب عن نظري ، وكثيرا ما تحمل الحوادث السوء لي وانا اسـتقبلها جهلا ، والإنسـان بحاجة الى الرسـول الـذي ينـــذره بالمســـتقبل ويجعله يتحـــذره ، ويعرّفه كيف ينتفع بالمستقبل.

كيف خلقني الله؟

لقد غرز الله شهوة الجنس في والدي ، حيث خلقهما من نفس واحدة وجعل

أحـــدهما يســـكن الى الآخر ، ويتكامل وجـــوده النفسي والجســدي والمعيشي بالثــاني ، وحين أتى الرجل زوجته حملت منه حملا سهلا لم تشعر بثقله حتّى انها كانت تقوم بأعمالها العادية ، حـتى أثقلت بالحمل بعد فـترة ، وهنـاك شـعرا ـ هي وزوجها ـ بمسـؤولية الطفل ودعـوا الله أن يرزقهما صالحا غير فاسد ، وتعهدا بشكر الله ، ولكن حين رزقهما الله ولدا صالحا نسيا الله ونسـبا ولادة الطفل الى بعض الشركاء ، دون أن يفكرا في أن الشركاء لا يملكون لهما نصـــرا ولا يمكن الانتصـــار لهما ، كما أنهم عبـــاد مخلوقـون ولا يقـدرون على خلق شـيء ، كما انهما نسـيا تلك الحالة الســـــابقة حيث توسلا عندئذ فقط بالله دون الشـركاء!! لأنه في حالة الشـعور بـالخطر ينسى المـرء الشركاء.

بينات من الآيات :

من هو الرسول؟

[188] من الرســـول؟ هل هو شخصـــية متمـــيزة جسديا؟

كلا .. إنه فقط يتمـــيز بالرســـالة المـــوحى بها اليه ، وبالاتصـــــــــال بينه وبين ربه ، فما لديه إنما هو من الله سبحانه وبه.

(**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِـي نَفْعـاً وَلا ضَـرًّا إِلَّا ما شـاءَ اللهُ وَلَـوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْـتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْـرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ**)

فحين أصاب بالسوء كأي بشر آخر ، وحين لا اسـتكثر الخير لعدم معرفـتي بالمسـتقبل ، فـاني بشر مثلهم. نعم أعلم الغيب في حدود تعليم الله لي ووحيه عليّ ، كما أني أملك النفع وادفع الضر في تلك الحدود أيضا.

(**إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

أما الذين لا يؤمنون فـان الـوحي لا ينفعهم إذ الـوحي انما ينفع من يريد ويصـــمم على تطبيقه وتنفيذ مناهجه ، وإذا كـان الرسـول لا يملك نفعا ولا ضـرا ، فكيف بسـائر النـاس؟ ومعرفة الإنسـان بنقـاط ضـعفه تجعله يعـود الى واقعه ويعرف انه مربوب مخلوق.

قصة الخلق :

[189] الآن لا أملك شيئا إلّا بقدر ما ملكني الله ، أما في الماضي فقد كنت نتيجة غريزة جنسـية خلقها الله في والــديّ ، وربما الوالــدين لم يســتهدفا من وراء الــزواج ولادتي ، بل ربما أرادا قضاء شهوة جامحة!

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ**)

فلـــــــذلك يحن الواحد منا الى الآخر ، ويعطف عليه ويـأنس اليه ، ولـذلك أيضا لا فـوارق بين البشر ونظـيره البشر ، وخصوصا لا فـرق بين الـذكر والأنـثى فرقا حقيقيا ..

(**وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها**)

فالرجل خلق متكامل مع الأنــثى لــذلك لا يســكن إلّا إليها ، ومن مظاهر السكن ، إن كلّ شـخص يشـعر بنقص حــتى يكتمل ، بــالزواج ، وآنئذ يكــون بإمكــان الطــرفين تكميل حياتهما معا ، فــاذا وفر الــذكر للحيــاة المتكاملة : القوة ، والعزيمة ، وخشونة التحدي ، فان الأنثى تـوفر لها الرحمة ، والعاطفة ، ونعومة الرفق ، وكلما هو ضــــروري للتعاون ..

(**فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ**)

أيّ مارست أعمالها العادية بسـهولة ويسر ، دون ثقل عليها من قبل الجنين ، الذي يتكامل في رحمها بســرعة ، أو ليس ذلك يدل على إتقان الصنعة ، ولطف

التدبير ، من قبل الرب الحكيم العليم ..

(**فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَـوَا اللـهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صـالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)

إن الشعور بالثقل لا يلازم أبدا الشعور بالصـعوبة ، إذ المرأة السـليمة لا تشـعر بصـعوبة بالغة بسـبب الحمل إلّا قبيل الولادة ، ولكن هذا الشـعور إنما هو بهـدف إشـعارها بالمسؤولية القادمة ، وذلك للاسـتعداد لها وتوفـير وسـائل الراحة والامان للضـعيف الجديد ، وهكـذا نـرى كيف يتغيّر الوالـدان ويشـعران بمسـؤولية بالغة تجـاه الوليد ، وأول طلبهم هو : أن يكون خلاصة حياتهما وفلذة كبديهما سالما وصالحا ، جسديا وروحيا ، ولفرط الاحسـاس بالمسـؤولية ينسـيان الشـركاء المـزيفين ويتوجهـان الى الله ربهما ، مثلما ينسى البشر كل الشركاء في أوقات العسر الشديد ، بل ويتعهدان بالشكر لله ، والقيام بواجبات الوليد الجديد مثل : التربية السليمة ، والارتفاع الى مسـتوى الأب والأم إذا آتاهما صالحا ..

الإنسان والنسيان :

[190] ولكن سـرعان ما ينسـيا هـذه التعهـدات حيث يعـودان الى الشـركاء ، وهي كـلّ القـوى المادية الـتي تضـــغط على البشر باتجاهـــات منحرفة ، مثل المجتمع الفاسد ورمـزه السـلطة ، ومثل الثقافة الفاسـدة ورمزها الأحبـار ، والرهبـان ، والشـعراء ، ومثل الاقتصـاد الفاسد ورمزه أصحاب المال ، والرأسمالية.

(**فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَـهُ شُـرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

ولـذلك لم يطبق نـاهج الله في تربية الأولاد ، بل اتّبعا الشركاء ، فافسـداه اجتماعيا حينما اخضـعا ، للطـاغوت ، وأفسداه ثقافيا حيث سلماه بيد أدعياء العلم والـدين وهما يعرفان فسادهم ، وأفسـداه اقتصـاديا حيث ربطـاه بعجلة الرأسمالية.

بينما كان الواجب عليهما تربيته على أساس سليم ، وفصله عن سلبيات الشركاء أنى كانوا ، وتحريره لله وجعله مرتبطا به وبرسالاته ، ذلك الرب الذي أعطاهما إياه وجعله صالحا غير فاسد ، ولكنهما هما اللذان أفسداه،وكما قال الرسول(صلّى الله عليه وآله) :

كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه) [1]

والله أعلى من الشركاء ، والحق الموصى من عنده سوف يجرف غثاء الشركاء وزبدهم ، ويحرر الناس من يد الفاسدين.

قابلية الانهزام والاستعمار :

[191] والناس لا يفكرون ما هي قوة الطاغوت ، أو قوة الرأسمالية ، أو علماء السوء؟ إنهم ضعفاء لولا تسليم الناس لهم ، وخضوعهم لسيطرتهم الظالمة ، إن هؤلاء الشركاء لا يخلقون شيئا بل هم الذين يخلقون ، يخلقهم الله ، فيسرقون إمكانات الناس ، ويفرزهم الوضع الفاسد.

(**أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ**)

إن الطاغوت مخلوق لله ، ولكنه في الوقت ذاته يستغل جهل الناس وغفلتهم ، واطماع طائفة منهم وصغر نفوسهم ، يستغلها في خلق قوة ضاربة له يتسلط بها على المستضعفين ، فكيف يخضع البشر لبشر مثله مخلوق غير خالق؟ خلقه الله وصنعه الوضع الفاسد؟

[192] أنهدف من وراء اتباع السلطان ، أو التسليم للوضع الفاسد ، الركون الى

---

(1) بحار الأنوار ج 3 / 281 / ح 22

قوته ونصـــرته في الـــوقت الـــذي لا يملك الشـــركاء قـــوة ونصـــرا ، بل إذا تـــدبرنا جيـــدا عرفنا : أننا نحن الـــذين ننصر الطـــاغوت ونعطيه السـيطرة علينا ، بسـبب سـكوتنا عليه وخضوعنا له ..

(**وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً**)

إن الطغـــاة والفاســـدين المفســـدين من جلاوزتهم يزعمون أبدا : أن وجـودهم واسـتمرار سـيطرتهم يضـمن للمجتمع الأمن والازدهـــار ، بينما لا يضـــمن الطغيـــان إلا الخـراب والـدمار ، لأنه يكبت طاقـات النـاس ، ويضـعف إرادتهم ، فلا هم قادرون على عمارة بلـدهم لان طاقـاتهم مكبوتة ، ولا هم قادرون على المحافظة على بلدهم لأنهم ضعفاء الارادة.

لقد ثبت عليما : أن أبـرز الأسـباب المباشـرة للتخلف هو : الديكتاتورية كما ان جيـــوش البلاد الـــتي يســـودها الطـــاغوت لم تقـــدر على الـــدفاع بمثل الجيـــوش الحـــرة ، وربما كان من أبرز أسباب هزيمة النازية ديكتاتوريتها ، بل أن الطاغوت أضـعف من النـاس العـاديين لأنه يعتمد على قوة الناس في الدفاع عن شخصه ، بحيث لو تركه الناس تهاوى وسقط ، لذلك قال ربنا سبحانه :

(**وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**)

فحـــتى أنفســـهم لا يســـتطيعون الـــدفاع عنها ، فكيف نعتمد عليها؟

وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (198)

لماذا يدعون عبادا أمثالهم

هدى من الآيات :

إن الشــركاء الــذين يــدعون من دون الله لا يــرجى هدايتهم ، لأنهم فاسدو الضمير ، ولـذلك يجب أن يـتركوا ، ثم لا بدّ أن يتحرر النـاس من عقـدة الـذل تجـاه الشـركاء (الطاغوت وأعوانه من علماء السوء والأغنياء والجنــود) لا بـــدّ أن يعرفـــوا أنهم عبـــاد كما هم ، لا فـــرق ، وأنهم لا يستجيبون للناس ، وأن أعضاءهم مشلولة ، وانهم ضـعفاء ، دعهم يجتمعون فإنهم لا يفعلون شيئا.

بينما الله ولي الصالحين من عباده ، قد نـزل الكتـاب يهدي النـاس ، فكم هو الفـرق بين من لا يهتـدي وبين من يهدي الجميع؟!

أما الـذين يـدعوهم النـاس لا يقـدرون على الانتصـار لأنفســهم ، فكيف ينصــرونهم ، وإن قلــوبهم قد اســودت حتى انهم لا يسمعون دعوة الإصلاح ولا يبصرون ، بــالرغم من استخدامهم لعيونهم ظاهرا.

بينات من الآيات :

آخر الدواء الكي :

[193] إن أئمة الضلال الذين ينازعون الله سبحانه رداء الحاكمية إنهم قد هبطوا الى الفساد الى الحضيض ، ولذلك فان علينا قتلهم وهذا هو العلاج الوحيد لهم ، وحين يزعم بعض من البسطاء ان الطغاة يمكن ان يهتدوا ، فان هذا الزعم تبرير لتكاسلهم وتقاعسهم عن التمرد عليهم ، ولذلك فان القرآن الحكيم قد قضى على هذا التبرير السخيف بقوله سبحانه :

(**وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ**)

فلا يجب أن تدعوهم الى الهدى ، فاذا لم يستجيبوا تثورون ضدهم كما فعل موسى (عليه السلام) ، بل يمكن ان يسبب ذلك في فشل خطط الرساليين.

[194] إن أئمة الضلال هم في واقع أمرهم بشر مثل الآخرين بل هم أقل ، لان الناس العاديين يتقبلون الهدى ، بينما الطغاة لا يستجيبون للهدى.

(**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

أيّ ان كنتم صادقين في نسبة العقل والقدرة الى هؤلاء الشركاء ، ويحتمل أن يكون المراد من الآية الأصنام الحجرية التي لا تعقل وكذلك الآية التالية.

[195] إن هؤلاء أضعف من الناس العاديين لأنهم لا يقدرون على الاستفادة من أعضائهم بسبب تعودهم على استثمار الآخرين ..

(**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ**

(**آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ**)

من الأصنام البشرية كالطغاة ، أو الأصنام الحجرية ..

(**ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ**)

أي ثم اعملوا جميعا ضدي وضد خططي ولا تمهلـوني ، وهـذا تحد صـارخ لها ، ليعـرف الجميع أنها أضـعف من المقاومة فيتركونها ، إن النـاس يغـترون بقـوة الأصـنام وبقــــدرتها على حمــــايتهم من مكـــاره الطبيعة ، ومن مشكلات الحيـاة ، فيلتجئـون الى الطغـاة أو الأصـنام ، ولا يعرفـــون انهم أضـــعف منهم في المقاومة لـــولا الاعلام المزيف والإرهاب.

من هو وليّ الصالحين؟

[196] أما ولي الصـالحين ، ومعبـودهم ، وناصـرهم ، ومن هو أولى بهم ، فهو الله الـذي يـنزل الكتـاب وضـمّنه رسالة مفصلة تبلـور عقـولهم ، وتـربي أنفسـهم ، وتوضح مناهج الحياة ، وتنذرهم وتبشرهم رهبة ورغبة ..

(**إِنَّ وَلِيِّيَ اللــهُ الَّذِي نَــزَّلَ الْكِتــابَ وَهُــوَ يَتَــوَلَّى الصَّالِحِينَ**)

ولأنه نزل الكتاب فمن عمل به وكان صالحا فقد فــاز بولاية الله ، بهدايته وقيادته ونصرته.

[197] وأما غــير الله من ســائر الأوليــاء لا ينصــرون أحدا ولا حتى أنفسهم ينصرونها ، بل هم بدورهم يحتاجون الى النصرة.

(**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**)

ومن دون اذنه ..

(**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**)

أما من أمر الله باتباعه كالرسل والأئمة (عليهم السـلام) فـان المنـاهج الـتي يأخـذون النـاس عليها تنصر التـابعين لها وهم الصـالحون ، ذلك أن ما ينصر البشر ضد شـرور نفسه ومكـاره الطبيعة ليس قـوة غيبية يعيـده عن إرادته ، بل هو عمله الصـالح الـذي يباركه الـرب العزيز الحكيم.

[198] وهـؤلاء ليسـوا فقط لا يهـدون أحـدا بل لا يهتدون أيضا لان قلوبهم مغلقة ونفوسهم فاسدة.

(**وَإِنْ تَـدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدى لا يَسْـمَعُوا وَتَـراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**)

فـأدوات الإدراك عنـدهم مشـلولة ، فحـتى نظـرتهم ليست بقصد الاهتداء والتبصر والفهم بل بقصد النظر ذاته ، ذلك لان الطغاة والمستكبرين لا يهدفون من وراء الحياة شـيئا ، بل اتخـذوها ذاتها هـدفا مقدسا ، ونهاية لرغبـاتهم وتطلعـاتهم ، ولـذلك فليست نظـرتهم للبصـيرة ولا آذانهم للسماع.

وقد سـبق ان الطغيـان سـبب مباشر للكفر ، وهـؤلاء قد بلغوا حضيض الطغيان فكيف يهتدون؟!!

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ

---

199 [بالعرف] : العرف ضد النكر ، ومثله المعروف والعارفة وهو كل خصلة حميدة يعرف صوابها العقول ، وتطمئن إليها النفوس.

200 [نزع] : النزع الإزعاج بالإغراء وأكثر ما يكون ذلك عند الغضب ، وأصله الإزعاج بالحركة ، والنزع أدنى حركة تكون ، ومن الشيطان أدنى وسوسة.

201 [طائف] : وسوسة ما.

202 : [لا يقصرون] : لا يكفّون عن إغوائهم.

203 [اجتبيتها] : الاجتباء افتعال من الجباية ، ونظيرها الاصطفاء وهو استخلاص الشيء للنفس ، وأصله الاستخراج.

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

كيف تتكامل شخصية الإنسان

هدى من الآيات :

لكي تتكامل شخصــية الإنســان عليه أن يأخذ العفو ، ويــأمر بــالمعروف ، وان يعــرف عن الجــاهلين ، ولكن الســؤال : كيف يمكن للإنســان أن يفعل ذلك والشــيطان يفسد قلبه؟

الجــــواب : عليه أن يســــتعيد بالله ويتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الــذين ترسخ الايمــان في أنفســهم ، إذا مسهم من الشيطان شــيء طـائف ، وخـاطرة خاطفة فـإنهم يتــذكرون ربهم ، وبعد التــذكر يبصــرون ويمــيزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، وهم لا يقصــرون ولا يبخلــون في دعم أصــحابهم بالضلالة.

بينات من الآيات :

فمثلا : كل الآيات لا يقبلونها ، وانما يطالبون الرسـالة بآية معينة ، ويتسـاءلون لمـاذا لم يصـطف الرسـول هـذه الآية ، بينما الرسـول ليس هو الـذي يختـار الآيـات ، وانما الله الـذي أوحى بالكتـاب : بصـائر ورؤي وهـدى ، ورحمة للمؤمنين.

ولـذلك على البشر أن يسـتمع الى القـرآن ، وينصت إجلالا له إذا تليت آياته ، وأن يـــذكر الله تضـــرعا وخيفة ، حـتى يتأصل الايمـان في أنفسـهم ، وألّا يكـون غـافلا ولا مستكبرا عن عبادة الله ، بل يسبح له ويسجد له ..

أبعاد الحياة الاجتماعيّة :

[199] ما هي رســـالة الإســـلام ، الـــتي لو اتبعها المجتمع حقق أهدافه ، وأحرز المنعة التي يريد؟

تلخص الآية الكريمة هذه الرسالة :

فأولا : أخذ العفو.

ثانيا : الأمر بالمعروف ، الـذي تتقبله فطـرة الإنسـان وتستسـيغه ، لان الإسـلام دين الوجـدان النقي ، والعقل النير البعيد عن مؤثرات الهوى.

ثالثا : الاعـراض عن الجـاهلين ، وعـدم اتبـاع بعضـهم الفاسد ، وعدم الخوض معهم فيما يخوضون.

(**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ**)

إن الأدوار الثلاث تلخص الحيـــاة الاجتماعية في ثلاث أبعاد : البعد الاقتصادي ـ

والبعد القانوني ـ والبعد الأخلاقي.
ففي البعد الاقتصادي يجب أخذ الأنفال الاضافية التي لا يحتاج إليها الفرد ، لتجعل للخدمة الاجتماعية.
وفي البعد القـــانوني يجب تنظيم الحيـــاة الاجتماعية وفقا لأفضل ما يراه العقل السليم ، في الظرف الخاص ، مما يعطي التشريع مرونة كافية لاحتواء تطورات الحياة.
أما في البعد الاخلاقي فيجب رفع الجهل والجهالة ، وتكتل المؤمنين الصالحين لقيادة الحياة.

ماذا نحتاج للتطبيق؟

[200] ولكن هـذه التعـاليم بحاجة الى قلب سـليم ، وعقل نير ، وشخصية متكاملة ، وذلك كله لا يمكن توفيره إلّا بتخلص البشر من نزع الشيطان وفســاده وبعلو البله ، وعلاج ذلك يكــون بالتوكل على الله ، والاســتعاذة به من الشيطان الرجيم.
(**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـيْطانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللـهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)
يســمع نجــواك ، ويعلم ما في ضــميرك ، فــاذا قلت ظاهرا وأضمرت واقعا فانه سوف ينصرك على الشيطان.
[201] الــذين تكرست في أنفســهم ملكة الالــتزام بالتعاليم الالهية ، وأصبح الدين بالنسبة إليهم عادة بســبب المزيد من العمل فــإنهم إذا انزلقــوا بســبب ضــغط الشهوات فإنهم سرعان ما يتذكرون ويلتزمون بالواجبـات مرة ثانية ..
(**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّــيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ**)

حين يعــودون الى الله ترتفع عن أنفســهم غشــاوة الشهوات ، فيبصرون حقيقة الذنب فيجتنبونه.

[202] بينما الكفــار واخــوان الشــياطين الــذين لا يملكــون حصــانة التقــوى فــإنهم ، ليس فقط لا يعطيهم الشيطان حصانة ، بل يمدّهم الشـيطان في غيهم ، ويـبرر لهم سيئاتهم غرورا ..

من الفكر التبريري :

(**وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ**)

[203] من تلك الأفكـــــار التبريرية الـــــتي يمد بها الشيطان إخوانه ، ويكـرس بها سـلبياتهم هي : أن كل آية كانت تنزل عليهم كانوا يكفرون بها ، ويطالبون بآية أخرى ، ويزعمون أن الآيات تنزل عليهم بطلب الرسول.

(**وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُــلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي**)

والقرآن بصائر يرى المرء بسـببها ومن خلالها الحيـاة فمثلا : القرآن يميز للبشر بين العقل والجهل ، الشــهوات والغضب ، حتى يلامس وجدان كلّ واحد حقيقة نفسه وما بها من عقل وشــهوة ، أو عقل وغضب ، والقــرآن يــذكر البشر بربه عن طريق إثـارة الوجـدان ، وبلـورة عقه ، ثم يربط بين الايمـان بالله وبين ما يـرى في الكـون من آثـار عظمة وجمـال ، ومن نقـاط ضـعف وعجز ، ويربط بعدئذ بين كـلّ ذلك وبين ضـرورة التسـليم لله ولرسـالاته ، كـلّ تلك بصيرة يرى المرء من خلالها الحياة رؤية واضحة.

وإذا تعـذر على المـرء رؤية الحيـاة بسـبب أو بـآخر ، فان الله هو الذي يعطيه الهدى بصورة مجملة أو مفصلة ، فيكشف له طبيعة الــدنيا والآخــرة وما فيهما من عوامل تقدم أو تخلف ، حضارة أو دمار.

والبصــائر والهــدى تعطي البشر رفاها وســعادة هي : الرحمة التي ينزلها الله للمؤمنين باتباع البصائر والهدى.

تعظيم القرآن :

(**هــذا بَصــائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُــدىً وَرَحْمَــةٌ لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

[204] لان القــرآن بصــائر وهــدى فعلى البشر ان يكــبره ويعظمه ، فــاذا قــريء القــرآن فعلى الجميع أن يتركوا كلامهم ويستمعوا الى آيات الذكر.

(**وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَأَنْصِـتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

أيّ تنالون السعادة والرفاه بالاستماع الى آيات الذكر الحكيم.

كيف نقاوم الانسلاخ عن القرآن :

[205] ولكي يقاوم البشر عوامل الانسـلاخ من آيـات الله ، ولكي لا يصبح مثل الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم آذان لا يســمعون بها ، ولهم أعين لا يبصــرون بها ، وبالتالي لكي لا ينسلخ البشر من إنسـانيته ، فـان عليه أن يـداوم قـراءة القـرآن ، وأن يتـذكر آيـات الله وأسـمائه ، ولكن ذكر الله له شروط معينة هي :

أولا : أن يكون التذكر في نفس البشر ، لكي لا يكون الذكر رياء أو نفاقا أو قشريا لا يغور في العمق.

ثانيا : أن يكــون الــذكر تضــرعا وتــذللا ، ومعرفة من الفرد بأنه عبد ذليل لله ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

ثالثا : أن يخاف الفرد ربه وما يترتب على معصيته له من عذاب شديد.

رابعا : ألّا يكــون ذكر الله جهــرا بما يزيد احتمــالات الرياء ، ولا يجعل الفرد

يتعمق فيما يقول.

خامسا : أن يكـون الـذكر بالغـدو والآصـال ، صـباحا ومساء ، كل ذلك يرفع الغفلة عن الإنسان.

(**وَاذْكُـرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِـكَ تَضَـرُّعاً وَخِيفَـةً وَدُونَ الْجَهْــرِ مِنَ الْقَــوْلِ بِالْغُــدُوِّ وَالْآصــالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ**)

قاوم التكبّر في نفسك :

[206] وعلى الإنسـان أن يقـاوم روح الاسـتكبار في ذاته ، ويطيع الله إطاعة كاملة ، وأن يســـبح الله وينزهه من آثـار النقص والعجز الموجـود في خلقه ، وأن يسـجد لله رمزا لتلك الطاعة والعبادة.

(**إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ**)

من الملائكة القـــربين ، والأنبيـــاء ، والشـــهداء ، والصالحين الذين يتحسسـون حضـورهم أمـام الله وهيمنة الله عليهم ، وأنه سميع بصير ، وأنه أقـرب إليهم من حبل الوريد ، إن هؤلاء الذين يعتبرون قـدوة صـالحة لكـلّ واحد منا .. إنهم ..

(**لا يَسْـــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِـــهِ وَيُسَـــبِّحُونَهُ وَلَـــهُ يَسْجُدُونَ**)

وعند ما يشـــعر الفـــرد أنه عند الله ، وان ربه حاضر عنده ، آنئذ يشـعر بجلالة الله ومـدى عظمته ، فيخضع لله ويـــنزع عن نفسه الاســتكبار الزائف ، وعندئذ يعــرف الله ويـــــزداد إيمانا بعظمته ، فيســـبحه وينزهه عن النقص ، وعندئذ تظهر علامـات الخشـوع عليه فيسـجد لله ، وهـذه قمة الانسانية التي كـانت سـورة الأعـراف تهـدف إيصـال البشر إليها .. جعلنا الله سبحانه ممن يتطلع للوصول إليها بالتوكل عليه.

الفهرس

سورة الانعام